منشورات الاختلاف
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

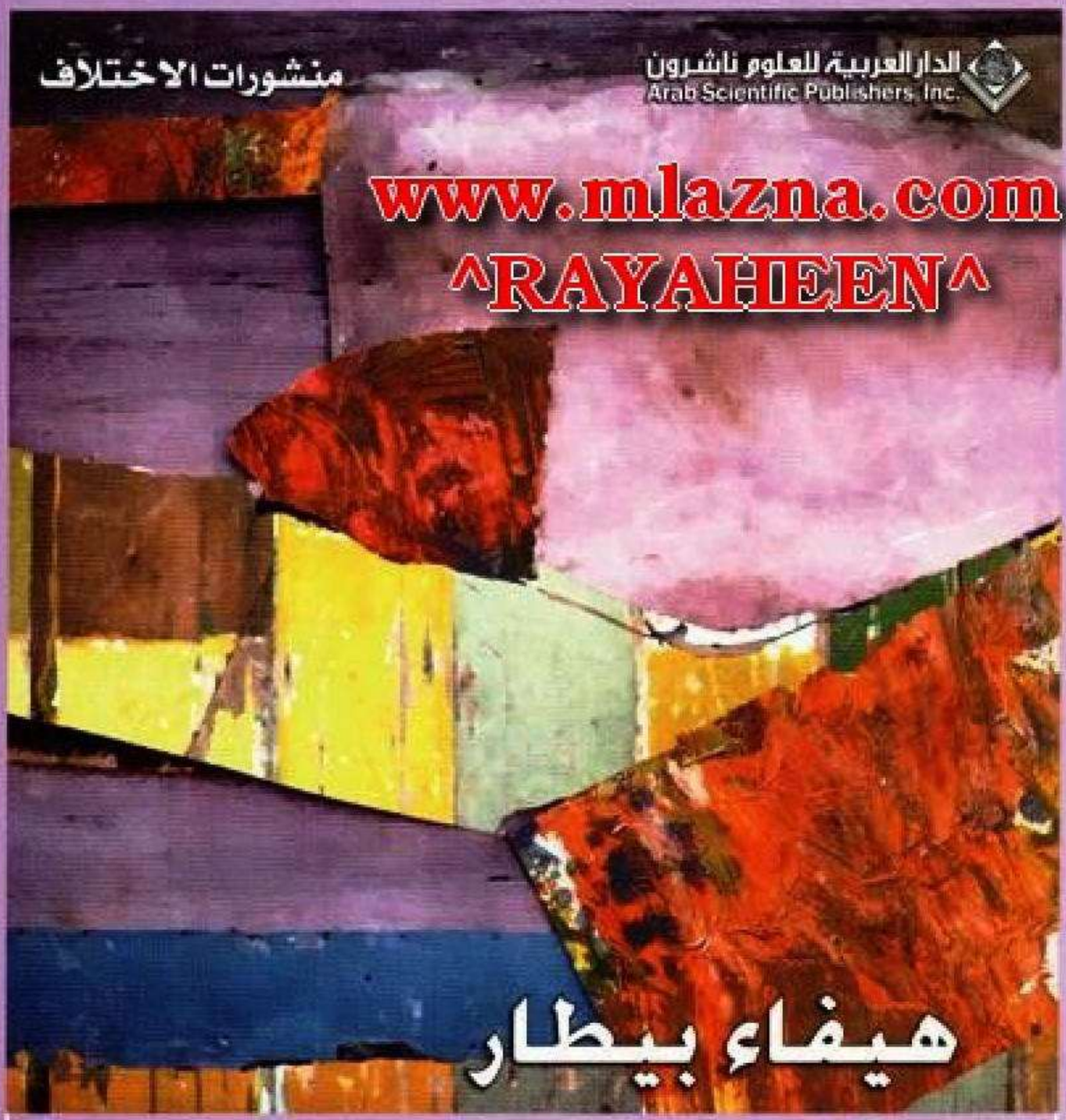

هيفاء بيطار

أفراح صغيرة.. أفراح أخيرة

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

رواية

www.mlazna.com-RAYAHEEN
www.ibtesama.com

التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا للأخت الغالية رياحين
من منتديات ملاذنا
التي قامت بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

تفسير القرآن الكريم

الطبعة الأولى
1429هـ - 2008م

ردمك 978-9953-87-278-0

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

www.ibtesama.com

أحست أن رنين الهاتف يعلو ويعلو، وهي تصغي إليه بلا مبالاة، ولا ترد على إلحاحه بأن ترفع السماعة، كان جسدها النحيل يغور في إسفنج الأريكة الضخمة بوضع يبدو أبدياً، لأنها لم تبد حركة، ولم ترف جفناً منذ ساعات تحسبها دهوراً، ولم ينقطع الرنين، بل أخذ يحاصرها ويضغط عليها حتى اضطرت أن ترفع السماعة، لشعورها أنه سيستمر إن لم تتدخل بإيقافه، قالت ألو مبتة وقصيرة، وكادت أذنها تثقب من صوت صديقتها المرتفع:

- إيه، أين أنت؟ أين أنت؟ لماذا تأخرت؟ لقد حضر المدعوون جميعاً، هيا أسرعي، بعد قليل ستقدم الخروف المحشي و...

بللت جهوداً هبت من كل مفاصلها لمقاطعتها قالت بصوت مرتفع وقطعي:

- آسفة لا أستطيع.

وأتاها صوت الصديقة مشبعاً بالاستنكار: ماذا؟ والله سأزعل منك إن لم تحضري. هيا لا تترددي، أهم شخصيات البلد متجمعة في بيتي...

قالت: لست مولعة بشخصيات البلد، صدقيني مزاجي هذا المساء لا يتناسب مع السهرات والحفلات أبداً.

www.ibtesama.com

- لماذا؟

- لا أعرف، أحس أنني محاصرة بالضيق والكآبة، وأرغب في النوم...

- كفى، كفى، كل ما تشعرين به سببه الوحدة، الوحدة تورث الجنون، لا تضيعي الوقت، أرجوك يا هيام.

لم تتوقع أنها ستلحن مستسلمة بهذه البساطة لرغبة صديقتها قالت:

- حسناً أنا قادمة، وأغلقت السماعة دون أن تترك لصديقتها الوقت اللازم للتعليق.

قامت من مكانها تعرج، لأن رجلها اليمنى قد أصيبت بخدر من وضعية جلوسها التي بدت لها أبدية، فتحت خزانة ثيابها وتنهدت كأنها تطرد بخار الاختناق المحتبس في صدرها، امتدت يدها إلى الفستان الأسود، الأسود هو اللون المثالي الذي يناسب مزاجها هذا المساء، ارتدته على عجل، رشت عطرها المفضل على مدى سنوات الأوبيوم، ابتسمت لنفسها قائلة: فعلاً إنه أفيون، عطر مكر، وتساءلت وهي تسرح شعرها الفاحم الطويل: ما الذي دفعها للإذعان وقبول دعوة صديقتها؟ أما كانت مصممة أنها لن تحضر حفلة العشاء، وأن هذه الحفلات تصيبها دوماً باختناق أكبر من اختناقها الأساسي أو البدئي - كما كان تسميه في سرها - لما بالها لانت ورقت أمام إلحاح صديقتها، وجدت نفسها ترد بنزق على تساؤلها: أوه هكذا، لقد وافقت، لا أعرف لماذا، وفجأة انبثق صوت صديقتها كفقاعة انفجرت بأنها (الوحدة تورث الجنون).

كانت تضع ماكياجها البسيط برشاقة وتعود، حتى أنها تحس أنها

www.ibtesama.com

قادرة أن ترسم خطوطه وهي مغمضة العينين، الكحل الأسود الذي يحدد جفنها العلوي، الظل الأزرق أو الرمادي أو البنفسجي، أحمر الشفاه الأقرب إلى فصيلة القرمزي، هذه ألوانها المفضلة منذ تفتح أنوثتها، شملت صورتها بالمرآة بنظرة رضا، ارتدت معطفها الأسود، أطفأت الأنوار، تاركة مصباح الرواق الأزرق الباهت وحده مضاء، محولاً الأثاث إلى أشباح ساكنة، وفيما هي تقفل الباب الخارجي وتسمع الطقات الثلاث تتعاقب بإيقاعها الأبدي، توقفت كمن نسي شيئاً، واستدارت مولية ظهرها للدرج، رغبت أن ترجع إلى البيت، لكن شعوراً في داخلها لكزها أن هيا أسرعي، لا تتأخري أكثر، وانتفض شعور أقوى في داخلها يرفض اللعاب، وظلت واقفة في مكانها يتنازعها الشعوران، وغضبت من طبعها المتردد، والذي لم تنجح في علاجه طوال سنوات، ونزلت الدرج أخيراً مسرعة وبرد شباط يجعلها متكومة مغرقة رأسها بين كتفيها، دخلت سيارتها بسرعة، وضغطت زر المسجلة وهي تقود، ورغم الموسيقى الفرنسية الساحرة لفرنسيس غويا التي تسمعها عادة وهي تقود سيارتها، إلا أنها أحست بالضيق منها، وبدت لها مفرطة في الرقة لدرجة المبالغة، أخرست المسجلة، كانت المرآة الأمامية للسيارة تعكس صورة وجهها الجميل في شروده الحزين، ثمة غموض ساحر يشع من قسماتها، لكنها أحست أن هذا الوجه قد نسي الابتسام منذ زمن طويل...

وفيما كانت تصعد الدرج الرخامي لبيت صديقتها، وتشم آثار عطور فخمة نسائية ورجالية للشخصيات الهامة. وتسمع أصوات قرقعة الصحون، وضحكات مفتعلة وعالية مختلطة مع صوت موسيقى المسجلة، اشتد ضيقها، ولامت نفسها كيف أذعنت لرغبة

www.ibtesama.com

صديقتها وارتضت الحضور، ضغطت زر الجرس فيما كانت تأمر عضلات وجهها بالاسترخاء وبرسم ابتسامة الحفلات المعروفة، فتحت الخادمة الباب، ناولتها معطفها بآلية، تنشقت روائح الدخان والعطور، وأحست بخدر لطيف، وأتاها صوت زوج صديقتها مُرحباً وكأنه واقف على مسرح يستعرض طريقته في الأداء أمام جمهور المدعوين، ونادى زوجته التي أسرعت بدورها ترحب بها، وتتابط ذراعها لتقودها إلى غرفة الطعام، وتقدمها بلهجة مسرحية أيضاً لضيوفها المهمين، والمشكوك في أنهم أعزاء: قالت بتكلف ملفت للنظر: هيام أعز صديقاتي، صاحبة أكبر مكتبة في البلد، سمعت صوتها ينطلق من حنجرتها: مساء الخير أدهشتها كمية الحزن فيه...

رحب بها الضيوف المتحلقون حول المائدة، جلست في مكانها الذي خصصته لها صديقتها أعجبتها زاوية جلوسها لأنها كانت تواجه المرآة الكبيرة بعرض الحائط، ابتسمت في سرها، سيكون بإمكانها مراقبة الضيوف الاعتباريين اللذين يزيد عددهم على العشرين، في مرآة الحائط، تنبهت لزوج صديقتها يسألها ماذا تشرب؟ قالت: ويسكي مع الكثير من الثلج، ضحك معلقاً: كالعادة أنت مغرمة بالثلج...

تبادلا الابتسام، همّت صديقتها أن تملأ صحنها بأشهى المقبلات، لكنها رجتها برقة: أرجوك، أما عرفتني بعد، أحب أن أخدم نفسي بنفسي، دعني حرّة.

ردّت صديقتها تمازحها: هيام الحرّة، هكذا يجب أن يكون اسمك.

أذهلها تعبير صديقتها (هيام الحرّة)، للحظة تجسدت أمامها

www.ibtesama.com

سنواتها الأربعون، المحور الأساسي في حياتها كان البحث عن الحرية، وعن طريقة تحقيقها، كل هاجسها كان أن تتحرر في العمق من كل ضغط خارجي يغني تشويهها وتغريبها عن ذاتها... أوه ليس الآن وقت المواجهة... هذا ما قالته لنفسها وهي ترفع كأسها لتشرب نخب صديقتها، أغمضت عينيها متأملة سريان نشوة خاصة وبديعة يخلقها الويسكي وحده في أوصالها، تأملت المقبلات السخية والشهية، لكنها لم ترغب أن تتذوق شيئاً، أخذت تعبث بأوراق النعناع وشرائح الجزر، وتقشر حبوب الفستق السوداني وتقرضها على مهل كفأرة، أخذت تتأمل وجوه المدعوين في المرآة، وهي ترشف من كأس الويسكي رشفات تتلذذ بها وتجعلها تسترخي طاردة كآبتها التي كانت متجهمة وقاسية منذ ساعة، ابتسمت ابتسامة فاضحة وصريحة وهي تعي حقيقة طريفة أنه ما من رجل يليق بزوجته، وما من زوجة تليق بزوجها، فإما الرجل كله حيوية والزوجة خاملة بليدة، أو المرأة متألقة جذابة خفيفة الظل، بينما زوجها بليد وغبي...

استقرت نظرتها المتفحصة على وجه امرأة بدينة تأكل بشراهة ملفتة للنظر، تقطع اللسانات بعد أن تعصر فوقها الحامض وتغلفها بالخبز ثم تدسها في فمها، كأنها تدكه دكاً. وبعدها تجرع النبيذ، وقبل أن تبتلع لقمتها، تبدأ أصابعها في تحضير لقمتها الثانية ببراعة وفن وخبرة، تحولت من صحن اللسانات إلى صحن النخاعات، كانت تسحق دماغ الخروف فيتفتت بين يديها، مسحوقاً ذليلاً، لاهياً مصيره، كانت تتأملها في المرآة العريضة، وقدرت أن وزنها أكثر من مئة وعشرين كيلو غراماً واعترفت بسرها أن أي إنسان لو يملك حماستها في الأكل لنجح بأي عمل يقوم به، وها هي مبدعة أكل،

www.ibtesama.com

بل مبدعة بلع، كانت تجاعيد كثيرة محفورة حول عينيها بينما تجاعيد جبهتها الأفقية بدت في عمقها كأثلام، أما رقبتها فيا للتهدل والارتخاء، والجلد كله سميك فاقد الحيوية، وجدت نفسها تمسح بشرتها برقة، ثم تنزل راحتها إلى عنقها تتحسسه، عادت كآبتها تتجهم في داخلها مشكلة سؤالها الأبدي: هل بإمكاني مقاومة مرور الزمن؟! وها هو وجهها البديع كما تعكسه المرآة يقاوم تعاقب الأيام والسنوات، ولكن إلى متى؟ اعترفت بتزاهة لنفسها أنها تبذل أقصى جهودها ليظل وجهها مشرقاً نضراً، إنها تؤمن أن الوجه هو الشخص تحديداً العينان، كان الغموض المشع من سواد عينيها مثيراً للدهشة دوماً، وابتسمت رغم طغيان كآبتها، متذكرة أن كل الرجال الذين أحبوها، والتقوا بها كان قاسمهم المشترك أبداً سواد عينيها.

كان الحديث يدور لحظة دخولها حول عجينة البيتزا، وأكدت إحدى المدعوات وهي سيدة تشبه القطة، أظافرها كالمخالب، وشعرها أصفر فاقع يبدو مضحكاً مقارنة مع بشرتها السمراء الداكنة: إن أهم سبب في نجاح عجينة البيتزا هو عركها جيداً بالزيت، واعترضت سيدة أخرى مؤكدة أن السبب الأهم هو الزمن الذي تترك فيه العجينة منقوعة بالزيت، ودبّ الحماس في امرأة ثالثة وقالت إن الأهم من هذا وذاك هو نوع العجينة، وحمي النقاش وتدخل الرجال، ولم لا؟ فالبيتزا وجبة عالمية، إنها بالنسبة للمأكولات كالدولار بالنسبة للعملات، وعبّر رجل عن رأيه بعد أن تنحنح كأنه سيبدأ خطبة أمام مئات الناس قال برصانة إنه يعرف سرّ نجاح البيتزا، وهو أن يخلط مع العجينة نوع من الجبن المبروش، وقاطعته المرأة البدينة أكلة اللسانات والنخاعات بعد أن ابتلعت لقمتها العرطلة وقالت مؤكدة كلامه: صح، صح، معك حق، هذا ما

www.ibtesama.com

يجعل العجينة تتمطط بالجبن بعد خبزها...

وتحمست امرأة تلبس فستاناً مشكوكاً بالخرز والبرق من جميع الألوان، يكشف عن ساعدين ضخمين كأنهما فخذان، وقالت: إن العجينة الأجنبية أفضل بكثير من العجينة الوطنية، وتدخلت صديقتها وقد أحست أنها طعنت في الصميم لأنها حضرت البيتزا بعجينة وطنية وقالت: لا، ليس صحيحاً، العجينة الأجنبية غالباً قديمة، غير طازجة، أنا شخصياً أشتري العجين من الفرن، 2000 يا سلام على الخبز والعجين الذي يصنعه، وقاطعتها المرأة الخصم قائلة: اسمحي لي أن أذكرك أن هناك خمائر تمزج مع العجينة الأجنبية، لا نعرفها، بل لم نسمع بها ربما...

وسأل رجل يضع نظارات بجدية واهتمام بعد أن تنحنح وأحكم وضع ربطة عنقه لكأنها مصدر توازنه: خمائر مثل ماذا؟

ردّت السيدة: أو، خمائر كثيرة، يمكنني أن أعيرك كتاب البيتزا، وضحكت كاشفة عن أسنان اصطناعية ناصعة، وأكملت، عندي كتاب عن البيتزا تزيد عدد صفحاته عن الألف... فغر الرجل فاه بدهشة وقال: أوه، رائع...

كانت تتفرج على جمهور عجينة البيتزا في المرآة، وانتبهت إلى رجل ذي لحية خفيفة يلبس قميصاً مخططاً باللونين البيج والبني، وقد كشف عن صدره. كان ذا لحية خفيفة يدخن الغليون، وينفثه بطريقة تهكمية في وجوه المدعوين، أثار الرجل فضولها، وانتبهت أنه بدوره يراقب الناس في المرآة.

ذكرتها حماوة النقاش بمباريات كرة القدم، وكيفية التعليق عليها، وفجأة انتفض الرجل ذو اللحية ووقف قائلاً بصوت آمر:

www.ibtesama.com

سمع، هس، وتعلقت به الأنظار كأنهم يتساءلون من هذا الغريب الذي لا يلبس بذلة؟ رفع يده وكأنه يطلب صمتاً مطلقاً من الجماهير، استأذنهم ليشعل غليونه، تصنّع السعال وقال بعد صمت: في الحقيقة إن أهم عامل في نجاح عجينة البيتزا يتعلق باليد التي تعجنها، رفع يده عالياً وفتح أصابعها بقوة مردفاً: اليد البشرية تصنع المعجزات، ابتسم ساخراً، استأذن الحضور لينصرف، وقبل أن يستدير خارجاً، شملها بنظرة جعلت قلبها الغارق في السبات يرتجف، لثوان غاصت عيناه العسليتان العميقتان في غموض سواد عينيها، نظرة لامست ذلك الغامض والساحر في أعماقها، أحست أنها تتكشف له برمضة، كما تتكشف طبيعة غارقة في ظلام الليل، برمضة برق، فتعرى للحظة وتبدو ناصعة الوضوح، قالت لنفسها وقد تسارعت أنفاسها: يا لهذه النظرة؟ لقد لامست شغاف قلبي، ترى من يكون هذا الرجل الغامض ذو اللحية؟ لكنها أحست أنها ابتسمت له، رغم أن فمها لم يرسم أي ابتسامة، الابتسامة الحقيقية تشع من العيون، تبادلا ابتسامة تواطؤ، في نظرتهما كلام، ووعد، وتواطؤ، أجل هذا ما أحسته بل إن حدسها يؤكد لها أن هذا ما أحسه أيضاً، تنبهت لزوج صديقتها يعتذر للحضور عن سلوك صديقه قائلاً: لا أحد يعتب على الشعراء... قالت لنفسها وقد زادها هذا التصريح انجذاباً نحو الرجل الغامض: أوه، إنه شاعر إذاً... ترى من يكون؟!

أحضرت الخادمة الخروف المحشو الملفوف بورق الألمنيوم، تجره على طاولة بيضاء، تهلل وجه المدعوين، أخلت الخادمة التي تلبس قفازات شفافة من النايلون، تنزع ورق الألمنيوم ببراعة وخبرة، وظهر أكبر إفواه للحاضرين، خروف صغير يتصاعد منه

www.ibtesama.com

البخار، وقد ارتاح فوق وسادة كبيرة من الأرز الإنكل بينز المغطى كلياً باللوز والفستق والصنوبر، كانت أطراف الخروف مربوطة بشريط أخضر لماع بعد أن غطيت بخف من ورق الألمنيوم، تنشطت الأحاديث مجدداً حول أنواع الخراف المحشوّة، تنهدت بعمق شاهرة بوصول الهواء حتى أبعد نقطة من أسناخها الرئوية، زفرت بخار اختناقها فيما هي تصب الكأس الثانية من الويسكي، وتسقط فيه مكعبات الثلج، وتشرب جرعة كبيرة، فإذا إحساسها بالاختناق ينعاظم لدرجة أحست أنها تحتاج لإسعاف حقيقي، شربت عدة جرعات متلاحقة من الويسكي، وصورة الشاعر في اللحية ترتسم في ذهنها مشوشة كأنها تراه من خلال ضباب، تمنت لو تمكنت من الهرب مثله، من الهرب معه، ضحكت وهي تسترجع كلماته عن اليد البشرية، يا إلهي كم سخر من المدعوين، لعله تورّط مثلها في قبول دعوة العشاء هذه، استقر نظرها مجدداً على المرأة البدينة التي رفعت كمي قميصها، وأسندت كوعها الأيسر إلى الطاولة، فيما يمناها منهمكة في التهام الرز وقطع لحم الخروف بشهية عارمة، انتابها غثيان من رائحة السمن البلدي واللحم، تظاهرت أنها تأكل فيما يسراها تفتت كرات الخبز الدائرية وتحيلها تراباً، ولم تنتبه أن منفضة السجائر قربها امتلأت بأوراق النعناع الممزقة، ونتف الخبز، أمرت أذنيها أن تتوقفا عن الإصغاء، تشوشت الأصوات وغامت، كانت تتمنع بقدرة هائلة على إيقاف وصول الكلام إلى دماغها، تُحوّل الأحاديث إلى مجرد برطمة ثم إلى ضجيج مبهم. وبعد أن قاربت على الانتهاء من كأسها الثانية، ألغت الحصار عن أذنيها لتسمع ما يقوله المدعوون، كان الحديث هذه المرة يدور حول ثري، وعن سخائه العجيب في حفل زفاف ابنته، وكيف استأجر

www.ibtesama.com

طائرة خاصة لإحضار الفاكهة الأفريقية.

انتفضت من مكانها، ودّعت المدعوين بصوت باهت، سارعت بالخروج هاربة من إلحاح صديقتها، وأن السهرة لا تزال في بدايتها، وأن مطرباً صاعداً سيأتي بعد قليل ليطربهم و... كانت قد وصلت إلى الباب، لبست معطفها رافضة مساعدة الخادمة، خرجت كالهاربة، ونار تشتعل في صدرها، لم تخففها الريح الباردة في الخارج.

• • •

كانت الساعة تتجاوز منتصف الليل بقليل حين دخلت بيتها، وكانت بحالة من التيه والنشاط العصبي، لدرجة تيأت أنها لن تنام قبل الفجر، فلتسهر، لتحضر طلوع الفجر، وماذا يعني النوم؟ إنه أشبه بالموت، وماذا يعني أن تستيقظ ظهراً؟ كانت تتأمل ساخرة وهي تحس إحساساً لا يقاوم أن بلاطة من رخام جاثمة فوق صدرها، أشعلت النار في المدفأة لأنها تحب منظر ألسنة اللهب وليس لإحساسها بالبرد، نزعت ماكياجها الخفيف بقطنة مبللة بالكريم، نظرت إلى وجهها النظيف طويلاً بالمرآة، أدهشها عمق سواد عينيها، بدا لها مهيباً، تساءلت: هل هناك إنسان تلهله عيناه؟! كانت صفحة وجهها نقية، وأمكنها في وضع السكون المطلق الذي يتخذه وجهها أن تحس بنضارتها وشبابها، لم تكن أي تجعيدة ظاهرة، عينان واسعتان عميقتان سوداوان، أهداب كثيفة، حاجبان مرسومان بدقة، والمساحة بين العين والحاجب تسميها مساحة السحر، تذكرت وجه المرأة البدينة المتجعد، وقد تشققت التجاعيد حول عينيها كأشعة الشمس، وانقبضت روحها وهي

www.ibtesama.com

تتساءل: هل يمكن أن يكون مصير وجهي كمصير وجه تلك المرأة؟ أغمضت عينيها هاربة من الحقيقة المؤكدة، أحست بدوار سريع وخفيف وهي مغمضة العينين، لعله من تأثير الويسكي، أو بسبب الجوع، لأنها لم تأكل شيئاً، لكنها لمحت نفسها تتربع عند اللروة، ذروة جبل عالية، أو ذروة حياتها، سفح صاعد، ثم اللروة، وبعدها سفح هابط، هكذا هي الحياة، والآن أنت تتربعين على اللروة فكم من الزمن ستقاومين الهبوط؟ فتحت عينيها وخاطبت صورتها في المرآة: هيام حددي مخاوفك؟ هل أنت خائفة من أفول الشباب؟ أم لأنك وحيدة؟ كان لوقع كلمة وحيدة في نفسها أثر قوي فاجأها، أثارت هذه الكلمة دوائر ودوائر من الذكريات المتوالدة، من المركز، كما يحدث سقوط حجر على سطح بركة ماء، أجل إنها وحيدة، امرأة وحيدة حتى الشمالة، ابتدعت هذا التعبير رغم إحساسها أنه قد يكون خطأ لغوياً، سرّحت شعرها الأسود الطويل، كان شعورها بالاختناق يشتد، تحت عنقها وصدرها براحة يدها، لكأنها تتحسس عن بلاطة رخام حقيقية، كان دوار من المشاعر يتكون ويتكثف داخلها، طنّت أذناها بقوة بأحاديث المدعوين عن عجينة البيتزا، والخراف المحشوة، تساقطت لجأة دفعة من الدموع من عينيها، تركتها ترطب بشرة وجهها دون أن تمسحها، قادتها قدماها إلى غرفة الطعام، فتحت خزانة المشروب الزجاجية المؤطرة بخشب عريض من الزان المحفور، كانت كؤوس الكريستال، وأقداح الشاي الصينية المنقوشة، مصفوفة بأناقة بوضعها الأبدي الذي تعرفه منذ كانت طفلة، ابتسمت للكؤوس قائلة بدعابة مُرة: أنت تعيشين أكثر من الإنسان، أكثر بكثير... أوه الإنسان يتلف بسرعة، يهترئ، يتجعّد، إنه سريع العطب... في الرف السفلي كانت قوارير الشراب

www.ibtesama.com

مرتاحة في صداقتها الأبدية فيما بينها، النبيذ صديق الويسكي، وصديق الجن، والفودكا، تخيلت أن صداقة الكحول هي الصداقة المنزهة من الغيرة والحسد والخلاف، أمسكت زجاجة مختومة وقد كتب عليها ويسكي أولد بار معتق منذ 21 سنة، تساقطت الدفعة الثانية من دموعها، أصدر صدرها آهاً عميقة، ذكرتها دموعها المفاجئة بفوران القهوة من دورقها الصغير، ضحكت بصوت مسموع وهي تتذكر كم وكم كانت القهوة تنفلق من دورقها، لأنها سارحة دوماً في اللاشيء، في كل شيء، مسحت يدها بحنان على قارورة الويسكي، كأنها تداعب وجه حبيب، قالت تخاطبها بتراخ ومودة: أولد بار معتق منذ 21 سنة لامرأة وحيدة، وحيدة حتى نخاع عظامها، معتق لأجلي...

حدثت نفسها فلاشرب كأساً أو اثنتين، لأشرب ما يحلو لي حتى أغيب، عن كل شيء، وحين فتحت الزجاجة وصبّت لنفسها الويسكي بعد أن تنشقت بعمق رائحته النفاذة، عادت صورة الشاعر تغزو خيالها، اعترفت أنه رجل ظريف ومميز بالتأكيد، وضعت في الصحن قطعة جبن أبيض وقرص بندورة وفتحت علبة سمك معلب، كانت معدتها تتقلص مطالبة بالطعام، جلست مقابل المدفأة تحتسي الويسكي وتأكل دون أن تمضغ الطعام جيداً، بل تزدرده وكأنها تريد قذفه مباشرة إلى معدتها، تأملت زجاجة الويسكي بحنان وقالت وقد سرى خدره سريعاً في أوصالها: هذا هو الويسكي، إنه خدر، خدر للبلد، ليس كما يصورونه في الدعايات، كأن يصوروا حفلة يرفع فيها المدعوون كؤوس الويسكي أو يصورون مجموعة من الشباب في رحلة بحرية، يتوجونها بشرب الويسكي، أو رجلاً وامرأة يتعانقان، كلب، كلب، هذا هو الويسكي، تحليق خارج الزمان

www.ibtesama.com

والمكان، مُسكّن للأوجاع، ملهب للوجوه والذكريات... تثاءبت بعمق وهي تحس براحة، وزال إحساسها بالبلاطة الجاثمة على صدرها، كررت تثاؤبها بعمق أكبر قائلة: أوه كل شيء بعيد، الويسكي يجعل الحياة بعيدة، أوه اهبري أيتها الحياة، اهبري وانسيني، وتذكرت أن أجمل الأشعار تنظم حين يكون الشاعر نصف صاح، نصف نائم، تذكرت أنها تصاب دوماً بصداع صباحي معتد، صباح اليوم التالي من شرب الويسكي، تساءلت كم الساعة الآن، وحين همّت بالنظر إلى ساعتها، تحدّثت نفسها، قالت لأحاول تقدير الزمن، ولم تنجح في تقدير الوقت، كم مضى على عودتها من السهرة، ساعة، ساعتان... ضحكت بصوت عال وهي تقول: ماذا لو تخلى البشر عن ساعاتهم، أوه عظيم، وتخيلت جرفاً عميقاً والناس يرمون فيه ساعاتهم، وتمنت في تلك اللحظة أن كل الاختراعات أسامت إلى البشرية، وتخيلت رومانسية لقاء شاب بفتاة، أليس أجمل أن يقول لها سنلتقي عند شروق الشمس، أو لحظة مغيبها، هكذا يكون الشروق أو الغروب طرفاً في اللقاء، وأحست بنار تحرق أحشاءها، وتتصاعد مباشرة إلى يديها، كان الثلج قد ذاب في وعاء الأبيض متحولاً إلى ماءٍ مثلج، أغرقت فيه أصابع يمناها، وأحست بنمل البرودة يسري في أصابعها، ليغمر جسدها كله بلحظة، أصدر صدرها آهاً عميقة فيما عاودت دموع غزيرة تتدفق بسلاسة من عينيها، عادت تقول: ويسكي أولد بار معتق لأجلي منذ 21 سنة، هيا اهبري أيتها الحياة وانسيني، اتركيني قرب فلة أو ياسمينة، وأخذ صوتها يتهدج وهي تغني: يا فل، يا فل... يا روح الروح...

قامت بخفة عن كرسيها تبحث عن شريط أم كلثوم «الورد

www.ibtesama.com

الجميل»، وما إن همت بالمشي حتى دارت بها الدنيا بقوة وكادت تسقط، لكنها تمالكت نفسها بأن أسندت كلتا يديها إلى الطاولة... وجدت أغنيتها المطلوبة بعد بحث عشوائي في كومة من أشرطة التسجيل، وأتاها صوت أم كلثوم عميقاً، ممتلئاً، ساخراً، الورد جميل، جميل الورد، شوف الزهور وتعلم...

الله، الله، أخذت تتمايل منتشية، وأكدت لنفسها أن أم كلثوم ثروة أو معجزة، لا يمكن أن تتكرر، وأن صوتها يجعل الإنسان ثملاً أكثر من الويسكي، كانت دموعها تتابع بسلاسة دون جهد يذكر، وكان تدفقها يزداد حين تغني أم كلثوم مقطع يا روح الروح... تساءلت: ترى ما هي روح الروح؟ لقد راحت أم كلثوم ولم يبق إلا الصوت، أوه كل البشر سيغيبون تاركين مجرد صدى وجودهم، وها هو الويسكي يخفف عبء مرور الزمن، صارت أقرب لعالم الغياب، أو النوم، خفّ تدفق دموعها وتساءلت وسط سلسلة تثاؤباتها: ترى هل تستحق الحياة كل هذه الآلام والأحلام والبطولات؟!

كانت الساعة تشير إلى الخامسة إلا ربعاً حين نهضت شبه غائبة إلى سريرها، إلى سرير وحدتها كما تسميه، لكنها لم تنسَ ربط المنبه ليوقظها تمام التاسعة والنصف صباحاً، غرقت في النوم قبل أن يتوقف غناء أم كلثوم بثوان، تاركة المكان في فوضاء الثملة، كان ضوء المصباح الأصفر الشاحب يلقي على المكان مسحة كآبة، لكأنه أصيب بالعدوى من صاحبته التي عُتّق الويسكي لأجلها.

• • •

حين فتحت عينيها على صوت المنبه، تثاءبت طويلاً، كانت

www.ibtesama.com

تحس برموشها يابسة وملتصقة من ملوحة دموعها التي جفّت، رأت بلحظة سهرة البارحة منذ بدايتها وحتى نهايتها عند الفجر، ضحكت ساخرة، وهي تتساءل: لماذا ذرفت كل هذه الدموع؟! فتشت عن شعور الصداع الذي تنتظره صباح كل ليلة تشرب فيها الويسكي لكن ذهنها كان صافياً، فارغاً، لا ذكرى، لا وجه، لا شيء ينغّصه، قامت من سريرها، ابتسمت لصوت المطر المنكب بغزارة، وقفت أمام المرآة، صدمتها صورتها، أجفانها المتضخة من البكاء، بشرتها المتعبة الشاحبة، قربت وجهها من المرآة تبحث عن تجاعيد جديدة ظاهرة، قلصت عضلات جبهتها وكزّت على أسنانها راسمة ابتسامة تشنجية عريضة، ظهرت تجاعيد خفيفة حول عينيها وفي جبهتها، أطرقت وهي تحس بغم وتتساءل كم من الزمن ستحتاجه هذه التجاعيد الخفيفة لتصبح واضحة جلية للعيان، أغضبها انتفاخ أجفانها، ستُحضّر كالعادة كمادات الماء الفاترة، ضحكت بسخرية وهي تتذكر كم كانت تستعمل هذه الكمادات وكم ذرفت دموعاً، وتناهى لمسامعها صوت رقيق، لعله صوتها يكرر سؤاله: ترى هل تستحق الحياة كل هذه الآلام والأحلام والطموحات؟!

حين خرجت إلى الصالون، صفعتها صورة المائدة، زجاجة الويسكي بسدادتها غير محكمة الإغلاق، بقايا الجبن والخبز، أطرقت وشعور بالخزي يثلبها: لماذا شربت كثيراً؟ أما كان أفضل لي لو أنام؟ لماذا كنت نزقة لهذه الدرجة؟ وتذكرت كيف كانت تشعر باختناق حقيقي وكادت تؤمن أن ثمة بلاطة حقيقية من رخام رازحة على صدرها، أوه لماذا؟ لماذا يا هيام؟ (وانتفض صوت غاضب من أعماقها يصرخ: إنه الضجر، الضجر، من الصباح حتى المساء كنت أهيم في المنزل مع أطياف وجوه حية أو ميتة،

www.ibtesama.com

وذكريات تتنطط في ذاكرتي كالشياطين، تؤرقني، ذكريات مختلطة مع بعضها وكأنها تتقافز، أوه طوال يوم الجمعة لم يرن هاتفها، لم يفتكرها أحد، صمت مطبق، التلفاز، الملهاع، الكتب، الجرائد، المجلات، الجدران، كلها لا تقاوم ضجرها، الضجر يفتت الأعصاب بدمرها، في حياتها لم تكن سلبية، دوماً كانت تبحث عن حلول، لكن ما حل الضجر؟ هل تغرق نفسها في زيارات نسائية، تكاد تتخبأ أحاديث النساء عن فلان وفلانة، عن الطعام والأزياء، لا سينما، لا مسرح، لا مقاهي يمكن أن ترتادها النساء وحدهن، صحيح أنها تعودت صداقة الأشياء، تحس أنها تفرد ذاتها في البيت، على المقاعد، في السرير العريض اللي لا يمكنها أن تغفو إلا فوقه، أوه المشكلة باختصار يوم الجمعة، بتعبير أدق إحباط يوم الجمعة بقية الأيام تتسلى في عملها، تخاطب الناس، تجتمع بهم، وما أن يقترب ظهر يوم الخميس حتى تبدأ نفسها بالانقباض، كأنها تتذكر أن إحباط يوم الجمعة يقترب. كانت تضع كمادات الماء الفاترة على أجفانها، وتستسلم منتشية للدفء اللي تشيعه في جسدها، جففت وجهها وقامت تحضر قهوة الصباح، من أمتع اللحظات في نهارها، لحظة ارتشافها قهوة الصباح، ومهما كانت حزينة ومتعكرة فإنها تحس أنها تصفو قليلاً أو كثيراً وهي ترشف قهوتها، كانت صور سهرة البارحة تمر أمامها حيادية دون أن تحرك فيها أي شعور بالسخط والانزعاج، انتفضت وهي ترى فوران القهوة، ضحكت هازئة من نفسها قائلة وهي تصب القهوة في الفنجان: هذه هي علامتي الفارقة الأساسية، رشفت قهوتها على عجل، كان عليها أن تسرع إلى مكتبتها، إلى ملاذها الوحيد، لقد تأخرت عن لقاء أصدقائها الحقيقيين - الكتب - إنها تؤمن أن

www.ibtesama.com

الكتاب أفضل صديق، ولا شيء في العالم قادر أن يدخل السلام إلى روحها مثل رائحة الكتب، ورغم سنوات القحط وقلة الدخل في مكتبها، إلا أنها رفضت رغم إلحاح المقربين والأصحاب أن تحول المكتبة إلى محل تجاري لبيع الأدوات الكهربائية أو الألبسة أو الأحذية، صحيح أنها ضعفت لفترة قصيرة أمام حجج صهرها، إذ استطاع أن ينسل بحججه إلى أعماقها، كما تنسل الجراثيم إلى الجسم، وأقنعها أن تجارة الأدوات الكهربائية مربحة للغاية، وأن ربحها منها يمكنها بعد ثلاث أو أربع سنوات من فتح مكتبة جديدة، وهكذا تبقى بحالة تواصل مع حلمها بأن تعيش وسط الكتب، لم تقتنع تماماً، إنما أذعنت لفكرته لأن ظل المكتبة ظلّ يلوح في كلامه، وسافرت معه إلى دمشق لعقد صفقات شراء برادات وغسالات وأفران غاز، وابتدأت عملية بيع الكتب، ودُفن بعضها في صناديق كبيرة، كانت تحس أن روحها تنسحب من صدرها، وهي ترى الكتب تتهاوى رفاً بعد رف، وبعد أيام وصلت المدرعات أو الدبابات كما أسمتها، وأحست أن هذه الكتل المعدنية الضخمة تخنقها، بل تهددها، ولم تتمكن من الاسترخاء أبداً وسطها، إنها تجفل من منظرها كلما تلفتت ورامها ورائها، وأقنعوها أن مرحلة افتقاد الكتب ستمر بسلام ما أن يبدأ المال بالتدفق بين يديها، لكن أزمتها النفسية أخذت تشتد يوماً بعد يوم، حتى أحست أنها تغربت كلياً عن ذاتها، ولعنت الساعة التي اقتنعت فيها بحجج صهرها، واختل توازن حياتها، فصارت تفيق بعد منتصف الليل لتسهر حتى الفجر، صافنة في اللاشيء، ثم تنام فجراً ولا تود الاستيقاظ، إلا بعد أن تتصل بها أختها أو صهرها عدة تلفونات، وفي كل مرة كانت تفتح محل الأجهزة الكهربائية كانت صور رفوف الكتب

www.ibtesama.com

تصفعها، وتجعل قلبها يغور خجلاً بين أضلاعها، لامت نفسها على خيانتها، واعترفت بهزيمتها وهي ترى نفسها تنهزم أمام المال ككل البشر، صحيح أن ربح المكتبة قليل، لكنها راضية، ليست مسؤولة عن أحد، ولا أحد يطالبها بشيء، إنها تملك بيتاً وسيارة صغيرة، ودخل المكتبة يكفيها لتعيش حياة كريمة، بل مرضية أيضاً، فلماذا أغواها المال؟ ولماذا نجحوا في تصوير الحياة لها وكأنها غول متربص بها؟ وحكوا طويلاً عن الضمانات التي يجب أن تؤمنها لشيخوختها، وأن الطبابة مكلفة، واستشهدوا لها بمئات القصص عن غدر الزمان، لكنها ذات ليلة وقد بلغ اختناقها ذروته، أحست أنها لن ترضى أبداً أن يبتدئ نهارها برؤية المدرعات الباردة، وبشم رائحتها المعدنية، ورائحة دهانها الخاص، ستطرد تلك الكتل الميتة، لتعيد الحياة لكتب أحبتها، وكتاب هم أصدقاؤها الفعليون، ولم تنم تلك الليلة، ما كاد الفجر يبزغ حتى هجمت إلى بيت أختها، وأعلنت قرارها أمام صهرها وأختها بتصميم لا رجوع فيه، ستطرد تلك الآلات الكهربائية من دكانها، وستعيد للمكتبة حياتها، ويبدو أن تصميمها كان من القوة والعناد، لدرجة أن صهرها أذعن لها وهو يقول يائساً من إقناعها: كما تريدين، وأعقب ساخراً، دعي الكتب تنفعك في المستقبل.

ردّت بحنق: بل ستنفعني أكثر من البشر.

لامت نفسها على هذه الجملة التي انطلقت منها عفوياً، وخلال أيام كانت رفوف الكتب تدهن وتعاد إلى مكانها، وأخرجت الكتب من صناديقها ورتبتها بنفسها، وسافرت إلى بيروت واشترت بسخاء كتباً كثيرة، وجددت اللافتة وجعلتها مضاءة، وأخيراً نظرت بعين الرضا إلى مكتبتها وهي تحس أنها تنظر إلى حياتها، إلى جوها

www.ibtesama.com

الخاص حيث بإمكانها أن تعيش أحلامها، وتفرد ذاتها بحرية، كانت تمازح نفسها مراراً، وتقول مخاطبة الكتب: أنت عائلتي، أية عائلة أروع منك؟!

أمام نظرات الخيبة في عيون أصدقائها وأقاربها، ابتسمت كأنها تستسمحهم قائلة: اعذروني، الكتب تعيش في دمي اللذين شهدوا طفولتها عرفوا أنها لا تبالغ أبداً، كانت ترجع من المدرسة طفلة صغيرة، تدخل المكتبة رأساً، ترمي حقيبتها جانباً، وتجلس في حضن جدها الذي كان يسمح لها بالتفرج على الصور في المجلات، كانت تتناول غداءها بسرعة في البيت وترجع إلى المكتبة تكتب وظائفها تحت إشراف جدها، ويبدو أنها ورثت ولعها بالكتب من جدها، كانت تسليتها الأحب إلى نفسها أن تصغي لجدها يقرأ لها في كتاب، وبعد أن كبرت صارت تقرأ بنفسها، كانت علاقتها بجدها من القوة لدرجة كانت تشعر كأنها اقتطعت من روحه، وهو يميزها عن كل أحفاده وأولاده، كان يقول لها: هيام، أنت قطع نادر، أنت من صنف البشر الذين لا يهزمهم المال.

وبعد وفاته اكتشفت أن جدها يملك نفحة أدبية مميزة، وفي درجه الخاص، اكتشفت كراسين كبيرين، كتب فيهما مذكراته، وتأملاته في الكون وآراءه في الكتب والكتاب، ووعدته وهي غارقة في دموع افتقادها له أن تحافظ على المكتبة حتى آخر يوم في عمرها، وفعلاً لمع اسمها في تجارة الكتب، وكان الباحث عن كتاب نادر يقصدها، فإن اعتذرت عنه، فإنه لا يبحث عنه أبداً في مكتبات أخرى.

• • •

www.ibtesama.com

ما إن دخلت مكتبتها ولفحتها رائحة الكتب، حتى ابتسمت، مازحت نفسها قائلة: لعله تكونُ عندي منعكس مع السنين، ما إن أشم رائحة الكتب حتى أبتسم، شملت الكتب بنظرة حنان كأنها تعترف أنها اشتاقت لها بعد إحباط يوم الجمعة الاعتيادي. كانت المجموعة الكاملة لجبران قد وصلتها منذ أيام وقد جلدت بأناقة بالجلد البني، وحفر وجه جبران بخط أسود عريض عليها. اتجهت كعادتها كل صباح إلى زاوية قصية في المكتبة، كانت قد زودتها بسخان كهربائي صغير لتحضير القهوة، ما ألذ قهوتها وسط الكتب، لقد جعلتها صداقة الكتب تؤمن بحكمة رائعة: أن صداقة الإنسان لنفسه وقبوله لها هي أساس نجاحه في الحياة، بل أساس وجوده، وأن قلة قليلة تؤمن بهذه الحقيقة وتطبقها، ومن خلال ملاحظاتها العميقة، لم تجد أحداً راضياً عن نفسه، في صداقة معها، إما أن يكون ضحية لعقد نقص، أو مصاباً بجنون العظمة، أو يتوه عن ذاته الحقيقية بالاختباء وراء الأوهام.

هذه المرة انتبهت ألا تنطلق القهوة من الدورق الصغير، عادت تجلس وراء مكتبها، وتراقب بافتتان مطر شباط المنهمر بغزارة محولاً الشارع إلى سائلة، تنهدت بارتياح وهي تقرب فنجان القهوة من شفتيها، ونظرتها معلقة على شلال المطر، قالت: هذه هي الحياة، كانت تحس بالحياة في مكتبتها، وتذكرت جملة قرأتها: يُشحن المكان الذي ولدنا فيه بقيم الحلم التي تبقى بعد زوال البيت، يتها الحقيقي المكتبة، امتدت يدها تمسح الغبار عن صورة جدها، صورته بالأبيض والأسود، كم تحبه، ابتسمت له وغمزته قائلة: أنت صديقي المفضل، بل الوحيد.

www.ibtesama.com

قطع سلسلة أفكارها رنين الهاتف، كانت أختها التي تصغرها بخمس سنوات تدعوها للغداء، لكنها اعتذرت قائلة: سأتغدى في المطعم مع أصدقائي، تساءلت لماذا كذبت على أختها، فلتقل لها إنها غير راغبة بالمجيء ظهراً.

قالت أختها: إذاً، تعالي اسهري عندنا.

- حسناً، سآتي في المساء، آه على فكرة، هل ما زلت تشكين من الألم ذاته.

قالت أختها: لا، لقد راجعت الطبيب وقد أكد لي أن كل الحوامل يشكون من وجع الظهر في أشهرهن الثلاثة الأخيرة.

- وهل وصف لك دواء؟

- لا، أبداً...

- هل شكوت من وجع في ظهرك حين كنت حاملاً ياسمين؟

- لا، أعتقد، أقل بكثير، ربما لأن وزني ازداد كثيراً هذه المرة.

- فعلاً، كيف سمحت لنفسك أن يزداد وزنك لهذه الدرجة؟

- أوه لا أعرف، إن شهيتي للطعام مفتوحة لدرجة مخجلة حقاً.

- ألا يمكنك أن تقاومي إغواء الطعام؟

- وهل أنا هيام؟!

- وما علاقتي أنا؟

- أنت إرادتك مدهشة في مقاومة إغواء الطعام.

- عفواً سهام، لقد دخل زبون.

- حسناً، إلى المساء إذاً...

- أوكي، إلى المساء.

كان شاباً قدرت أن عمره لا يتجاوز العشرين يطلب ديوان نزار

www.ibtesama.com

قباني الجديد (أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء)، قدمت له الديوان وسألته:

- هل تحب أشعار نزار؟

- ردّ متصنعاً سحنة المفكر: ليست كل أشعاره تعجبني.

سألته بود: لماذا؟

- قال: أحياناً أحسه يعتبر المرأة سلعة.

ضحكت، كان واضحاً أنه يكرر بشكل ببغائي قولاً سمعه، أو رأياً قرأه، لكن لا بأس، هكذا الشباب غرور وقلة خبرة، وتذكرت قولاً أعجبها كثيراً: لا تتحسر على شباب قضيته مشبعاً بالغباء. تخيلت أن الشاب سيهدي الديوان إلى حبيبته التي لن يتزوجها، ستمر الأيام وسيبقى كتاب نزار ذكرى، ما أجمل أن يكون الشعر واسطة الذكرى، عادت ترشف قهوتها وعيناها تتابعان المطر الذي لم تخف حدته. كانت الشمس شاحبة، لكأن الرطوبة أصابتها بالتهاب حاد جعلها واهنة غير قادرة على بث أشعتها، أمسكت قلمها وقربت أوراقها التي تنتظر دوماً خربشاتها وجدت نفسها تكتب:

رحم متخشب.

رحم متخشب لم تنبت فيه بذرة.

لأن البذور التي زرعت، لم تكن بذور حب.

امرأة مُعقّمة..

امرأة..

توقفت عن الكتابة، أصابها انقباض، تساءلت كيف ابتدعت هذا التعبير الآن (رحم متخشب) هل حمل أختها له علاقة بما كتبته، أم أن ما كتبته كان يتكون في دورق إحباط يوم الجمعة، مهما يكن فهو

www.ibtesama.com

رحمها بالتأكيد، أتحاول أن تكتب قصيدة.. أوه أما انتهيت من هذا الموضوع يا هيام؟! سألت نفسها وحين همّت بشطب ما كتبه، عدلت عن فكرتها بفورة مفاجئة هبّت فيها، لا، لن تشطبه، بل ستتركه، رضيت عن ابتكارها لهذا التعبير، أحبت ذلك الربط بين العقم والحب، وتساءلت: لكن ألم تكن البذرة بذرة حب؟ أحست أن وجهها يشحب فردّت بسخرية كعادتها في امتصاص توترها كانت بذرة حب ثم لم تعد تمت للحب بصلة.

عادت تكتب، جنون هو الإنجاب فقط من أجل الاستمرارية على الأرض. وأخذت ترسم خربشات ودوائر حول كلماتها، ووجدت قلمها يخط كلمات كأنه يبتدعها هو وليس فكرها: كل شيء يفلت منا بالنهاية، ولكن ألا يجب أن نكون مجانين بعض الشيء لنفهم ما لا يفهمه حكماء هذا العالم!

المطر ينسكب بغزارة دون هدف، والناس يتراكضون مبللين رغم مظلاتهم، ذكرها المطر الملح بصورتها البعيدة، تحسها قديمة، كأن مئة عام تفصلها عنها. يوم أخبرها طبيب النسائية الذي انتظرت موعدها معه أسبوعين أنها لن تحمل، كانت يومها في الثامنة والعشرين متزوجة منذ عامين من شاب أحبته بكل طاقتها على الحب. تعرفت به في عاصمة الحب والحرية - باريس - كانت تحضّر للدكتوراه في النقد الأدبي في السوربون، وهو كان يحضّر أطروحة الدكتوراه في هندسة الجسور، وقتها كان يعيش مع شابة فرنسية، ومنذ اللقاء الأول بينهما، ورغم أن الفرنسية كانت تداعبه وترشف النبيذ من كأسه في بيت أحد أصدقائهما المشتركين، فإن شرارة ولدت في الحال من لقاء عيونهما، أمكنها أن تلمس افتتانها

www.ibtesama.com

به، تحديداً بسواد عينيها، وحين أخرجت من حقيبتها شريط كاسيت ورفعته عالياً قائلة لأصدقائها العرب: مفاجأة حلوة. تعلقت بها العيون قالت: أغاني جديدة لفيروز من تلحين ابنها زياد وهلّل الأصدقاء، وشربوا نخب فيروز، وقامت بنفسها تضع شريط الكاسيت في المسجلة لينطلق صوت فيروز آسراً (زعلي طول أنا وياك وسنين بقيت... جرّب فيهم أنا إتساك، مقدرت نسيت) انسل من قرب صاحبته الفرنسية منشداً لجاذبيتها المميزة، قدّم لها نفسه بلطف وسألها إن كان باستطاعته استعارة الشريط لتسجيله، ابتسمت في سرّها، وهي تعي محاولته المفضوحة للتقرّب منها، قالت له متخابثة: لكنك لم تسمع الشريط كله، وقد لا تعجبك بقية الأغاني.

ردّ بذكاء: وهل هناك إنسان لا تعجبه أغاني فيروز؟

ابتسمت قائلة: معك حق.

أخذ يسألها ماذا تدرس وأين تسكن، أخبرته أنها تسكن في المدينة الجامعية، في البيت الألماني، ويبدو أن صديقته الفرنسية أحست بصعقة الحب التي أصابته، لنادته، لكنه نظر إليها بقسوة، وحين لفتت نظره لتحرجه قائلة: خطيبتك تناديك. ردّ بقسوة: أنا حر أن أرد أم لا. فضلت أن تستأذن وتقوم من جانبه، وأمكنها بعد لحظات أن تلمح نظرة عتاب في عينيه.

بعد يومين كان في انتظارها بالحديقة الجامعية متلرعاً بالشريط، كان يتوسل إليها بنظراته أن تدعوه لتناول القهوة في غرفتها، فاجأها حضوره دون إنذار أو اتصال، وبلا موعد متفق عليه، قالت له وهي تنظر في ساعتها:

- كم مضى من الوقت وأنت تنتظر؟

www.ibtesama.com

قال: ثلاث ساعات.

- قالت: يا إلهي ثلاث ساعات، لماذا لم تتصل...

قاطعها: خفت أن ترفضي لقائي.

- قالت: إذاً تضعني أمام الأمر الواقع؟

قال: الحقيقة المؤكدة أنك لم تغيبي عن ذهني لحظة واحدة.

قالت والفرح يتقافز في أعماقها تكبته وتتصنع الاستنكار: يا للشباب المتسرع.

قال مستكراً: متسرع.

قالت بسخرية: والفرنسية التي كانت منذ يومين بين أحضانك.

تأفف قائلاً: أوه الفرنسية، إنها لا تعني لي أكثر من رفيقة، شكل من أشكال الحياة الباريسية.

نظرت في عينيه بدهشة: ماذا تعني؟

- أوه أرجوك، أنا لست مخادعاً، إنها بملء اختيارها تعيش معي، وأنا لم أعدها بشيء ولم أقل لها أنني أحبها.

- إذاً ما هذه العلاقة؟!

أطرق، ثم رفع إليها عينين عاشقتين، سألها: هل أنصرف أم تشفقين عليّ وتدعيني لشرب فنجان قهوة.

ترددت لكنها قالت: مكافأة لانتظارك لي ثلاث ساعات، سأدعوك لشرب القهوة.

تهلل وجهه فرحاً وقال: ومكافأة لك على مكافأتك لي، سأدعوك لحضور فيلم رائع.

سارا متجاورين، سألته: ما اسم الفيلم.

قال: أندوشين (الهند الصينية).

www.ibtesama.com

سألته: بطولة من؟!

قال: كانزين دونوف.

قالت: أوه لا أحبها، إنها جامدة، شاحبة، لا تجيد التعبير، اتعرف، أستغرب أن تنال كل هذه الشهرة.

دخلا غرفتها، تحسس بنظرة حنان أشياءها وكتبها، تضرّج وجهها بالدم وهي ترى نظرته معلّقة على حمالة نهديها المنشورة فوق الشرفاج، سارعت تخفيها وهي تقول: آسفة.

سألها ضاحكاً: آسفة على ماذا؟

قالت: أوه لا شيء...

قال ضاحكاً: هذا هو الجواب الصحيح.

استأذنته لتحضّر القهوة من المطبخ المشترك في الطابق، وقد أعطته حرية اكتشافها من خلال أشيائها وكتبها، وحين عادت تحمل دورق القهوة وجدته، وقد قرّب وجهه من صورتها وهي تمد رأسها ضاحكة من الشبك المعدني لبرج إيفل، ارتجف قلبها، أحست كأن وجهه قريب منها شخصياً، سألها: متى التقطت لها هذه الصورة؟ قالت: منذ شهرين.

قال: لو تعرفين كم أحب برج إيفل، لا يمر شهر إلا وأزوره.

سألته: ما الذي يعجبك فيه، علوه؟!

قال: لا، أحب أن أزوره في الليل، حيث تبدو شبكته المعدنية الكامدة اللون أشبه بالدانتيل.

ابتسمت معجبة بالتشبيه: تشبيه رائع لجسر إيفل من مهندس جسور.

تساءل: ألا يمكن أن يملك مهندس الجسور خيالاً لطيفاً؟

www.ibtesama.com

قالت بمرح: ربما، إنما ليس مثل طلاب الآداب.

قاطعها: خاصة اللذين يحضرون للدكتوراه في النقد الأدبي.

رشف قهوتها متلذذاً قائلاً: آلا قهوة تلوقتها في حياتي.

قالت: أشكرك على المجاملة.

قال: أقسم لك إنها ليست مجاملة.

ضحك فجأة: سألته: إيه ما اللي يضحكك؟

قال: ألن تغضبي إذا اعترفت لك؟

قالت: بماذا ستعترف؟

قال: بأنني لم أسجل الشريط، لم أسمعه بعد.

استكرت قوله: لم تسمعه بعد؟

قال: اعذريني كنت مشغولاً جداً.

قالت: إذاً الشريط كان حجة.

قال: كل قصة تحتاج لحجة.

سألت ببراءة: أية قصة؟

قال: قصة الافتتان الأول بين آدم وحواء.

أطرقت، كانت تفكر أنه انتظرها ثلاث ساعات في حديقة المدينة الجامعية، غير مكترث بالبرد، لتعترف أنها سعيدة، وبأنها ترى صورتهما حبيبين متعانقين منتشرة أمام نظرها وهي مطرقة في خشب أرض الغرفة المهترئ من مواد التنظيف.

سألها: ما بك يا هيام؟

ابتسمت قائلة: لا شيء، كنت أفكر أن كل شيء يأتي بسرعة ويذهب بسرعة.

- ماذا تقصدين؟

www.ibtesama.com

- أوه، كل شيء، المشاعر، العواطف، العلاقات.

- معك حق. لكن ألا تؤمنين أنه يمكن أن تلتقي بشخص، وتقولي للحال هذا ما كنت أبحث عنه وأنتظره.

قالت: ربما، تحصل هذه الأمور في الواقع.

قال بحرارة: هذا ما حصل معي تماماً، مذ رأيتك.

سألت: والفرنسية.

ردّ مستاءً: أوه، إنها لا شيء، لا شيء.

فصل الصمت بينهما، قطعه بسؤالها: هيام ألا تصدقيني؟

نظرت إليه وابتسمت. كانت لا تعرف بماذا تجيب.

قال: لا يبدو أنك تصدقيني.

أجابت بمرح: لا أصدقك، ولا أكذبك.

سمعت قرقعة أمعاءه، فضحكت.

سألته: هل أنت جائع...

قال: لم آكل شيئاً اليوم.

رقّ صوتها، سألته: أتريد أن تأكل، وأشارت بيدها إلى برادها الصغير في زاوية الغرفة.

قال: لا شكراً، هل بإمكاني دعوتك للعشاء؟

ترددت، نظرت في ساعتها.

قال: إن لم تلبي الدعوة، لن آكل شيئاً.

ابتسمت قائلة: في هذه الحالة سألبي على الفور.

قام عن كرسيه، لبس معطفه قائلاً بفرح يعجز عن إخفائه: هيا بنا.

• • •

www.ibtesama.com

طلب إليها أن تختار المكان، قالت إنها معتادة على مقهى جورج الخامس... أوه ليس مثل باريس حافلة مثالية للحب، طلب زجاجة نبيذ بوردو، وشرائح لحم عجل مع بطاطا مقلية وسلطة، أكلا بشهية، قالت له، إنها نادراً ما تأكل مساء بل تكتفي بشرب العصير، أو بأكل قطعة من الجبن الأبيض دون خبز لتحافظ على لياقتها...

قال: حسناً، من الآن فصاعداً، أدعوك للغداء.

قالت: يا لكرمك، أنت تمطرني بالدعوات.

قال: لا تتصوري كم أنا سعيد بك.

قالت له: مهلاً، أنا من برج الأسد، وأخشى أن أضعف أمام الإغراء.

قال: هو المطلوب.

سألته بدلال: وإذا رفضت؟

قال: سأطلب منك أن أستعير الشريط.

ضحكا معاً، وشربا نخب عشائهما الأول، كانا عاشقين جميلين يشهدان تبرعم بذرة الحب بينهما، وباريس أم حنون تحتضنهما بذراعيها الدافئتين.

بعد العشاء طلبت عصير غريفون، وهو طلب قهوة بالحليب.

قالت له: ذكرتني بقصيدة جاك بريفير، فطور الصبح، هل تسمع به؟

قال: للأسف، لم أقرأ له شيئاً.

قالت بحماسة: يا إلهي ما أروع شعره، سأهديك كتابه كلمات.

سأل مبتهجاً: يا لسعادتي، أتهديني كتابه؟ ما المناسبة؟

www.ibtesama.com

رددت ببساطة: هكذا، بلا مناسبة، أجمل الهدايا تلك التي تقدم بلا مناسبات.

- إذاً ستسمحين لي أن أهديك شيئاً بالمقابل؟

- وما هو؟

- لن أقول، سيكون مفاجأة.

- لكن ما المناسبة؟

شربا نخب بعضهما، وحين ركبا المترو معاً كانت الساعة تتجاوز الحادية عشر ليلاً، كان متنشياً يقرأ اسم المحطات بفرح، كأنه يغنيها، شاتليه، شاتليه، نوتردام، نوتردام... كانا وحيدين في المقطورة، واتفقا أن يلتقيا بعد غد ظهراً، لانشغاله طوال نهار الغد.

كان شتاء باريس يودع مدينة الحب، متنحياً أمام فصل الألوان، مشيا صامتين يجتازان حديقة المدينة الجامعية، وبين وقت وآخر كانت خطواته تضطرب فيقترب منها متعمداً أن يلامس كفها، وحين ودعته، اضطربت شفتاه، إنما لم يقل شيئاً، لكنها فهمت أنه يبوح بحبه، فابتسمت، كانت ترى بعين خيالها أنهما قريباً جداً سيغدران حيين...

• • •

أعادا اكتشاف باريس معاً، كعصفورين طليقين، كعاشقين متوحدين، ولم يحتاجا ليمثلا الأدوار التقليدية المرسومة لهما في الشرق، ولا أن يقولا الكلام الذي من المفترض أن يقال، لم يحتاجا لمراسم الخطوبة العائلية، ولا أن يقدم لها ذهباً أو ألماساً.

في موعدهما الثاني كان قد حضر ومعه علبة كبيرة مغلّفة بورق أحمر لماع.

www.ibtesama.com

سألته ما هذه العلبة؟

قال بجدية: أنا أحبك، وأخطبك رسمياً، وهذه - وأشار إلى العلبة - الشبكة.

قالت: ماذا تقول. أية خطبة وأية شبكة؟

قال: خذيها، افتحيها، ويمكنك وحدك أن تقبلي أو ترفضي.

أخذت العلبة، نظرت إليه مستطلعة قائلة: أوه إنها ثقيلة ترى ماذا تحتوي.

لم يُجب، نزعت الأوراق المغلّفة، كانت علبة كبيرة من الجلد البني تشبه الصندوق الذي تستعمله النساء لدفن مجوهراتهن. فتحت العلبة من قفلها الذهبي كانت مجموعة كاملة لأشرطة فيروز مرتبة ومغلّفة بالنايلون، وقصاصة ورق صفراء، كتب عليها بخط يده الذي تعرف عليه للمرة الأولى: إلى هيام حبيتي...

فاجأتها السعادة، ليس بإمكانها حبسها والسيطرة عليها، ترى لماذا تحبسها؟ هكذا عودوها: لا تظهري مشاعرك أمام رجل، المرأة كالإسفنجة يجب أن تمتص كل شيء دون أن يلاحظ عليها أي شيء، والإسفنجة أكانت فارغة أم مشبعة بالسوائل يظل شكلها وحجمها هو هو، تبادلا نظرة حب صامتة، بدت طويلة ومشحونة. ضحكت متوترة من الفرح.

قال لها: لم تعلقي بكلمة.

قالت: ألا ترى أني قبلت الهدية.

قال: والخطوبة.

أطرقت قائلة: أوه أنت لا تفهم، أليس سكوت المرأة دليل قبولها؟

www.ibtesama.com

قال مشيراً بيده إلى البعيد: هناك، إنما ليس في باريس.

قالت: بل في كل مكان، المرأة في العمق هي نفسها سواء في الشرق أم في الغرب.

قال معترضاً: إطلاقاً لا يمكن المقارنة بين امرأة من الشرق، وامرأة باريسية.

قالت بمرح: ابتدأنا نختلف.

قال: لا أبداً، أنا أعبّر عن رأيي فقط، المرأة هنا حرّة، تحدد مصيرها بنفسها، لا أحد يتدخل في حياتها، لا تحترم إلا على أساس شخصها، مفاهيم العفة والشرف تختلف جذرياً هنا، عما هي عليه في الشرق.

قاطعته وهي تنظر في عينيه: وأنت كيف تفكر، ألست رجلاً شرقياً؟

أسرع ينفي عنه التهمة قائلاً: لا أبداً، وأشار إلى رأسه قائلاً: هنا الأخلاق والشرف.

ابتسمت بعذوبة وسألته: ولكن ألا تتمنى أن تتزوج من فتاة تكون أول رجل في حياتها.

قال متحمساً: لا أبداً، هذا سخف فظيع، صدقيني أنا حر من عقدة أن أكون الرجل الأول، وحين أحببتك لم يهمني إن كان لك علاقة مع رجل قبلي.

قالت: وكأنها تمتحنه: إذاً لا يهمك إن لم تكن رجلي الأول؟

قال: إطلاقاً.

تأملته لترى مدى جديته، ثم تصنعت الحزن وهي تقول: يؤسفني أن أخبرك، وصمتت.

www.ibtesama.com

قال: هيام، أنا لم أسألك شيئاً، حياتك ملكك، لست ديناً ولا أملك هذا الحق.

قامت تُحضر شريط كاسيت وتتجه صوب المسجلة، توقفت في منتصف الغرفة قالت بصوت أرادته حزيناً: يؤسفني أنك لن تكون أول رجل في حياتي... وانفجرت ضاحكة، كانت تبدو كفراشة في تنورتها البيضاء القصيرة المثناة، والكنزة الكحلية، وشعرها الأسود الطويل مفروداً حتى منتصف ظهرها، قام بحملها ويدور بها في الغرفة، أخذ قلبها يرتعش وهي تعي أول تلامس بينهما، قالت: أوه مهلاً، لا تسرع، لم يبال بتعليقها، توقف عن الدوران، جلس على الأريكة وهي لا تزال تحت رحمة ذراعيه، تشمم شعرها طويلاً، وكان للقبلة الأولى طعم الاكتشاف الملهل للانجذاب الأبدي بين آدم وحواء.

سنة كاملة عاشتها معه في باريس، سمتها سنة الحلم، لأنها تبدو مفصولة وغريبة عن سلسلة حياتها، حين تتذكر هذه السنة تحسها كغيمة تطير فوق رأسها، غيمة وردية حلوة، إنما ليس بإمكانها التقاطها، وفي الأشهر الثمانية الأخيرة سكنت معه في شقته الصغيرة، كانت تستيقظ باكراً لتكتب أطروحتها على الآلة الكاتبة الكهربائية وتوقظه ليتناولا معاً القهوة بالحليب والكرواسان، ثم ينطلق إلى عمله، ولا يرجع إلا مساء. ليخرجا ينتزهان في الشانزليزة، وليتناولا طعام العشاء في أحد المطاعم، ثم يعودان إلى عشهما الدافئ، أي منهما لم يخبر أهله عن العلاقة بينهما، اتفقا أن يتزوجا حال عودتهما للوطن. سألها ذات يوم إن كانت ترغب أن يكتب لأهلها يسألهم موافقتهم على الزواج منها...

www.ibtesama.com

لوّحت محذرة: إياك، سيمطرونني بالرسائل، والله لو عرفوا بعلاقتنا لجنّ جنونهم.

يوم اتصلت به في عمله عاجزة عن ضبط فرحتها بنجاحها وحصولها على الدكتوراه قال لها: يؤسفني أنني لست بجانبك هذه اللحظة.

قال: لا بأس، إلى المساء كالعادة.

لكنه فاجأها بسهرة تضم كل أصدقائهما، سهرة مميزة أحيتها أصوات أم كلثوم والشيخ إمام ومارسيل خليفة، كان قد حضّر لها هدية أدهشتها، صورتها مرسومة بقلم الفحم الأسود على ورقة مصفرّة، وقد رسمها أحد الرسامين الإيطاليين، صورة رائعة حقاً، رغم أنها في البداية لم تجد شبهاً بينها وبين الرسم، لكنها بعد برهة شهقت قائلة: حقاً هذه صورتي، هكذا تغير وجهي... لكن كيف رسمني...

قال: هل تذكرين يوم دعوتك إلى مطعم قريب من كنيسة القلب الأقدس، كنت قد طلبت من أحد الرسامين أن يرسمك.

لمست لمس اليد كمية الحب الهائلة التي يكنها لها، وأخذت تماطل في رجوعها إلى الوطن، لأنها تعرف سلفاً أنها لا تطيق تحمل الأيام بعيدة عنه، كانت تعتني به كأم حنون وهو يستعد لأطروحة التخرج، لأشهر ظلّ متوتراً ويتهم أستاذه بالعنصرية، وكان يحتد أحياناً ويصرخ: نحن نعمل كالحمير، والفرنسيون يأخذون الامتيازات.

فتحاول امتصاص غضبه وتقول: لا بأس إنها بلادهم بالنتيجة، ونحن غرباء.

www.ibtesama.com

- لكنهم يستغلوننا، والله أنا أعمل ثلاثة أضعاف زملائي الفرنسيين وراتبي أقل منهم بكثير.

- لا بأس، أنت لا تحتاجهم، سترجع إلى وطنك.

كانت أحاديث من هذا النوع تدور دوماً بينهما، كانت توافقه الرأي، لكنها تحاول امتصاص توتره وهو يستعد لخطوات تخرجه النهائية.

ويوم حصل على الدكتوراه في هندسة الجسور، أهدته بطاقة طيارة ليسافرا أسبوعاً إلى لندن، كانا ينهلان من الحرية، لكأنهما يخزنان قدر استطاعتهما مؤونة تساعدهما في تحمل القيود الاجتماعية التي تنتظرهما في الوطن وحين رجعا إلى باريس وهما يشعران بقلب مفعم بالحنين أن لا شيء بعد ينتظرهما سوى حزم حقائب السفر، وأخذا يؤاسيان بعضهما أنهما سيزوران باريس كل سنة مرة، أو كل سنتين على الأكثر، وسيحاولان استجار السنين نفسه، لكن أياً منهما لم يجرؤ أن ينظر في عيني الآخر ويقول: والحرية.

وفي مطار أورلي الغاص بالناس من مختلف الجنسيات، بدت باريس بعيدة وفاتنة، وعيناها ممتلئتان بالدموع، بكيا بصمت وهما يصعدان سلم الطائرة قرّبا وجهيهما من زجاج النافذة الضيق للطائرة ليودعا باريس التي أخذت تصغر وتصغر حتى تحولت إلى غابة خضراء يخترقها خط أزرق.

• • •

تمت خطوبتهما الرسمية وسط الأهل، كانا أكثر الحاضرين غربة، كان يلبس بذلة سوداء وربطة عنق مخططة بالأحمر والأسود.

www.ibtesama.com

همست في أذنه: هذه أول مرة أراك تلبس ربطة عنق.

وردّ في الحال: وأنا لأول مرة أراك تلبسين حذاء بكعب عال، وتكشين شعرك هكذا.

وحين لبسا خاتمي الخطوبة وعيونهما المعلقة بأصابعهما المتحركة بآلية، كانت ذاكرتهما تعكس في نفس اللحظة صورة بعيدة وساحرة، يوم تقدم لخطوبتها في غرفتها المتواضعة في المدينة الجامعية بحمل علبة أشرطة فيروز، وكيف تبادلا القبلة الأولى، كان مصور يتحرك كالمكوك يلتقط لهما الصور، ووسط تصفيق الأهل والأقارب طلبا إليهما أن يتبادلا القبل من الوجنتين، تبادلا قبلاً فائرة لا طعم لها، وجلسا محنطين كثيبين، وحين انفضّ المدعوون بعد منتصف الليل بقليل، طلب إليها أن يذهبا إلى أحد المطاعم ليحتفلا بالمناسبة، استأذنته لحظة لتسأل أهلها، وعادت بعد لحظات منكسرة وهي تنظر إليه معتذرة أن الوقت قد تأخر، وأن الناس هنا يثرثرون...

قال مستكراً: هيام، نحن لسنا قاصرين، أنت خطيبتي الآن.

ارتبكت وتركته وهي تقول: حسناً، انتظر لحظة.

وعادت وهي تحمل حقيبتها وهي ترجوه ألا يتأخر كثيراً، وأخبرته أن أهلها لم يوافقوا على خروجهما في ساعة متأخرة، وأنهما لم يصبحا زوجين بعد، ضحك بعصبية وهو يقول ساخراً: قولي لهم إننا زوجان منذ زمن بعيد.

- أوه أرجوك، فكّر عقليتهم...

- لكنني حرة في حياتي.

- لا تتكد أرجوك، اليوم يفترض أن نكون سعيدين...

www.ibtesama.com

قاطعها مستكراً: يفترض أن نكون سعيدين...

قالت وقد بدأت تحتد: ألهذا طلبت مني الخروج، لتحدث بهذه الطريقة.

قال: آسف، اعذريني، لكني أحس بالاختناق.

قالت مصطنعة المرح: أظنك مختنقاً من ربطة العنق.

نزع ربطة عنقه، كان يدور بالسيارة، والمطاعم أغلبها مغلق، والمطاعم التي لم تغلق بعد اعتذرت عن استقبالهما لأن الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، وهم يستعدون للإغلاق.

عادا أدراجهما خائبين، قال لها وهو يودعها: كنت أتمنى لو نقضي الليل معاً.

قالت: وأنا أيضاً.

قال لها: هيام، أكاد أختنق.

قالت: أرجوك، احتمل قليلاً، لا حلّ لنا سوى الإسراع بالزواج.

سأل: لكن كيف يعيش الشباب هنا؟!

قالت: أوه، هل يطرح هذا السؤال، وبهذه الطريقة...

تركته دون أن يتجرأ على تبادل قبلة واحدة، كانت لحظة خطوبتهما الرسمية، وسط الأهل وفي ربوع الوطن، من أتعس اللحظات التي مرّت في حياتهما منذ تعارفا في باريس!

• • •

ليس من شيء تفعله سوى تسبيح الصمت، وخلق حوارات تشبه الأنين مع الذات، ونظرات تائهة تتجمد لساعات فوق أشياء دون أن تعيها. دوران في حلقة مفرغة، خفٌّ عنيف للماء بأمل أن تتحقق معجزة وتطفو طبقة رقيقة من الزبدة على السطح، لكن عبثاً المعجزة

www.ibtesama.com

لا تتحقق، وقد يأتي الحب أو الوهم، - لا فرق البتة - مرة واحدة في حياتك، وقد لا يأتي، وتتعاقب الليل والنهار إلى أبد الآبدين، وبعد الفطور انتظار للغداء، ثم انتظار للعشاء، وأحياناً تصابين بمرض البوليميا فتلتهمين الطعام بشراهة لا تشبع، ثم تدخلين المرحاض ترغمين نفسك أن تتقيئي كل ما أكلته، وتخرجين بوجه مطفأ، تغسلين فمك بالماء والصابون، وقد تصابين بانعدام شهية، فتنتظرين طويلاً إلى أشهى المأكولات، ولا ترغبين بتذوقها، وإذا أكلت فكمية قليلة لا تشبع عصفوراً، هله هي الحياة، أتراها تستحق كل هله الأهمية؟! ولماذا يرتعب الناس من الموت؟ وهناك بشر يعيشون عيشة الكلاب، بل ربما الكلاب تأنف حياتهم، ومع ذلك يفضلون الحياة على الموت.

ما أسهل أن تضيع سنوات من عمرك، ما أسهل أن تحترق الأعصاب، آلاف الأيام تعاقبت، آلاف الليالي، وأنت توسدين رأسك على وسادتك وتحلمين الحلم ذاته، تحلمين بدائرة مجهرية صغيرة تنطلق من مبيضك طوال سنوات الانتظار، تكون نواة طفل حين تجتمع بنصفها الآخر، ترى ألم يرقّ مبيضك طوال سنوات الانتظار ويفرز بويضة جاهزة للإلقاح؟! بويضة واحدة فقط.

ورغم أنك لم تؤمني يوماً بالمعجزات، ولم تقرئي في كتاب مقدس، إلا أنك سافرت إلى لبنان، وصعدت الدرج الحلزوني اللي يضيق ويضيق لينتهي بتمثال العذراء مريم، فاتحة ذراعيها، متشحة بوشاح أزرق، بادية كأنها تحتضن السماء، وكأن السماء قطعة من وشاحها، وهناك وقفت بخشوع عند قدمي العذراء، وقرأت ما كتب بخط عريض، - يا سيدة لبنان صلّي لأجلنا - وانهمرت دموعك سخية وأنت تسندين جبهتك إلى قدمي التمثال، وأنت تقولين لها:

www.ibtesama.com

هذه أنا، تأمليني، انظري إليّ، اترين وجهي، ساعديني، أرجوك ساعديني...

كنت قد سمعت أحاديث النسوة أن شفاعة العذراء، ساعدت فلانة وفلانة فحملن، وفعلاً أحسست بعد أيام كأن شيئاً بك تغيّر، تحديداً نقطة في بطنك أخذت تخزك، وخفق قلبك، لعل العذراء تدخلت، لعل البويضة تتحرر الآن، وفعلاً تأخرت دورتك الشهرية، وقصدت الطبيب مهتاجة من الفرح، قلت له تأخرت الدورة الشهرية ستة أيام، وببرود أجرى لك تفاعل الحمل السريع، وكان سلبياً. وفي اليوم التالي كنت مجللة بالعار بدم الطمث، الطبيب ذاته قال لك ذات يوم ساخراً: إذا تأخرت دورتك الشهرية يوماً واحداً تقولين إنك حامل، وإذا أتاك الطمث بعدها تعتقدين أنك أجهضت.

وذات يوم اشتريت دمية شقراء تغمض عينيها وتفتحهما، وفي ظهرها مسجلة تصدر أصواتاً حلوة بين ضحك وبكاء، ومكاغاة، وكنت تلعبين بها في بؤس وحدتك، متخيلة طفلك المنتظر، وكنت تخفين اللعبة حين يأتي زوجك، هل خطر بباله ذات يوم أن زوجته تلهو بلعبة في غيابه؟ أوه أشياء كثيرة لم تخطر بباله، لقد تغيّر، ألم تكتبي يوماً في دفتر مذكراتك، يجب أن يحدد تعريف الإنسان بأنه الكائن الذي يتغير. أهذا هو الذي عرفته وأحببته في باريس، كيف صار قاسياً وغريباً مع الزمن؟ وفي البداية كنت تجدين له الأعذار، ولكن الأيام أكدت لك أنه يتعمد تجريحك، وما معنى إطرائه لكل حامل يلتقيها، ترى أما كان يشعر بنفسك تنكمش وتتضاءل، ألم تطلبي منه ذات يوم أن يساعدك في تحضير العشاء لأصدقاء فاجؤوكم بزيارة، قال لك بجفاء وهو يلاعب طفل صديقه: أنا عديم أطفال، دعيني ألعب مع الصغير.

www.ibtesama.com

وهل تنسين ذلك يوم، بعد سبعة أعوام من زواجك، كنت محتدة ومهتاجة كحيران متألم، سمحت لنفسك بعد سبع سنوات من الصبر أن تنفجري لأول مرة، وكان لصوتك صدى علابات نسائية بعيدة منذ عصور وعصور، في صوتك نواح أليم، أنا لست حيوانة تجربة، لست مجرد مبيض، أنا لست بويضة، أنا إنسانة، إنسانة، أتفهم، كل يوم أسمع مئة مرة كلمة حمل، وإباضة، إباضة، وحمل، تعشيش وإلقاح، أوف، أوف، لقد خنقتني، وما أن تسمع عن طريقة جديدة في معالجة العقم، حتى تطالبني بالانصياع والتجريب، ما هذا الجحيم الذي أعيشه، لماذا لا تبنى طفلاً...

وقاطعك ببرود: قلت لك مراراً، انسي موضوع التبني، أنا أريد طفلاً يحمل صفاتي. وكان ألمك وقتها يمض بقوة في كل نقطة من جسدك، قلت ساخرة: يا لها من صفات، ونظر إليك كمن يود خنقك: أتسخرين مني؟

- لا، لا أقصد السخرية، لكن أية صفات هذه، لم يعد في قلبك ذرة رحمة، ذرة حب، أوه من يطلب منك الحب الآن، لكن ارحمني، ارحمني من هذا العذاب.

وصرخ: رجل غيري، كان تزوج مرة ثانية، ومنذ سنوات.

وصرخت بدورك تزوج، من يمنعك؟

قال: أنا لا أحب أن أجرحك و...

قاطعته بقسوة: كذب، كذب، أنت تعرف تماماً أنك تؤلمني، بل كيف تؤلمني، صرت فناناً في تجريحي، كل همك إشعاري كل دقيقة، بل كل ثانية أنني ناقصة.

- بل أنت واهمة.

www.ibtesama.com

- لا، لست واهمة، وأنت بأعماقك تعرف.

تساءل ببرود: أعرف ماذا.

قلت ببرود: تعرف كل شيء، أنت تتبع أسلوباً، أنا أحتقره، تريد أن تضغط على أعصابي وتضغط حتى أضطر أنا لطلب الطلاق، هذا أسلوب الجبناء.

وحوت صفعة مدوية على وجهها، كانت منكومة كحيوان جريح يئن وسط دموعه، قلت يومها: أتضربني يا نذل...

وكانت حماوة انفعالك من القوة والصدق، أنها جعلته يلهب القناع عن وجهه، وأخذ يزأر، وقد غدا صوته غريباً ومخيفاً.

- كفى، أنا من صبرت عليك صبر أيوب، ما ذنبي إن كنت عاقراً، ساعة نحس يوم تعرفت بك، أنت امرأة لا تصلح للزواج أبداً، وهل هناك فتاة ذات أصالة، وأخلاق عالية، ترضى أن تعيش مع رجل لا تربطها به صفة رسمية، أكثر من سنة في شقته؟!

لم تصدقي ما تسمعين، ولكن كيف تكذبين أذنيك، لقد سمعت ما سمعته، هل توقعت يوماً أن يصدر عنه مثل هذا الكلام، أو هذا السم، أتراه تغيّر؟ أوه لا، لم يتغير، لكنه وجد الفرصة المناسبة ليخرج العفن المتراكم في أعماقه، عفن متوارث عبر أجيال، ولم تعلقي بكلمة، لأن الذهول لفك وأخرسك، ولأنك كنت مهدودة من التعب، بعد أن أمضيت يوماً كاملاً مصلوبة على سرير الفحص النسائي لتجرى لك عملية نفخ البوقين.

لكنك في تلك اللحظات شممت رائحة النهاية، للنهايات رائحة خاصة، نظرت إليه وأنت تعلمين تماماً أنها النظرة الأخيرة لرجل أحببته وخذلك، يا لطعم الخذلان، إنه أشد مرارة من الخل، كنت

www.ibtesama.com

متأكدة أنك لن تعيشي معه أبداً بعد ما سمعته، أوه هذا ما يسمونه الشعرة التي قصمت ظهر البعير، ومرّت أيام وأنت هادئة مستقرة، هدوء من يتخذ قراره بعد تردد طويل، وحين حاول بعد أيام أن يعتذر لك، وهو يتلعثم بجدية، قاطعته وأنت ترمقينه بنظرة قرارك النهائية الباردة:

كفى لتنفصل بصمت، أشرف لنا.

- ولكن لم أقصد الكلام الذي.

قاطعته: الإناء بما فيه ينضح.

ولم تعطه فرصة، ربما متعة أن يراك مهزومة، وحيدة ومنهارة، ولي حياتك لم تكوني أكثر أناقة وانشراحاً من لحظة رفعتِ دعوى الطلاق، وصرت تفصلين مزيّن الشعر، واشتريت ثياباً جديدة، واستبدلت ألوانك التقليدية الأزرق، والكحلي، والأسود، بألوان الاحتجاج الأحمر، والخمري، لكأنك تعلنين عن بداية عهد جديد، عهد جديد مع الحرية، ودون أن تحاولي معرفة التفاعلات التي تعتمل في داخلك، أدرت ظهرك للماضي بقوة لم تعرفيها في نفسك، أقصيته عن تفكيرك لكأنك ما عشت معه سنوات شبابك، ونسيت أو تناسيت الحب، والوجع والعقم، أمرت ذاكرتك أن تنسى، ومنعت أقرب المقربين منك من التدخل، وتنهدت لأول مرة أطول تنهيدة في حياتك، وزفرت بعدها أطول زفرة وأنت مغمضة العينين، فيما جوارحك كلها تهمس بصوت جديد: ما أروع الحرية.

• • •

الحرية لا تقدر بثمن، وجدت نفسها ما أن صدر حكم الطلاق، تتجه راكضة إلى مكتبتها، وتفتح درجها الخاص المقفل دوماً لأهمية

www.ibtesama.com

الأوراق المخبأة فيه، سحبت الدرج كله، ودلقت محتوياته على طاولة مكتبها الواسعة، أوراق وصور وتقارير طبية، أخذت ترتبها حسب الأعوام أولاً، العام الأول، والثاني، حتى الثامن، وسمتها ساخرة أيام البحث عن البويضة الملقحة، كان لسخريتها طعم الخل، مذ كانت طفلة كانت رائحة الخل تحرض فيها الغثيان، لكنها غيّرت ترتيب الأوراق، قالت: لا، ليس مهماً التصنيف حسب الأعوام، سأصنّف هذه الأوراق حسب العباقرة اللذين فحصوني، ولم تشأ أن تسميهم الدكاترة، وحدها سخريتها كانت تساعدها في تخفيف آلامها، رتبت التقارير والصور والفحوص الخاصة بكل طبيب، أمسكت قلماً وأخذت تكتب.

الطبيب الأول: رأيه أنها سليمة تماماً، ويمكنها أن تنجب، المشكلة أن جسدها يكون أجساماً تقتل الحيوانات المنوية لزوجها، أي سبب عقمها برأيه مناعي.

الطبيب الثاني: رأيه أنها مصابة بانسداد شديد في البوقين، يعيق الحمل.

الطبيب الثالث: يرى سبب عقمها أن رحمها أقرب للرحم الطفلي، ويجب أن تعالج بالإبر الهرمونية و... قفزت إلى.

الطبيب الرابع: يرى سبب عقمها أن أغلب دوراتها الطمثية لا إباضية، ويجب أن تعالج بمحرضات الإباضة.

قفزت إلى الطبيب الخامس والسادس، وأخذت تعد، وأنفاسها تتسارع اثنين وعشرين طبيباً توقفت عن الكتابة، على الطاولة أمامها أكداس من الأوراق، فماذا ستفعل بها؟ ولماذا تلخص رأي كل طبيب، وكلهم من أشهر الأطباء، البعض في دمشق، وبعضهم في

www.ibtesama.com

بيروت، وطبيبان في باريس، وتفكرت فحوصها التي أرسلت إلى أشهر جامعة في أميركا، آه، جامعة أميركا، وحدها أقنعتها بالرد، كان البروفيسور الشهير بمعالجة العقم في تلك الجامعة، قد كتب إليها بعد أن اطلع على فحوصها كاملة أن سبب عقمها على الأغلب نفسي.

جمدتها المفاجأة، تساءلت، هل هناك عقم نفسي، ترى ماذا يقصد؟ لماذا لم يشرح لها وجهة نظره؟ زوجها سخر منه وقال: حين يعجز الطبيب عن معرفة السبب يقول السبب نفسي...

وآمنت أن سبب عقمها نفسي، وكتبت للطبيب تسأله أن يشرح لها قصده بالعقم النفسي. ولم يتأخر بالرد عليها، قال إنه لا يعرف تماماً البيئة الاجتماعية التي تعيش فيها، وأن البيئة قد تسبب عند بعض النساء الحساسات ضغطاً نفسياً شديداً إذا لم يحملن، وأن هذا التوتر العصبي يمكن أن يسبب لها اضطرابات هرمونية وعصبية تمنعان الحمل، بآليات لا تزال غير معروفة تماماً، منها نهي الإباضة مثلاً، وأعطاها مثالين متعاكسين: مثلاً الرغبة الشديدة في الحمل يمكن أن تمنع حصوله، كما أن الخوف الشديد من وقوع الحمل، يمكن أن يمنعه أيضاً... وأعلمها أنه يجري أبحاثاً دقيقة وهامة حول هذه الموضوع، وأنه تمكن من علاج عدة سيدات شكون لفترات طويلة من العقم، عالجهن بمجرد تغيّر بيئتهن، وبإدخال الراحة والاطمئنان إلى نفوسهن.

تذكر أنها ما إن أنهت قراءة رقه حتى دبّ فيها الحماس، وأمسكت قلمها وهمّت بالردّ عليه، لكن القلم تجمد فوق الورقة ولم يكتب شيئاً، كأنه حرن لسبب أو لأسباب، ترى ماذا ستحكي عن

www.ibtesama.com

ظروفها النفسية، هل تؤلف له كتاباً تشرح فيه كيف تنقلت من طبيب إلى طبيب، هل تعترف له أن أحد أشهر الأطباء في معالجة العقم نصحها أن أفضل ساعة للإلقاح هي الحادية عشر صباحاً، وأنها استمرت لأشهر طويلة تنطلق إلى بيتها كالمسعورة تمام الساعة الحادية عشرة، ليرافيها زوجها لاهثاً بدوره، كي لا يتأخر عن موعده ويسرعان في رمي ثيابهما كيفما اتفق ويمارسان طقوس الإلقاح!! ألم توشك على الانهيار العصبي من هذا الأسلوب...

جمعت كومة الأوراق أمامها، ومزجتها، كانت تواجه ثماني سنوات من عمرها، سنوات اللهاث وراء البويضة الملقحة، أغمضت عينيها وهي تعي بألم عميق كيف تحولت أحلى سنوات شبابها إلى بحث لاهث ولا مجدٍ بل كارثي...

جمعت التقارير كلها في كيس، ربطت عنقه ورمته في علبة القمامة، أحست بعد أن تخلصت منه أنها غدت خفيفة وبعيدة عن كل شيء، وخارج كل شيء، حتى ثقل جسدها تحررت منه، أتراها تدخل عالم النوم، لأنها أجفلت فجأة، وفتحت عينيها مذعورة وقلبها يخفق بشدة وقد جثم لها ذهنها لوحة بدت مفزعة، مع أنها مؤلفة من كل الوجوه المحبة والمألوفة، صورتها ترجع من شهر العسل، وعيونهم مبحلقة فيها، عيونهم جميعاً، أهلها، أهله، الجيران، المعارف، البقال، والفران، وعامل التنظيفات، عيون تسأل: ماذا تخبئين لنا؟ وترد بابتسامة علبة: لم أفهم، ماذا أخبئ لكم؟

فيشيرون بأصابعهم إلى بطنها، ويقولون: ماذا تخبئين في بطنك؟

وتطرق بخجل: لكن لم يمضِ على زواجي سوى شهر.

www.ibtesama.com

كابوس، كابوس، فعلي، قامت تشرب الماء، وأنفاسها تتلاحق، لكرت أنها لو أرادت الكتابة للطبيب الأميركي عن ظروفها البيئية والنفسية فستبدأ من هذا الكابوس، تحديداً من عبارة: ماذا تخبئين في بطنك...

• • •

انصرمت ثلاث ساعات وحدة أمطار شباط لم تخف ولا درجة واحدة، لكنها كانت سعيدة بتأمل فيضان الطيعة، وهي جالسة وراء مكتبها، ووسط رائحة الكتب، كانت مولعة بالشتاء، بالرعود والأمطار والبرد. مذ كانت صغيرة كانت تتفرج على المطر ساعات من وراء زجاج النافذة وكانت رائحة الأرض المعمدة بالمطر، تسكرها، وتدخلها في نشوة خاصة لا تشبهها نشوة، أشعلت سيجارة، وأخذت تنفث دخانها وهي تقول: يا إلهي كيف يستطيع الإنسان أن يستعرض سنوات طويلة من حياته بلحظات، ولكن فلتعترف أن كل شيء وراءها الآن، وأنها تنظر لكل الأحداث التي مرّت معها نظرة برود ولا مبالاة، أسعدها أنها لم تشك من صداع صباحي كعادتها حين تشرب الويسكي، قالت وموجة مرح مباغتة تفاجئها هذه المرة حدث استثنائي لم أشك من صداع، أمر عجيب حقاً... وفيما هي تستعيد بذهنها الشخصيات الهامة لسهرة البارحة، وبسخرية عالية، لمحت رجلاً ينزل من سيارته، ويتجه راكضاً صوب مكتبتها، غارقاً بالمطر، وقبل أن تتساءل عن هذا المجنون الذي يتحرك وسط سيل الأمطار، كان قد فتح باب مكتبتها بقطر ماء، شهقت، أوه عرفته إنه الشاعر، ... الرجل الغامض ذو اللحية، الذي أثار فضولها سهرة البارحة.

www.ibtesama.com

- صباح الخير، قال لها وهو يلهث وينفض عنه الماء.

قالت: أهلاً، وقامت تحضر له منشفة، أخذها منها ممتناً، ومسح وجهه وشعره، كان يلبس سترة جلدية سوداء، وبنطالاً أسود، قدمت له كرسياً ليجلس، تذكرت النظرة الاستثنائية التي خصها بها قبل أن يغادر قاعة الطعام، نظرة حركت أشياء راكدة وميتة منذ زمن بعيد، ترى ما هذه الأشياء، هل بإمكانها حصرها بدقة؟ لكنه لم يترك لها المجال لحصرها، بل ابتدرها قائلاً: جئت لزيارتك لسبب وحيد، أن تتابع النقاش حول هجينة اليترا...

ضحكت، كما لم تضحك منذ زمن بعيد، ضحكة صافية حقيقية، قال: أنت أجمل وأنت تضحكين، الضحك يليق لوجهك أكثر مما لو كنت الملكة الحزينة.

سألت مستغربة: الملكة الحزينة؟

- أجل، هكذا سميتك، طوال سهرة البارحة كنت أراقبك في المرآة، وجه بديع يجلله السواد، عينان عميقتان ساحرتان، وشاردتان...

قاطعته: إذاً أنت تتلصص على النساء في المرآة...

قال: وأنت يا سيدتي العزيزة، أما كنت تتلصصين...

ابتسمت قائلة: إذا كنت تعرف أنني أراقبهم في المرآة...

- بالتأكيد...

ضحكت، يا إلهي، كم كان الحديث غارقاً في السخافة، أتعرف كل مرة أقسم بيني وبين نفسي ألا ألبي دعوات كهذه، لكن، لا أعرف كيف أخطئ أحياناً.

قال: حقاً، ترى ما سبب سقوطنا كل مرة في الفخ.

www.ibtesama.com

سألت باستغراب: فخ، أيُّ فخ؟

- هذه السهرات المغرقة في التفاهة والشكليات، والتنافس حول أصناف الطعام المقدمة، أليست فخاً ينصب لأشخاص مثلنا..

ضحكت ساخرة: أشخاص مثلنا، هل تصنف البشر أو.

قاطعها: وهل أنت تشبهين المدعوين البارحة.

- ماذا تقصد...

- أو تظنين لم ألمح أوراق النعناع تتفتت بين أصابعك، وقطع الخبز تفرط بعصبية، هل فعل الآخرون مثلك...

- أوه كنت تراقب حركاتي كلها إذن...

- وهل كان ما يستحق المراقبة أكثر منك...

- هل تحاول إطرائي.

- لا أبداً، بل أعترف ببساطة أنك أثرت فضولي...

- ربما لأنني امرأة وحيدة، نظرت إليه، أظن كل امرأة وحيدة تثير الفضول.

- لا إطلاقاً، بل لأنك امرأة استثنائية.

ضحكت وقد راق لها هذا التعبير...

قالت: أحب أن تصفني أنني امرأة استثنائية، على فكرة، أنت كذلك رجل استثنائي، لقد أدهشتني وأنت تحكي عن اليد البشرية وأثرها في إنجاح عجينة البيتزا... أتعتقد أنهم أحسوا بالإهانة.

- أوه، لا أظن، كانت كل أحاسيسهم متركزة في بطونهم...

سألت: غريب، أهكذا يتحدث الناس المرموقون...

ضحك ساخراً: وقال بتهكم: مرموقون، إنهم شلّة لصوص.

لم تعلق، قام يتمشى في المكتبة يتفحص الكتب، قال: مكتبتك

www.ibtesama.com

فنية، وأخرج من الرفوف مجموعة من الكتب تزيد عن العشرين، حملها ووضعها على مكتبها قائلاً: سأشتري هذه الكتب.

ابتسمت قائلة بمرح طغى عليها فجأة: أوه رائع، كنت أعتقد أنني لن أبيع أيُّ كتاب هذا الصباح العاطر.

قال متردداً: إذاً ألا يحق لي قليل من الحسم.

قالت: بالطبع.

قال: لكني لا أرغب بحسم عادي.

قالت مبتسمة: فعلاً إنك شاعر.

سأل بلهفة: كيف عرفت.

- هذا ما قاله زوج صديقتي ليبرر كلامك وانصرافك الغريبين...

- ولكن هل لأنه قال إنني شاعر، صدقته.

قالت: لا، بل لأنك تتصرف بشكل غير عادي، غير مألوف.

نظرت إليه قائلة: ما الحسم الذي ترغب فيه.

- أرغب الا تخيبي أملي، وان تلبي دعوتي للغداء.

فاجأتها صراحته المباغتة، تململت قائلة: في هذا الطقس المجنون.

قال مؤكداً عرضه: ليس أجمل من مجاراة طقس مجنون.

- ولكن.

- أرجوك، لقد أجلت سفري على امل أن تقبلي دعوتي.

نظرت إليه، أدهشها أنها تصدقه كما لم تصدق أحداً مثله...

ابتسمت ابتسامة تعني أنها وافقت، قال: أشكرك، أشعل غليونه فيما انهمكت تحسب أسعار الكتب التي اختارها، وهي تحس بعينيه

www.ibtesama.com

تأملانها بفضول وعاطفة غير متميزة تحسها تماماً...

قال لها: أتعرفين، قصص إدغار آلان بو، أبحث عنها منذ زمن طويل، ولم أجدها إلا في مكتبتك.

ردّت بفخر: إذا أردت أن تعثر على كتاب مفقود، عليك أن تسألني.

وضعت الكتب في ثلاثة أكياس، قائلة: الكتب جاهزة، أخرج محفظة نقوده ليدفع الثمن، ولا تعرف لماذا شعرت بخجل شديد وهي تستلم منه المال، كانت تحس أن ألفة عميقة تجمعهما أو سوف تجمعهما قريباً، لكنها قبضت الثمن كاملاً، وكانت تحضّر القهوة وتتأله كيف يشربها، قال: بدون سكر لو سمحت.

في الزاوية القصية في المكتبة حيث جهزتها بسخان كهربائي كانت تعد القهوة، وحين التفتت إليه خفق قلبها، كان يقرأ خربشاتها (رحم متخشب)، غضبت، ترى هل فهم شيئاً، هل قرأ فعلاً ما كتبته، انتظرت أن يعلّق، لكنها حين قدمت له القهوة، لم يبدُ عليه أنه قرأ شيئاً، سألها عن صورة الرجل الوديع بالأبيض والأسود، قالت له إنه جدها، وحكت عن العلاقة العميقة والحميمة التي كانت بينهما...

سألها إن كانت تزعجها رائحة دخانه، قالت: على العكس رائحته زكية...

مدّ لها غليونه قائلاً: أتحبين أن تشمي نفساً...

قالت: لم لا...

سحبت أنفاساً متلاحقة متسلية بنفث الدخان، قال لها: لو كانت الكاميرا معي لكنت صورتك... ضحكت، كانت سعيدة بالجلوس

www.ibtesama.com

مع رجل كله حيوية، حتى شعرت كأنه أصابها بالعدوى، إنها مرحة، ترغب بالانطلاق، والأكثر من ذلك أنها قبلت دعوته للغداء، هل سبق أن لبّت دعوة رجل بهذه البساطة؟ لا أبداً هذا ما قالته لنفسها، وهي تتذكر كيف كذبت على أختها وقالت لها أنا مرتبطة مع أصدقائي على الغداء، آوه كيف يصدف أن تكذب أحياناً، لتحقق الكذبة بعد وقت قصير...

سألته: هل ستسافر في هذا الطقس العاصف.

قال: أجل، لا يمكنني أن أتغيب عن عملي أكثر.

سألته: آه حقاً، لم أسألك ماذا تعمل.

أشعل غليونه المطفأ، وسألها، قدري أنت ماذا أعمل؟

تفكرت وقالت: شيء له علاقة بالفن.

- هزّ رأسه بطريقة تدل على موافقته المبدئية لجوابها، قال: حددي أكثر.

قالت: عرفت أنك شاعر، لكن عجباً لم أقرأ لك شيئاً...

قال: لست شاعراً محترفاً، منذ عشر سنوات طبعت ديواناً واحداً ولم...

قاطعته: آه على فكرة، ما اسم ديوانك، قد يصدف أن قرأته.

قال: وهل تقرئين كل الكتب في مكتبك.

قالت: لا، هناك كتب لا تعنيني، إنما كتب الأدب والفلسفة أقرؤها كلها.

سألها: هل تجيبني بصدق لو سألتك سؤالاً...

ضحكت قائلة: ولماذا لا أجيب بصدق؟

قال: قد تعتبرين سؤالي مزعجاً، أو لست مضطرة للإجابة عليه.

www.ibtesama.com

سألت بفضول: اسأل ماذا إذاً؟

قال: ألا تكتبين الشعر؟

خفق قلبها، كيف حزر أنها تكتب الشعر، ألأنه قرأ خربشاتها على الورقة، ولكن ما كتبته مجرد خربشة وليس شعراً... لم تجب لأنها لم تعرف بماذا تجيبه، كانت كتابة الشعر سراً بالنسبة لها، لم تطلع عليه أحداً حتى أختها أقرب الناس إليها، أية فراسة يملك هذا الرجل، ليحزر أنها تكتب شعراً...

سألته: لماذا سألتني هذا السؤال؟

قال: هل يعقل أن تجيبي على تساؤلي بسؤال.

قالت: لا، لكني أرغب أن أعرف، ما دافعك لهذا السؤال.

قال: أوه هكذا، أنا متأكد أنك تكتبين شعراً حلواً ووجدانياً.

قالت: يا إلهي، ما دمت متأكداً، لماذا سألتني؟

قال: لا، لست متأكداً مئة بالمئة، بل تسعة وتسعين بالمئة.

ابتسمت قائلة: وتترك مهمة إعطائك اليقين لي.

قال: بالضبط.

قالت: لا أعرف إن كان ما أخربشه يعتبر شعراً.

قال: ولماذا تقولين عنه خربشة.

قالت: لأنه كذلك كما أعتقد.

سأل: ألم يقرأ أحد ما تكتبينه؟

قالت: لا، أبداً.

سألها: لماذا؟

قالت: هذا أمر يخصني.

كررت سؤالها: لم تقل لي ماذا تعمل؟

www.ibtesama.com

قال: رئيس تحرير مجلة نقابية.

شهقت وكأنها فوجئت: أحقاً؟

قال: أجل، لقد سرقتني الصحافة من الشعر، يبدو أن الاثنين لا يجتمعان.

قالت: لماذا، ألا يمكن أن تكون صحفياً وشاعراً في آن.

قال: في حالتي، صعب، الشعر بالنسبة لي حالة انعتاق وتوحد مع الذات، والصحافة تجعلني لاهثاً وراء الخبر.. أصير في حالة نفسية متناقضة تماماً مع مزاج الشاعر.

سألت: لكنك في أعماقك شاعر، أليس كذلك؟

قال: بالضبط، لي صديق عزيز سكنت معه سنتين في باريس عندما كنت أدرس الصحافة، كان يقول لي دوماً إن كل ما أفعله بعد شعراً، حتى طريقتي في الطهو.

سألته: أتجيد الطهو.

قال: جداً، لقد بقيت عازباً لفترة طويلة - أطرق ممتعضاً - ثم نكست وتزوجت.

ضحكت من تعبيره قائلة: نكست، هل الزواج نكسة؟

قال: بل أكثر، أنا رجل حر، لا أطيق الارتباط، أعتبر الزواج مقبرة حقيقية، لكن للأسف وقعت أسيره.

سألته: ولماذا تزوجت؟

قال: باختصار بسبب نزاهتي، لقد رافقتي امرأة لسنوات طويلة، ورغم أنني كنت أقول لها مراراً أنني لن أتزوجها، ولن أتزوج يوماً ما، وكانت تتظاهر أنها موافقة، وغير منزعجة. لكنها ما إن بلغت الثامنة والثلاثين حتى ابتدأت تضعف وتتهمني أنها أضاعت شبابها

www.ibtesama.com

معي، أشعرتني بالذنب، وأنني سأكون نذلاً لو لم أتزوجها، وهكذا تم الزواج...

قالت: لكن أما كنت تحبها طوال هذه السنوات.

قال: لا، ليس تماماً، كانت رفيقة، صديقة، لقد عشت سنوات شبابي أتنقل من بلد إلى بلد، وعملت في صحف كثيرة، وعشت في باريس، ولندن وروما، وعمان، وأبو ظبي، كنت رجلاً حراً، لا يربطني أحد، وكانت لقاءاتي معها قصيرة ومتباعدة، لكنها استطاعت أن توقعني في فخ الزواج...

سألته: هل أنت نادم كثيراً؟ أليس للزواج حسنات برأيك؟

أسرع يجيب: إطلاقاً، أية حسنات هذه، لولا الطفلان لكنت طلقتها منذ زمن بعيد، ربما بعد شهر من زواجنا.

غاص قلبها وهو يحكي عن أطفاله، سألته عنهما، قال: إنه رزق بطفلين، الكبير عمره عشر سنوات، والصغير ثماني سنوات، وإنه يحبهما حباً يجعله يحتمل أمهما لأجل أن يعيشا حياة أسرية مستقرة.

كانا قد انتهيا من رشف القهوة، نظر في ساعته قائلاً: متى تغلقين المكتبة. قالت: تمام الواحدة ظهراً... نظر في ساعته قائلاً.

قال: أمامك ساعة أخرى، حسناً سأتركك الآن، وأعود تمام الواحدة.

قالت: أوكي، سأنتظرك.

كانت حدة الأمطار قد خفّت وتحولت إلى رذاذ خفيف، تأملته ينجه إلى سيارته يتقدمه دخان غليونه، عادت تتساءل كيف لبّت دعوته بهذه السهولة الأقرب للامبالاة، لكنها هزّت كتفيها لا مبالية

www.ibtesama.com

حقاً، فلبكن، سيتسامران معاً في مطعم جميل، أليس أفضل من بقائها وحيدة في بيتها؟ تتغدى أغلب الأحيان بضع لقمات تزدردها وهي واقفة في المطبخ..

لكن لتعترف أنه يملك قوة أو جاذبية أسرتاها، لكن لماذا عليها أن تفتش عن مبررات قبولها للدعوة؟ ألم تتوصل لقناعة متينة أنها ستعيش من الآن فصاعداً عمق الحياة، عمق اللحظة، ألم تَعِدْ نفسها أن سنوات شبابها التي ضاعت بغباء وهي ضحية القلق والتوتر والبحث عن البويضة الملقحة، ستحاول أن تعوضها، بكل الفرص المتاحة لها، أو التي يمكنها خلقها... أشعلت سيجارة وهي تتساءل: ترى هل هناك فرص كافية لأعوض السنوات التي حرقت فيها أعصابي؟ وأنا على بعد خطوات من الأربعين؟

فتحت حقيبة يدها وأخرجت علبة الظل الأزرق الرمادي الذي تفضله على جميع الألوان، وقامت عن كرسي وحدتها، لتقف أمام المرآة ترسم حدود عينيها بدقة تعلم الكحل الأسود، ثم تظلل أجفانها باللون الأزرق الرمادي، وضعت قليلاً من أحمر الشفاه وضغطت شفتيها على منديل ورقي كي تخفف حدة اللون الأميل للقرمزي، ابتسمت برضا وهي تعترف أنها لا تزال جميلة وشابة، وأن وجهها يحارب الزمن وينتصر عليه، قدرت أنه يكبرها بعشر سنوات على الأقل، أعطاها هذا الإحساس ثقة زائدة بنفسها، لكنها تساءلت بعد برهة ما معنى هذه الثقة، وهو متزوج وأب، وهي امرأة وحيدة ومطلقة ولا ترغب بالزواج إطلاقاً، ترى ما تفسير هذه الثقة، لكنها تأففت من تلاحق الأسئلة في ذهنها، ورددت باستهتار، أوه هكذا، أحسُّ بالثقة، ليس من الضروري أن أعرف لماذا؟ كانت

www.ibtesama.com

تبحث عن قارورة عطرها الأوبيوم، وأخيراً وجدتها في قاع حقيبة يدها الكبيرة، أغمضت عينيها متشبثة بالرائحة المطرة، كانت سعيدة أنها سترافق رجلاً يتدفق حيوية وجاذبية لساعات كانت تلمس افتتانها به، وصدقت دون أية بلدرة شك أنه أجّل سفره لأجلها، تنهدت مخاطبة نفسها: كم هو مهم أن تكون موضع اهتمام وإعجاب، ما أتعس الإنسان الذي لا يعجب به أحد، ولا يهتم به... فكرت أن رجلاً مثله لا يليق به إطلاقاً أن يكون أسير مؤسسة الزواج المؤسسة المثالية للقضاء على المواهب...

أنى أبكر من موعده، كانت الساعة الواحدة إلا ثلثاً، دخل يحمل جرائد كثيرة، لكن أخرج من بطن الجرائد باقة ورد أحمر نضرة ورائعة، قدمها لها وهو يخصّها بنظرة دافئة. جعلتها تشعر بصقيع وحدتها وكم أنها محرومة من نظرة حنان، تقبلت الباقة بسرور واضح، وانتبهت إلى قصاصة صغيرة ملصقة على الورق اللماع أسفل الباقة، قرأت كلماته الرقيقة: إلى ملكتي الحزينة هيام، أشكرك على تاريخ 6/ 2.

سألته بدلال: أتشكرني على تاريخ سهرة مملة دفعتك للهروب؟

قال متخابثاً: بل أنت تعرفين جيداً لماذا أشكرك.

ضحكت، قالت له وهي تلبس معطفها وتتأهب لإغلاق المكتبة: أتعرف منذ زمن طويل، طويل جداً لم أضحك من قلبي، أنت تضحكني حقاً، يجب أن أشكرك.

قال: وهل هناك شكر أجمل من قبولك دعوتي للغداء...

طلب إليها أن تختار المطعم، اقترحت أن يتجها إلى مطعم بعيد خارج المدينة، يطل على مناظر ساحرة، استراحة السيدة، هذا

www.ibtesama.com

اسمه، كان المطر قد توقف، لكن السماء الملبدة بغيوم رمادية داكنة كانت تنذر الناس أنها ستعاود إغراقهم بالمطر، لفت انتباهها سيارته الغارقة في الفوضى، كتب وأشرطة كاسيت، وعلب دخان لغليونه، وفناجات، وأقلام... سألته: ما هذه الفوضى، أهكذا تكون سيارة الشعراء؟

قال: معك حق، لكني لا أعرف كيف أكون مرتباً، يبدو أنني أكره الترتيب.

قالت: على كلٍّ، فوضى أشياؤك ليست مزعجة، إنها تدل بوضوح على مزاج فنان.

قال: أشكرك.

سألته: ما سبب وجودك في اللاذقية؟

قال: لقد جئتُ للتعزية، يا إلهي كم يجب أن أترحم على روح قريبنا، لقد التقيت نورس، زوج صديقتك في بيت المتوفى، تذكرين، كنا أصدقاء، خدمنا الجندية معاً، وأصر على دعوتي إلى العشاء، ما كنت أنوي تلبية الدعوة إطلاقاً كنت أرغب بالسفر إلى دمشق، لكن الطقس الرديء جعلني أؤجل سفري إلى اليوم التالي، ووجدتني مضطراً إلى تلبية دعوته كي أقتل الوقت، لم أكن أعرف أن القدر قد رتّب كل شيء لألتقيك...

قالت: أنا أيضاً لم أكن راغبة في الحضور، لكن صديقتي ألحت كثيراً، حتى لبيت الدعوة...

سألها: ولماذا لم تكوني راغبة بالحضور؟

أسرعت تجيب: أوه، لا أطيق هذه الأجواء.

قال: لكنك حضرت.

www.ibtesama.com

قالت: أجل، أحياناً تتصرف عكس قناعاتك، ماذا أفعل، اللاذقية مدينة صغيرة ومضجرة.

قال: أليس عندك أصدقاء؟

قالت: صديقة أو صديقتان، لا أكثر، وعائلة أختي، هذا كل عالمي.

قال: أما من رجل في حياتك؟

امتعضت من سؤاله ردّت بسخرية مبطنة: هل يهمك هذا الموضوع؟

فاجأها بردّه: جداً، يهمني جداً.

سألته: ولماذا؟

- امرأة مثلك دافئة ورقيقة، جريمة حقاً أن تكون وحيدة.

تنهدت، لم تجب، لكنها أحست أن من واجبها أن تعلّق، قالت: كنت متزوجة، وانفصلنا...

قال: أحسدك، لقد نجوت من قبر الزواج.

أغضبت وكأنها تلقي بتصريح خطير: ولم نرزق بأطفال.

قال: من حسن حظك، هكذا تتحررين منه تماماً.

أخذت تبحث في فوضى الأشرطة عن شريط كاسيت لطيف وهادئ.

قال: أتسمحين لي أن أختار الشريط.

قالت: ولم لا...

قال: حسناً، هل سمعت شهرزاد؟

قالت: لا، لم أسمعها...

ضغط الشريط في المسجلة وانطلقت موسيقى ساحرة، قالت له:

www.ibtesama.com

رائعة هذه الموسيقى.

قال: أجل، سأهديك الكاسيت بعد أن نسمعه معاً.

قالت: وأنت، ألن تنتقده.

قال: سأشتري واحداً آخر...

تنشقت بعمق رائحة الطبيعة المغسولة بالمطر، كانا قد خرجا خارج جدار الإسمنت.

وحدهما كانا فارين من كآبة مدينة صغيرة، غير آبهين لسيول الأمطار، كانت أشجار الليمون على جانبي الطريق مغسولة وملتمعة، وقد التمعت أوراقها المبتلة تحت أشعة الشمس الشاحبة.

تنهدت قائلة: ما أجمل الطبيعة.

قال: معك حق، أحلم أن أفر ذات يوم من المدينة لأعيش في قرية صغيرة...

قالت: وأنا أتمنى أن أهرب إلى الريف كل يوم عطلة.

سألها: ألا يمكنك الفرار كل يوم جمعة إلى مصيف قريب.

قالت: المشكلة أنني أفتقد شلّة أصدقاء، تخطط وتنفذ...

سألها: وصديقتك...

ضحكت قائلة: للأسف لا أتفق معهما كثيراً في العمق.

سألها: ولماذا، كيف تقولين إنهما صديقتان إذاً؟!

- أوه الخلاف لا يعني ألا تنشأ بيننا صداقة، بل متينة أحياناً.

- وما الخلاف.

تفكرت قائلة باهتمام: كلتاهما محور حياتهما الرجل، الأولى مطلقة، تبحث بإلحاح عن رجل يعوضها لمثلها الأول، والثانية عانس، تنتظر يوماً بعد يوم الرجل المناسب.

www.ibtesama.com

نظر إليها قائلاً: وأنت؟

قالت: أنا لم يعد يغريني الرجل...

استكر: الرجل أم الزوج.

قالت بلا مبالاة: وما الفرق؟

- أوه فرق فظيع، أظنك تودين القول ما عاد يغريني الزوج، وليس الرجل لأن الشوق الأبدي بين الرجل والمرأة لا يمكن أن يزول، إنه غريزة، إنه أصل استمرار الحياة، لقد قرأت منذ مدة أن الرجل والمرأة ليسا نصفين يكملان بعضهما، بل كانا في الأساس واحداً انشطر إلى نصفين، وبقي الحنين بين هذين النصفين.

ضحكت قائلة: جميل هذا الكلام.

تابع كلامه: امرأة مثلك من غير الطبيعي أن تلغي الرجل من حياتها.

قالت: قلت لك إنه ما عاد يثيرني، لا أحس بحزن وقلق وانزعاج كون حياتي خالية منه.

قال: والضجر الشديد الذي تشعرينه، والوحدة

قالت مدافعة عن نفسها: هذا لأنني أعيش في مدينة كبيرة بالعلاقات الاجتماعية والمسارح والسينما...

قاطعها: هيام، ضجرك الأساسي لا يعود لافتقاد الأصدقاء، بل هو تعبير عن حاجتك العميقة للحب...

تأففت: أوه ليكن، أنت مصر على هذا التفسير، ماذا أفعل؟

قال: أتساءلين، ابحثي حولك عن قلب يحب، عن رجل يقدرك ويعشقك.

- تقصد، أتزوج ثانية، لقد قررت ألا أعيد الكرة.

www.ibtesama.com

قال ممتعضاً: ومن يتحدث عن الزواج.

قالت: إنأ تقصد أن أعيش حباً غير مشروع.

أوقف السيارة ونظر إليها باستنكار، أمكنها أن تراقب وجهه من أقرب مسافة بينهما، غاصت في عسل عينيه، يا إلهي كم نظرته دافئة وحيوية، إنه فنان حقاً، رغبت أن تلمس لحيته الناعمة والقصيرة، وأن تداعب شعره، رغبت أن تعرفه باللمس، وبراحة يدها التي لم تلمس وجه رجل منذ قرون...

قال: أأنت تؤمنين بما قلته هيام؟ امرأة مثلك تقول: إن هناك حباً غير مشروع... الحب أعظم ما في الوجود، بل هو هدف الوجود، تقولين عنه غير مشروع.

قالت مقاطعة: لكن الناس حولك.

غضب قائلاً: الناس، أم طرش الغنم.

ضحكت: ماذا تعني بطرش الغنم...

- واضح ماذا أعني، إنهم قطيع، هل نبالي برأي القطيع.

قالت: للأسف، رأي القطيع كثيراً ما يوصلنا للألم، إذا لم أقل الانهيار...

أمسك يدها وهزها بقوة قائلاً: هيام، لست أنت من تقول هذا الكلام.

تركزت أحاسيسها في يدها الصغيرة المحصورة بين أصابعه الصماء القوية الدافئة، لم تحاول سحب يدها، كانت مفاجئة بسخونة راحته، وبالطريقة التي أمسكها بها، غمرها فجأة شعور طاغ بالحزن، نظرت في عينيه وسألته كأنها تخاطب نفسها:

- ومن قال لك إنني بطلة لا أبالي برأي القطيع...

www.ibtesama.com

- أفلتت يدها، رنّت بحنان على خدها، قال: من قال لك؟ وهل أحتاج لأحد ليقول لي إن هيام امرأة استثنائية، رائعة دافئة، وتكتب الشعر أيضاً...

- على فكرة، لم تقل لي كيف عرفت؟ مهلاً أظنك قرأت خربشاتي على الورقة في المكتبة.

ضحك قائلاً: أبداً، ليس هذا هو السبب.

سألت بإلحاح: هل قرأت خربشاتي هذا الصباح؟

قال لها: ليس مهماً، هل تسمحين أن تدكي غليوني بالدخان...

أعطاها غليونه، وتركها تستكشف طقوس دكه بالدخان.

قالت له: عملية مسلية حقاً، على فكرة إنه أخف ضرراً من السيجارة...

قال: أجل، معك حق، هل سمحت وأشعلته...

قالت بمرح: هيا، سنصير وظيفتي أن أشعل لك الغليون...

قال: لسبب وحيد أطلب منك إشعاله، سيصير طعم الدخان ألذ...

ضحكت قائلة: مجاملاتك ظريفة.

قال: في حياتي كلها لم أجامل مرة واحدة.

كان المطعم بطل وحيداً على هضبة مرتفعة.

قالت: ها هو مطعم استراحة السيدة، ضحكت، سيفاجأ صاحب المطعم، من يتوقع أن يخرج للغداء في هذا الطقس العاصف...

قاطعها: سوى شاعرين مجنونين...

قالت: بالضبط... سوى شاعرين مجنونين.

www.ibtesama.com

صالة المطعم باردة وفارغة، لم يجد أحداً، كانت ترتجف من البرد، وقد أغرقت رأسها بين كفيه.

سألته: ألا تشعر بالبرد وأنت لا تلبس سوى قميص، وسترة جلدية.

قال: مافا لو أخبرتك أنني كل صباح أستحم بالماء البارد...

- وفي الشتاء أيضاً؟

- في عزّ الشتاء.

- ألا تبرد

- إطلاقاً، على فكرة أنا سباح، أسبح كل يوم...

همّت أن تجيب واضح، لأنها من النظرة الأولى، لفت نظرها عضلات صدره المشدودة، والمتينة، وجلده الأسمر المغطى بأشعار ناعمة سوداء، وقد غزاها الشيب قليلاً، إلا أنها ابتسمت وهي تستعيد إعجابها بصدره الدافئ، كما أحبت أن تتخيله، وعجبت كيف يفك أزرار قميصه حتى منتصف بطنه تقريباً، فلتعترف لنفسها على الأقل أن صدره أعجبها، أشعرها بدفء واطمئنان تفتقدهما منذ زمن بعيد... فرحت أن مشاعرها يمكن أن تتحرك، ولم تمت كلياً كما توقعت.

كان يبحث عن صاحب المطعم، أو نادل أو أي شخص مسؤول، وأخيراً اكتشف سريراً ضيقاً خلف المكتب، ورجل متلثراً ببطانية وقد غطّ في نوم عميق.

عاد إليها قائلاً: صاحب المطعم نائم، هل أحضر لك الطعام سيدتي؟

قالت: لماذا لم توقظه؟

www.ibtesama.com

- أردت أن أستأذنك أولاً...

قالت: لننتظر قليلاً علّه يستيقظ وحده.

كانت صالة المطعم بشكل مربع كبير، واجهاته الأربع من الزجاج، وبدت أشجار الزيتون والليمون متماوجة وملتمعة تحت الريح والمطر، والسماء الرمادية بغيومها الكثيفة بدت ثقيلة كأنها ستهبط فوق الأشجار، كانا متجاورين في وقوفهما وراء النافذة العريضة، وبينهما مسافة تتضاءل، سمتها مسافة الحلم، أحست كيف تشع الجاذبية والكهرباء في الهواء الفاصل بينهما، تمنت لو تتكئ على صدره وتنفجر أو تبكي، نفخ على الزجاج طبقة من بخار الماء، وكتب بإصبعه هيام الرائعة، ضحكت وهي تتذكر كم كانت تتسلى وهي صغيرة، بنفخ بخار الماء على الزجاج...

قالت: تصرفاتك طفولية...

قال: هذا مديح لي بالتأكيد.

قالت: أجل، سعيد من يبقى بأعماقه طفلاً.

قال: أنت طفلة رائعة، ألا تعرفين ذلك؟

قالت: لا، ربما كنت فيما مضى، لكن... سكتت، لم تشأ أن تخوض في مواضيع تؤلمها.

سأل: لكن لماذا؟

قالت: سنوات الألم الطويلة أنستني الطفلة السعيدة في أعماقي.

قال: لا أظن، إنها يمكن أن تستيقظ في أي لحظة.

سألت متشككة: أتعتقد ذلك؟

قال: بل أنا متأكد.

ضحكت قائلة: أنت غريب، تحكي عني كأنك تعرفني منذ

www.ibtesama.com

طفولتي... تنبها لصاحب المطعم يمشي باتجاههما، يطرد النوم من عينيه بفركهما بشدة يده.

قال: أهلاً.. أهلاً.. اعذراني كنت نائماً.

قال: معك حق، بالتأكيد لم نتوقع أن يقصدك أحد في هذا الطقس.

قال: فعلاً، بل كنت سأغلق المطعم وأرجع إلى بيتي...

جلسا متقابلين، أحست أن صفحة وجهها تفحص بدقة بنظراته، ضحكا فجأة معاً، لكل منهما سبب في الضحك.

سألها: لماذا تضحكين؟

قالت: أحسك تفحصني بدقة، تدرس وجهي، تحفظ ملامحي، هل تنوي أن تتذكرني جيداً حين تسافر إلى دمشق.

قال: أنا سعيد بك لهذا أتأملك، أما ملامح وجهك فقد حفظتها جيداً في سهرة البارحة، أتعتقدين هل كنت لأبقى طويلاً لو لم أكن أتأملك في المرآة.

ابتسمت سألته: وأنت لماذا ضحكت.

قال: كنت أفكر أنني قادمٌ أصلاً إلى جنازة، وكنت متردداً هل أسافر أم لا، هل خطر لي أن أتعرف بك بسبب جنازة.

قالت: الحياة كلها صدف.

قال: معك حق، منذ فترة قرأت عن إحصائيات حول المتزوجين، أغلبهم تعرفوا ببعضهم عن طريق الصدفة.

تنبها لصاحب المطعم يسألهما، ماذا يطلبان، طلب زجاجة نبيذ وكل أنواع المقبلات.

علّقت قائلة: كل أنواع المقبلات؟ ماذا لو كانت تزيد على

www.ibtesama.com

العشرين.

قال: لكن...

قالت: على فكرة أنا أحب منظر الطعام، أكثر مما أرغب بأكله.

قال: للملك تحافظين على جسد رشيق.

قالت: أجل، لشد ما أكره السمنة.

أشعل غليونه وقدمه لها، أخذت تدخن، وتتنشق الرائحة الزكية للدخان، أعادت له الغليون قائلة: إنه خاص بالرجال.

قال: لكن منظرك ظريف جداً وأنت تدخنين الغليون.

قالت: شكراً، لكن دخانه كثيف، ترى ألا يزعج أطفالك منه.

ردّ ساخراً: وهل أعيش معهم كفاية كي يزعجهم دخاني.

سألته: ألا تراهم، كما يفترض بأب.

قال: لا، أنا مشغول دوماً، لكن أحاول دوماً أن أكون صديقهم، على فكرة أنا لست مقصراً معهم أبداً، دوماً أصحبهم في رحلات، أعوضهم فيها عن تغيبي الطويل عن البيت.

- وزوجتك ألا يزعجها تغيبك الطويل.

- أوه، لا أسمح لها أن تتدخل بغيابي، بحياتي الخاصة، بعملي، وبأصدقائي، أما قلت لك إنني رجل حر.

- لكن ألا تعترض، ألا تتزعج؟

- لقد فهمت مع الأيام، أنه من مصلحتها أن تتركني وشأني.

- يا للزواج الغريب؟

- دعينا الآن من سيرة الزواج، تنهد بعمق، ولولا الطفلان لما بقيت معها أبداً.

- آسفة لم أقصد إزعاجك بهذا الحديث...

www.ibtesama.com

- لا بأس حبيبي... يمكنك أن تقولي كل ما تشائين.

استرعت كلمة حبيبي انتباهها، وقلت لو تسأله لماذا يستعمل كلمة لا يعنيها، لكن مجرد سؤالها يعني أنها تقيم وزناً لما قاله، لكن شعوراً عابراً جعلها تشعر أنه صادق، وأنها فعلاً حبيبته، وأنه لم يستعمل هذه الكلمة عرضاً واعتباطاً...

صبّ النبيذ في قدحين، قدم لها كأسها، شربا نخب لقائهما، سرى دفء في أوصالهما.

قالت متشية: ما أجمل لون النبيذ...

قال: أحمره لأنه يلامس شفتيك...

ضحكت قائلة: الشعراء دائماً ماهرون في الغزل.

قال: أرغب أن أسمع بعض أشعارك، وإن أعجبتني سأنشرها لك في المجلة.

ضحكت قائلة: أنت تغريني بالنشر...

قال: لم لا، أنا متأكد أن امرأة مثلك تكتب شعراً جميلاً.

- يا إلهي، أنت تملك فراسة عجيبة، كيف عرفت أنني أكتب الشعر أحياناً؟

- لن أقول لك قبل أن أسمع بعضاً منه...

قالت: ليس الآن.

قال: لماذا؟

قالت وقد ساعدها النبيذ أن تكون أكثر انشراحاً ومرحاً: بعد أن أشرب كأسي الثانية.

قال: اتفقنا، ورفع كأسه، وشرب نخبها...

سألته: لماذا لا تأكل؟!

www.ibtesama.com

قال: حين أكون سعيداً، لا أقدر أن أبتلع الطعام.

قالت: لكني جائعة.

قال: ماذا تنتظرين، تفضلي، المقبلات أمامك.

قالت: لكني أخجل أن آكل وحدي...

قال: أرجوك حبيبتي، لا أحب أن آكل مجاملة.

نظرت إليه ببرود قائلة: لماذا تستعمل كلمات ليست في محلها...

سألها بود: هل أغضبتك كلمة حبيبتي؟!

قالت: لست غاضبة، ولكن لا معنى لهذه الكلمة.

قال: وماذا لو كنت صادقاً، واعتبرك حبيبتي...

قالت: كلام غير منطقي، أنت لم تعرفني جيداً بعد...

قال: آسف، أعتذر إن كنت قد أزعجتك بهذه الكلمة، لكني ما قلت سوى حقيقة شعوري.

أحست أنها قست عليه، وأنه لا يتأهل التقريع كطفل صغير، تأملته ينفث دخان غليونه وينظر إلى البعيد، رقت وندمت على لهجتها القاسية.

قالت بعلوية: هل أزعجتك آسفة لم أقصد أن أكون قاسية.

ابتسم قائلاً: أوه، إطلاقاً، ولماذا تزعجيني.

تمنت لو يردف يا حبيبتي، لكنه صمت، تبادلا نظرة طويلة دائمة أحرجها منسوب الحرارة المرتفع فيها، دارت ارتباكها بأن رفعت كأسها لتشرب نخبه...

سألها: ألا ترغبين بتذوق أوراق النعناع؟

ضحكت قائلة: لا، بل أرغب أن آكلها مع الملح...

www.ibtesama.com

أخذ يتأملها كيف ترش الملح فوق النعناع وتأكلها، قطع لها البندورة شرائح، وقدمها لها، شكرته، رحبت أن يأكل معها، قال حسناً، بعد قيل، سأجاملك وآكل... صب لها الكأس الثانية من النبيذ، وقال لها: أتعرفين، في اللحظة التي تعتقدين أنك وصلت لليأس المطلق، فإن الحياة تهب لنجدتك، وتخلق أمامك الفرص.

سألته: لا أفهم تماماً ماذا قلت...

قال: فيما بعد ستفهمين، في صحتك.

- في صحتك.

سألها: ألن تسمعيني بعضاً من شعرك، ها قد بدأت تشربين كأسك الثانية؟

قالت: يبدو أنك مصر.

قال: بي شغف أن أسمع شعرك.

قالت: ولماذا لا تسمعني أنت أشعارك.

قال: سأرسلها لك كلها...

- حقاً، أهذا وعد؟

- طبعاً، لكن هل يهمك أن تقرئي لي.

- أجل.

- هذا يسرني، هيا أنا مصغ إليك...

رشفت رشفتين من كأسها، أشعلت سيجارة، وسرحت بنظرها في الغيوم الرمادية الثقيلة التي تطبق على صدر أشجار الزيتون، ابتسمت وقالت: حسناً، سأبدأ.

أنت تقول لي أشياء عن الحياة والموت

وأنا لا أرى في ذلك سوى وجهين.

www.ibtesama.com

لنفس الحقيقة

أنت تقول لي أيضاً أشياء عن الحب.

وأنا أصمت

لأنني وأنا أنظر إليك التقي بالآخرين

قال: جميل، أكملي.

سألته: هل تجاملني.

قال بجدية: قلت لك إنني لا أجامل أبداً، ألم يخطر لك أن تنشري شعرك أبداً.

- أحياناً تراودني الفكرة، لكني أظن أنه لا يستحق النشر.

- أنت مخطئة.

ضحكت: أنت لم تسمع سوى عينة صغيرة.

- أنا واثق أن روحك جميلة، وتشع شعراً جميلاً...

- أشكرك.

كانت تتوقع أن يسألها أسئلة شخصية، لكنه لم يفعل، تساءلت عجباً كيف لا يملك فضولاً ليعرف تفاصيل حياتي، ولماذا تشعر أنه يفهمها جيداً دون أن يعرف شيئاً عنها. وتنبهت لفكرة هامة: قد يعرف الآخر تفاصيل حياتك لكن لا يفهمك، والعكس صحيح، لكن أليس لديه فضول ليعرف أشياء وحوادث في حياتي.

سألها: هل يمكنني أن أرافقك في رحلاتك الخيالية؟

ابتسمت: لم لا، كنت أفكر أنك لم تسألني أي سؤال شخصي، لم تسأل: هل أنا متزوجة، أم مطلقة، أم عازبة...

قاطعها: كل هذا لا يهمني.

سألته باستغراب: لا يهمك! ما الذي يهمك إذاً.

www.ibtesama.com

تأملها بحنان، وقال: يهمني أن يعود البريق لعينيك الجميلتين...

ضحكت قائلة: وهل عيناي مطفأتان.

قال: عيناك نجمتان، خبا نورهما ويجب...

قاطعته بحماس: أوه أرجوك لا تتخيل أكثر لمعان عيني، ولا انطفاءهما، نظرتي هي نظرتي وأنت تتوهم أنها مطفأة.

قال: أبداً، حين تلوت لي بعضاً من شعرك، وأنت ترشفين النبذ، أمكنني أن الاحظ لمعاناً رائعاً في عينيك...

تنهدت وسألته: ولماذا يتوجب على عيني أن تلمعا؟

قال: سؤال جيد، معك حق، يجب أن يوجد سبب يستأهل لمعان عينيك.

سارعت ترد: لا أظن أن هناك سبباً يستأهل ان اتألق لأجله.

قال: هل أنت متأكدة؟

قالت: أجل.

سألها: والحب، ألا تعتقدين أنه يجعل العيون تلمع.

ضحكت: أتحكي عن الحب! لقد نسيته.

قال: إذا غاب الحب، هذا لا يعني أنه غير موجود، أو يمكن أن يوجد بأي لحظة...

تنهدت قائلة: ما عادت تغريني هذه الكلمات، حب، لمعان العيون، خفقات القلب، أتعرف أحس بالتعب حين أفكر بها، لماذا القلق والانتظار والعذاب والشجار... إلخ، أحس العشاق اشخاصاً بائسين لا أحسدهم على مشاعرهم...

ابتسم قائلاً: وهل الأشخاص اللذين يعانون من الوحدة أفضل

www.ibtesama.com

حالاً.

- لا أعتقد، إنما أنا أعبر عن وجهة نظري وحدي، قلت لك لم يعد الحب يغريني.

- أعتقد أن السبب كونك لم تجدي الشخص المناسب.

قالت: لا يهمني البحث عن الأسباب.

سألها: إلى هذا الحد أنت فاقدة الشهية للحب.

ردّت مازحة: أحس أنني فاقدة الشهية للحياة.

قال: يحزنني أن تتحدثي بهذه الطريقة، لكنّي أراك امرأة رقيقة ناعمة، ذكية وجميلة.

فاطمة: هيا، استمر في إطرائي، هكذا ترفع معنوياتي...

قال بلهجة حازمة: قلت لك إنني لا أحب الإطراء...

اقترب منهما صاحب المطعم، سألهما إن كانا يرغبان بشيء، طلبت إليه أن يوقد النار في المدفأة لأنها تحس بالبرد، قال لها: حاضر يا مدام، ونظر إلى صديقها قائلاً: زوجتك لا تتحمل البرد...

ضحك ساخراً وقال: عجباً كم هو غبي، هل شكلنا زوجان، هل هناك زوج يدعو زوجته للغناء في طقس عاصف.

قالت: هكذا يفكر الناس هنا، لم يعتادوا على صداقة المرأة والرجل، المرأة التي ترافق الرجل إما زوجته أو عشيقته.

قال: لم لا تكون حبيبته...

ضحكت قائلة: أنت مغرم بأحاديث الحب.

قال: ليس دائماً...

علت ألسنة اللهب في المدفأة، قام يحمص لها الخبز فوق

www.ibtesama.com

المدفأة، ويقدمه لها ساخناً مقمراً، شكرته وأخذت تتسلى بقرض الخبز.

حدثها عن سنوات غربته، وعمله كصحفي في البداية، ثم كسكرتير تحرير، ثم رئيس تحرير.

علّقت على كلامه بأن السفر أكبر إغناء لشخصية الإنسان، وحكت له بدورها عن سنوات دراستها في باريس. سألها لماذا لا تدرس في الجامعة، وأخبرته أنها درست ثلاث سنوات ثم قدمت استقالتها لتتفرغ لمكتبتها، ولأن مستوى الطلاب أحزنها لكثرة ما هو متدن، وأنها فضلت أن تعمل في حقل الترجمة وأنها تطمح أن تترجم كتباً فرنسية هامة في النقد الأدبي إلى العربية...

أخذت السماء ترعد، وتكفهر، نظرت في ساعتها وشهقت قائلة: سرقنا الوقت، تخيل، صار لنا ثلاث ساعات نتكلم ونتكلم، أوه علينا أن نغادر، كان يجب أن أكون في المكتبة منذ ساعة.

شكر صاحب المطعم، ووعده أن يزوراه دوماً، نفحه بخشيشاً محترماً، وما كادا يصلان السيارة، حتى ابتدأ المطر بالانهمار غزيراً، كانت قد خزنت حرارة من النبيذ ونار المدفأة، امتدت يدها لتضغط شريط شهرزاد في المسجلة، فلمست عرضاً يده الباحثة عن علبة دخانه، اشتبكت الأيدي بتلقائية وعفوية رائعتين، تركت يدها مستقرة في يده، عكس توقعاتها بأن تسحبها في الحال، كانت راحته الدافئة تحتضن يدها، وتضغط عليها بين لحظة وأخرى كانا يكتشفان ملمس جلدهما، نسيجه، ودفأه، وملمسه، ومن خلال الراحتين كانا يتعرفان على نبض قلبيهما، وتسارعت أنفاسهما، كانت موسيقى شهرزاد ساحرة، وصوت المطر يشكل كورساً بديعاً لها، لم ينطقا

www.ibtesama.com

بكلمة طوال طريق العودة، سوى جملة واحدة قالها لها: لجلدك لغة رائعة...

وحين أوقف سيارته عند باب مكتبتها، كان يأمل أن تدعوه لشرب القهوة ولم يخب أمله، أسرعا إلى الداخل، خلعت معطفها، وأشعلت المدفأة الكهربائية، واستأذنته لحظة لتعد القهوة، تأمل قامتها النحيلة المتناسقة وهي تسير حتى أبعد زاوية في المكتبة ثم تنعطف إلى اليمين وتغيب... كان يعرف أنه سيشرب قهوته، وسيسافر، وقد لا يلتقيان في القريب، وقد لا يلتقيان أبداً... ولكن ما الذي يشده هكذا ليلحقها، وجد نفسه ينقاد ورامها، ويقف إلى جوارها وهي تنتظر الماء ليغلي.

همس بأنفها: هيام، حبيتي...

أغمضت عينيها تسأله: لماذا لحقتي...

وغابا في قبلة أشبه بالغياب، أو التحليق، ناسيين أن الماء في الدورق كان يغلي ويغلي منذ دقائق...

لم يعلقا بكلمة، كان قد تحسس جسدها ودفء حضورها، ورحيقها الخاص، وكانت منذ زمن لا تعرف كيف تقدره، تحس بلوبان صقيع وحدتها، وتشعر بحلاوة الانصهار مع رجل دافئ يحبها، ويحرك أشجاناً وأشواقاً مكبوتة في داخلها.

رشفا القهوة، والابتسامة لا تفارق وجهيهما، قال لها: الآن عيناك تلتمعان...

ضحكت وهي تسأله: حقاً...

قال: أرجوك، انظري إلى وجهك في المرآة.

قالت: لا داعي، أحس أن عيناي تلتمعان.

www.ibtesama.com

تبادلا أرقام الهواتف، واتفقا أن يتراسلا، وحين تركها لم تستطع أن تمنع غصة قاسية وغشاوة دمع حارقة من التكون في عينيها، وجسدها الذي أخذ يتمطى مستيقظاً بعد سبات طويل.

بعد ساعتين وعت غيابه، كانت تشعر بقسوة هذا الغياب، افتقدته بقوة وهي تشعر بجسدها لا يزال محتوي بين ذراعيه المتينتين، وشفتيها تلتهبين بقبلاته، مشاعر بعيدة عادت من غربتها، تستيقظ الآن في ذلك اليوم العاصف الاستثنائي من شهر شباط، وتذكرت جملة قالها في المطعم، بأن الحياة تفاجئك دوماً بأمل جديد، وأنت في قاع يأسك، لهمت إلى ما يرمي، أسعدها أنه يقول لها حبيبتي... رجل رائع، رجل يُحب بل يُعشق، أتراها ابتدأت تحبه، وكيف سمحت له بتقبيلها وسمحت ليدها أن تظل مشتبكة بيده طوال طريق العودة من استراحة السيدة، وهي التي اعتقدت أنها افتقدت شهيتها للحياة كما تظن، كيف حرك مشاعرك عميقة اعتقدت أنها ماتت منذ زمن، يا له من رجل استثنائي... كانت تحس بإنتهاك شديد، ولم تصدق أن يومها الذي ابتدأ برتابته العادية، وهي تخربش كلمات حزينة على الورقة أمامها، سينتهي تلك النهاية الرائعة، أوه عجيبة هي الحياة، كيف تخبئ للناس الفرص، إنها تتربص بهم دوماً، تفاجئهم وتضرب توقعاتهم، اتصلت بأختها تعتذر لها عن السهر، تذرعت بالبرد، وسوء الطقس، وبأنها تود أن تنام باكراً، وحين عادت إلى بيتها، نظرت إليه بحنان، لكأنها فارقته منذ أشهر، وأحست أن الأثاث يفتقدها، تمددت في سريرها، كانت متعبة من السعادة ومن كثافة اللحظات التي عاشتها طوال هذا النهار... وفيما هي غارقة باستعادة حلوية اللحظات الحميمة معه، رنّ الهاتف،

www.ibtesama.com

ورفعت السماعة لتسمع صوته دافئاً قريباً كأنه لا يزال قربها، خفق قلبها بقوة لكأنها عاشقة في الرابعة عشرة.

قالت: أنت، هل وصلت، الحمد لله على سلامتك.

قال: اشتقت لك كثيراً، يا إلهي كم افتقدتك.

سألته وهي تشرق بالسعادة: حقاً...

- بالتأكيد، يا إلهي، كم أحببتك، أنت امرأة رائعة...

قالت: أنت أيضاً رجل غير عادي، هذا ما كنت أفكر فيه الآن...

- ألم تفكري بشيء آخر...

ضحكت: مثل ماذا؟

- لا أعرف، قولي أنت أي شيء آخر...

- آه حسناً، لقد عاد اللمعان إلى عيني...

- أنت حبيبتي، حبيبتي المؤكدة...

- كم يسعدني أن أسمع صوتك...

- ستسمعينه دوماً، سأتصل بك كل يوم...

- كل يوم؟

- أجل، بل عدة مرات في اليوم، لقد عششت في روحي...

- ماذا لو اكتشفت أنك واهم أو متسرع...

قال ضاحكاً: واهم أو متسرع، وهل أنا شاب صغير، لا خبرة له، صدقيني أنا واثق تماماً أنك أنثاي...

تضرّج وجهها بالحمرة وهي تسمع تعبيره: أنت أنثاي...

سألته: ألست متعباً.

قال: أجل، وسأذهب للنوم، لكنني لن أغفو قبل أن أسمع

www.ibtesama.com

صوتك.

قالت: ها قد سمعته...

قال: لينك إلى جانبي الآن.

ودّت لو تقول بكل جوارحها: يا ليت أتمنى، لكن الخجل منعها، قالت له بإمكاني أن أخفر اليوم بسهولة دون أرق.

قال: وأنا أيضاً، هيام يجب أن نلتقي دائماً...

قالت: أظن ذلك، حسناً، سنتكلم فيما بعد، عليك أن تخلد إلى النوم الآن.

قال: حسناً، سأخاطبك غداً، تصبحين على خير حبيبتي.

قالت: تصبح على خير.

بدت لها كلمة حبيبتي بالطريقة التي يقولها لها، مشحونة بسحر خاص، تذكرت كم من السنوات مرّت ولم تسمع هذه الكلمة، حتى اعتقدت أنها خاصة بالشباب، في العشرين، وتذكرت سنوات البؤس الأخيرة التي عاشتها مع زوجها، وأحست بدهشة عارمة وهي تعي الآن ثقل هذه السنوات، وخلوها، ولو لمرة واحدة من كلمة حبيبتي.. وها قد مضى ثلاث سنوات على طلاقها منه، صحيح أنها تعرضت لكثير من محاولات التقرب، وطلبها العديد من الرجال للزواج، وكادت تتورط وتتزوج أحدهم، وهو أستاذ جامعي أرمل، يكبرها بعشرة أعوام، مثقف وثري، وقد زوّج أولاده الثلاثة، ورغم أن قلبها لم يخفق بالحب تجاهه، إلا أنها ارتاحت لفكرة الزواج منه، لن تكون عنده عقدة الأولاد، سيمكنها أن تقضي ما تبقى من حياتها مع رفيق كفء لها من النواحي الفكرية والثقافية والاجتماعية، هذا عن كونه جميلاً ويبدو أصغر من سنه، وتمت

www.ibtesama.com

الخطوبة، واتفقا على الزواج بعد شهر على الأكثر، كانت أختها تفوقها سعادة بكثير، قالت لها: ستعيشين ملكة مع زوج يقدرك، وأولاده يعبدون، وحين أجابتها: لكنني لا أحبه؟

رنت أختها باستنكار: هيام، امرأة على أعتاب الأربعين، وتبحث عن الحب؟

أخجلها هذا الجواب، أحست كأن الحب حكر على عمر معين، على الشباب تحديداً، لكنها لا تزال تملك جسد فتاة العشرين، لم يهرمه حمل ولا إرضاع، لا تزال تملك ثروة، هي بشرة وجه نقية مخملية نسي الزمن أن يترك بصماته فوقها، فلماذا التصنيفات وتوزيع المشاعر حسب الأعمار...

وأحبها أولاده، واحترموها، وقالت كبرى بناته: إنها لا تريد لوالدها زوجة أفضل منها، وأسعدها هذا التعبير، والمودة الكامنة فيه، كان كل شيء معداً ليتم على أحسن وجه، لولا أنه ذات مرة، قال لها: ما رأيك أن نربي ريما، أن نعيش معنا، تؤنس وحدتنا؟

وسألت: من ريما؟

قال: ريما، ابنة ابنتي الصغيرة؟

شهقت: الطفلة لم تتجاوز السنة؟

قال: أجل، أمها مشغولة جداً، كلذلك والدها، عدا عن طفلها الأكبر سناً من ريما، ويمكن.

قاطعته: أهي فكرتك أم فكرة ابنتك؟

قال: إنها فكرتي، وقد تكون فكرتها أيضاً، ما رأيك عزيزتي، طفلة صغيرة تؤنس وحدتنا و... ربما كان يود أن يقول: وتعوضك عن الطفل الذي كان يفترض أن تحملي به لكنه صمت... عصف

www.ibtesama.com

بها الغثيان وهي تصغي إليه، وودت في الحال لو ترمي خاتم الخطوبة في وجهه، لكنها كبحت انفعالها، وفي نفس الليلة كانت ترسل له خاتم الخطوبة والهدايا مع صهرها، ورغم محاولة أختها وصهرها امتصاص غضبها وإيجاد تبريرات للرجل، إلا أنها قاطعتها بحدة: رجل مثله يتحدث عن طفلة تؤنس وحدتنا قبل أن يتزوج؟ بالله عليكما من يفكر بحلول لوحدته، وهو لا يزال خاطباً؟ لقد أشعرني أن وظيفة جدّة تنتظرني بكل ما تحمله كلمة جدّة من وداعة أكرهها، وخضوع للشباب، وخدمتهم، وكل ما تعنيه من إقصاء عن كل متع الحياة، ثم من هذه الطفلة التي سأربيها؟ ما علاقتي بها؟ لو كنت سأمرض من كوني لم أنجب طفلاً، لكنت تبنيت ببساطة، ثم إنني مولعة، بابنتك بجنون، وأنت تعرفين ذلك، أحسها ابنتي، أوه لا يهم... أختي أرجوك، كفي عن إعطائي نصائحك بشأن الزواج، وحياتي الخاصة... اتركاني وشأني...

وبعد أقل من شهر تقدم لخطبتها رجل في الستين، ورفضته للحال لأنه يكبرها بعشرين عاماً، لكن أختها لم تستطع منع نفسها من التعليق هامسة: في بلادنا، أن يتقدم رجل في الستين لخطوبة امرأة في الأربعين، فهذا أمر مألوف جداً، وعادي. وضحكت ساخرة وقالت لأختها: بالنسبة لي، هذا أمر غير مألوف، وغير عادي، بل بصراحة إنه جريمة...

ليس لها صديقة أروع من مرام، أختها التي تصغرها بخمس سنوات، أختها الوحيدة الموجودة إلى جانبها والمُحبة، كانت تُلقبها بالمُحبة، أما البقية فبا لمرارة شعورها وهي تتذكرهم، هاجروا، غابوا، انسلخوا، ما عادوا يفكرون أن هناك وطناً وأهلاً، أخوها الكبير هاجر إلى كندا ملّ كان في العشرين، وتزوج أميركية واستقر

www.ibtesama.com

هناك، سنوات مرّت لم يزر الوطن بحجة خوفه من خدمة الجندية، ومات والدها ووالدتها وهو بعيد، إنها تستعيد بيأس كبير تلك الذكرى التي تبدو عادية، ولكنها تلخص لها كل تدهور العلاقة بينهما: يوم اتصل بها بعد شهرين من طلاقها ليؤاسيها، وحاول أن يكون مرحاً وأن يدخل التفاؤل إلى قلبها، لكنها كانت تلمس تصنعه والتعاله لمس اليد، وحين همّت أن تسأله عن أولاده، وأخبارهم، ومتى سيقرر اصطحابهم ليشاهدوا بلاد أبيهم، قاطعها: أوه عذراً أختي الحبيبة، انتهت مدة الكرت.

قَطَعْ، قطعْ، غاب، ظلت لحظات مذهولة، انتهى الكرت، ماذا يعني؟ علاقة أخوة معلقة على كرت، ولا رسائل أبداً، ثمة بطاقات معايدة تافهة وباردة، وتصل دوماً متأخرة أكثر من شهر... يا للأسف.

أختها الكبرى، غارقة في دنيا من المشاغل، تزوجت رجلاً أحبته حتى العبادة، وأنجبت منه أربعة أطفال، وكان المال يتدفق على الأسرة كالشلال، إلى أن كشفت اللعبة وتبين أن زوجها يعمل في تجارة الممنوعات، وهرب من القضاء ساحباً أسرته وراءه، وهكذا غابت هي الأخرى... وتضاءلت رسائلها ومكالماتها حتى كادت تنقطع...

أما آخر العنقود أخوها الأصغر، الذي ظلّ يبحث لسنوات عن زواج الصفقة حتى وفق أخيراً بمغتربة لبنانية تكبره بسنوات، لكنها وحيدة وثرية، ويملك والدها معامل للأخشاب في سان باولو، تزوجها وغاب في البرازيل، وما عادوا يعرفون عنه شيئاً، وإذا كان من عادة أخيها الأكبر وأختها أن يكتبا ويتصلا في أوقات متباعدة،

www.ibtesama.com

فإن هذا الصغير وجد أن لا لزوم لهذا التمثيل، غرق في دولارات الزوجة، رسالة واحدة وصلتها منه يوم أنجبت زوجته توأماً، وودّت لو ترد عليه: مبروك عليك الثروة، الآن صرت ثرياً حقيقياً...

مع الأيام صارت تسميهم الأموات، ورغم أنها خجلت من هذه التسمية في البداية، وأحست باللذنب، إلا أن تعاقب السنين، والفجوة الكبيرة المتعاظمة بينهما أشعرتها أن البعد - وبهذا الشكل من البرود والجفاء - لا يعني سوى الموت، وحدها مرام بقيت قلباً نابضاً بالحب، ورغم أنها تكبرها بخمسة أعوام، إلا أنها تشعر دائماً أن لهفة مرام تجاهها، أشبه بلهفة أم تجاه ابنها، وكلما تقدم رجل لخطوبتها، فإن مرام تصاب بحالة من التنبه كأنها أم، وأرادت مع الزمن أن تعود نفسها أن مرام وحدها أختها، لكنها فشلت، ظلّ ألم ممض يخز عميقاً في قلبها، كلما تذكرت البعيدين، أو الميتين...

وعادت تستعيد بذاكرتها الإيقاع اللذيذ والدافئ لكلمة حبيبتي كما يقولها، بل كما يخصها بها، هذه المرة تسهر وحيدة كالعادة مع كتبها، ومحطات التلفاز العديدة والأثاث الأليف، والستائر المخملية، مع كل شيء كالعادة، لكنها هذه المرة مختلفة، مبتسمة، يا إلهي ما أروع أن تسهر وحيداً وتكون مبتسماً، سعيداً، ومتشبثاً، ألا يجب أن تشكره على نعمة الابتسام، واستعادت بأحاسيسها دفء القبلات المتلاحقة والتي لها طعم النبيذ والدخان زكي الرائحة، وطعم الاكتشاف الأولي بين آدم وحواء، إنها، آه ماذا عساها تصف حالتها، إنها ببساطة سعيدة، السعادة هي أن تجلس وحيداً وتكون مبتسماً، كانت تحس أن ثمة شيئاً جديداً دخل حياتها، حرك المستنقع الراكد منذ سنوات وسنوات، ولكن هل هذا الجديد اقتحم حياتها أم هي التي اقتحمته؟ أتاها هذا السؤال، هل هذا السؤال

www.ibtesama.com

الدقيق من زاوية ما في البيت أو في نفسها، وردت لا مبالية: آه، وما الفرق؟ لكنها تعرف أن هناك فروقاً كبيرة بين الحالتين، فليكن، إنها لا تريد أن تبحث في الفروق، إنها سعيدة وكفى... ولا شيء يثمّر السعادة سوى التفكير...

توصلت تلك الليلة الاستثنائية وهي تجلس وحيدة وسعيدة، إلى أنها تؤمن بالأحاسيس أكثر من الأفكار، وأن عيش الأحاسيس يختلف كلياً عن عيش الأفكار... كانت قد أغفت على أمل أن تسمع صوتاً متلهفاً ليقول لها: أنت حبيبتي... جميل أن تغفو على هذا الحلم، على شبه وعد، آه، هذه هي الكلمة المناسبة - الوعد - إن كل إنسان يحتاج أن يعد نفسه بشيء جميل، دافئ، حتى لو اضطر للمبالغة، والتزيين، وربما الوهم.

• • •

لم تستيقظ على رنين الهاتف، ولم تسمع صوته كما توقعت، ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تظل بحالة ترقب وانتظار لمكالمته، شربت قهوتها الصباحية محاولة أن تبدل جهوداً للمحافظة على ابتسامة البارحة المشرقة، لكن ابتسامتها انطفأت فجأة بعد ساعتين من الجهود المفتعلة، وعادت تتوقع اتصاله بين لحظة وأخرى وهي في مكتبها، رفعت السماعة مراراً لتتأكد أنه لا يوجد أي عطل في الهاتف، كان الصباح مشمساً ودافئاً، ضحكت في سرها من شباط المزاجي، غاص قلبها بين ضلوعها وهي تحضر قهوتها في مكتبها، تمثلت بقوة عناقهما البارحة، وأمكنها أن تستعيد رائحة جلده وغليونه، والوخزات اللذيذة للحيته لعنقها ووجهها، كان بمصرها بشوق مختزن منذ سنوات، لكأنه وجد حبيبته المفقودة والتي فتش

www.ibtesama.com

منها حتى قارب اليأس، ترى لماذا لم يتصل؟! سؤال حاولت منعه ثم تأجيله، لكنه يطرح نفسه عليها بقوة، وفجأة علا رنين الهاتف، فقفزت بقلب يسبقها للرد، وأتاها صوت بشرى، صديقتها: أين أين كنت البارحة لقد اتصلت بك مراراً، ولم يرد أحد ابتسمت وقالت: هل يمكن أن تعترف لها أين كانت؟ ثمة أسرار في حياة كل منا، لا نقدر أن نبوح بها لأحد، ترى لماذا لا نبوح بأسرارنا لأعز أصدقائنا؟ ألا يعني هذا أننا لا نزال ضحية خوف اجتماعي يستعمر خلايا دماغنا؟ وماذا لو عرفت بشرى بلقائي مع الشاعر البارحة؟ ألست صديقتي منذ سنوات، وذات أفق واسع، بالإضافة إلى أنها تحكي لي كل شيء عن حياتها؟ فلماذا لا أصارحها بدوري؟ ولكن... أوه دوماً هناك لكن، لا، إنها تعتقد أن هناك حياة شخصية وخاصة لكل إنسان ليس مضطراً أن يبوح بها لأحد.

تحججت أنها كانت تشكو من صداع، وأنها اضطرت لفصل الهاتف كي لا يوقظها أحد.

قالت صديقتها: لو كان هناك رجل يحبنا ونحبه لما كان هناك صداع.

ضحكت: أما مللت من البحث عن الرجل الذي نحبه ويحبنا؟

كان في لهجتها سخرية واضحة، لكن بشرى قالت: هيام، هذه حاجة طبيعية، أن نُحِبَّ ونُحَبَّ.

- أجل، لكن هذه المدينة تفقدك الشهية للحياة، فكيف للحب؟

- معك حق، لكننا نحلم، والله كل يوم ألعن الساعة التي رجعت فيها من باريس، لو بقيت هناك، كنت أعيش مع صاحب على الأقل.

www.ibtesama.com

- صاحب على الأقل، جميل هذا التعبير...

- أوه بالتأكيد، أنا بحاجة لرجل.

قاطعتها ضاحكة: أنت بحاجة لرجل إسعافي...

- بالضبط، رجل يسعفني من الوحدة والفراغ، والشباب الذي يضيع هدراً...

- ترى كيف يضيع الشباب هدراً؟!

- هكذا كما نعيش أنا وأنت، منذ سنوات لم يلمسنا رجل...

ضحكت، لكم تحب صراحة بشرى، وعفويتها وطبيعتها... ضحكت من قلبها المثقل بالانتظار.

قالت: تخيلي لو أن أحداً يستمع إلينا الآن.

- أوه، كارثة...

- المهم، ما رأيك لو نتغدى معاً في هذا الطقس المشرق اليوم.

- هذا ما كنت أرغب فيه حقاً، من يقول إن البارحة لم تتوقف الأمطار لحظة، واليوم الشمس مشرقة وكأننا في نيسان.

- هذا نشاط، له مزاج العشاق.

- مزاج العشاق، أول مرة أسمع هذا التعبير، إنه جميل حقاً، هل قرأته في كتاب.

- لا، بل، هكذا، ابتدعته بشكل عفوي.

- أعجبني حقاً، حسناً، هل أمر بك في المكتبة.

- أجل، تمام الواحدة.

- أوكي، باي.

- باي بشرى...

ما كادت تغلق السماعة، حتى علا رنين الهاتف مجدداً، خفق

www.ibtesama.com

قلبها، إنه هو، لكن صوتاً، قريباً سأل: هنا مكتبة رامينا... ردّت أجل.

قال: السيدة هيام رحال موجودة.

قالت: أنا هيام.

قال: ثمة طرد في الكرنك لك.

قالت: شكراً، سأحضر لاستلامه.

أحست أن الشمس الدافئة في الخارج تخترقها، الآن سمحت لها بالنفوذ إلى أعماقها الحب يجعلك نفوذاً للشمس والهواء، وعبير الزهور والأرض، من حسن الحظ أن الكرنك قريب من مكتبتها، أسرعت تتسلم الطرد، قرأت اسمه، وتعرفت على خطه الجميل، لم تنتظر حتى تصل إلى المكتبة، مزقت الشريط اللاصق، وجدت ديوانه قديماً وقد اصفرت أوراقه، يبدو أنه لا يملك نسخاً كفاية، كانت فصاصة ورق برتقالية اللون في قلب الكتاب، وقد كتب فيها: إلى حبيبتي هيام التي تزداد كل ثانية... توفيق أبو شعر...

توفيق أبو شعر، رجل رائع... هذا ما قالته وقد لفتتها عبارته الموجزة والرائعة: إلى هيام التي تزداد كل ثانية.

قرأت على عجل أكثر من نصف الكتاب، أعجبها شعره، إنه يشبهه، صور جديدة نظرة متطورة للحياة رغم أنه ليس راضياً عنه كما أخبرها، لكنها سعيدة، وتراه بعين نزيهة شعراً جميلاً...

رفعت السماعة لتتصل به، كانت تحس بحلاوة الاتصال الأول، وعرفت أنها ستحفظ رقمه عن ظهر قلب قريباً، ولكن خطه ظلّ مشغولاً رغم محاولاتها المتكررة، لكنها قبل أن تقفل المكتبة ظهراً، رنّ الهاتف، اعتقدت أنها بشرى، لكن صوته أتاها قريباً

www.ibtesama.com

جاعلاً، جلدها يقشعر كأنه يلامسها: بادرها يسأل: هل اشتاقت إليّ حبيبي، كما اشتقت إليها؟

سألت بدلال: وكيف اشتقت إليّ...

- أما كتبت لك، إلى هيام التي تزداد كل ثانية، ألم تتسلمي الكتابة.

- أجل، وقرأت أغلبه، إنه رائع.

- هل تجاملينني...

ردّت مقلدة لهجته: أنا لا أجامل.

ضحك قال: حبيبي، أنت حبيبتي المؤكدة.

قالت: أكاد أصدق.

قال: أرجوك صدقي، ما الذي يدفعني لقول شيء لا أحسه تماماً.

قالت: انتظر مني رسالة، أرسلها اليوم بالكرنك، تصلك غداً.

قال: مع بعض قصائدك.

- حسناً، مع بعض قصائدي.

- أحبك، هيام، أفتقدك كثيراً...

ضحكت وسألته: متى ستأتي للتنزهة مرة ثانية.

قال: لم أعد مضطراً لانتظار مناسبات كي أراك، ... على فكرة لماذا لا تحضرين أنت إلى دمشق.

فوجئت وقالت: أنا؟!

- ولم لا، يمكنك الحضور ليومين، سأعرفك بأصدقائي ونسهر معهم أو بدونهم، ما رأيك؟

- لم أفكر بهذا الموضوع؟

www.ibtesama.com

- أتفضلين أن آتي أنا.

- لا أعرف.

- ما بك مرتبكة.

- حقيقة لا أعرف، أحتاج لوقت كي أستوعب ما حصل بيننا...

فضحك: وما الذي حصل بيننا...

- ربما بالنسبة لك أمر عادي، أما أنا، بصراحة، أقصد لي الحقيقة لم يسبق لي أن حصل.

قاطعها: لكأن ما حصل أمر خطير...

- لا، لا أقصد إنه خطير، لكن كما قلت لك، لم يسبق لي أن تبادلت القبلات مع رجل أعرفه منذ ساعات فقط...

- وهل تقاس هذه الأمور بالساعات أو بالأيام؟

- لا أعرف.

- هيام، لم أتوقع أن تقولي هذا الكلام.

- آه، حسناً سنتكلم فيما بعد، الآن وصلت صديقتي، اتفقنا أن نتغدى معاً.

- ليتني أكون معكما.

- يا ليت.

- أتقولينها من قلبك.

- بالتأكيد.

- حسناً، إذاً أنا بانتظار رسالتك...

- أجل، سأصلك غداً ظهراً.

- أوكي حبيبتي إلى اللقاء.

www.ibtesama.com

- إلى اللقاء.

كانت تحس بوجهها كيف أشرق وتلوّن، تحس بلمعان عينيها، لم تكن تحتاج أن تنظر في المرآة لترى أنها غدت أجمل، وأن السعادة ترشح في خلايا وجهها، بللت جهداً لتعطي لوجهها تعبير الضجر اليومي العادي، أمام صديقتها، ولكن جهودها لم تكن كافية، لأن بشرى ما أن رأتها حتى ابتدرتها قائلة: خير، تبدين اليوم مشرقة، ووجهك منوّر...

أبدت استغرابها المصطنع: أنا؟

قالت: أجل، تبدين جميلة جداً اليوم.

- أشكرك ربما لأني نمت ساعتين زيادة.

- والله لم يبق لنا في هذه المدينة البائسة سوى النوم والأكل.

- آه يا بشرى، لماذا تسرعين في يأسنا، حاولي أن تنظري لنصف الكأس الممتلئ.

- نصف الكأس الممتلئ؟ هل أضحك على نفسي، وأنت من تقول هذا الكلام، بالله عليك، أهذه حياة التي نعيشها، والله، أحس أحياناً أنني خشبة أو حجرة، لقد نسيت أنني من جنس الإناث...

- وهل الرجل وحده يشعر المرأة، أنها امرأة؟!

- أوه بالتأكيد، بل حتماً.

- صار هذا الحديث يوترني، تعالي نغيره.

- معك حق، فلنفكر ماذا سنطلب على الغداء.

كان مرتسماً أمامها طوال الساعتين اللتين قضتهما مع صديقتها، أمكنها أن تغوص في عينيه العسليتين، ونظرته العاشقة الدافئة تحتضنها، وأمكنها أن تداعب بخيالها ذقنه وتتسلل إلى فتحة قميصه

www.ibtesama.com

تتحسس عضلاته المشدودة، صدر السباح البرونزي المثير، واستعادت طعم القبلات الدافئة الحميمة وهي تشرب البيرة للتعرف انه يشغلها، وأنه السبب في إشراقها وتألقها، وجدت نفسها تقول لبشرى: قرأت اليوم جملة أعجبتني كثيراً.

سألت بشرى: ما هي؟

- شاعر قال لحبيبه إنك تزدادين كل ثانية، ما رأيك.

- جميل، لكنه كلام كتب.

- ماذا تقصدين.

- قصدي واضح، أي في الواقع لا يقولها رجل لامرأة.

ضحكت، مسكينة بشرى ماذا لو عرفت الحقيقة، عجباً، أحياناً يغيب الإنسان عن جمال واقعه، ويظن أن كل شيء جميل ومدهش لا يحدث إلا في الخيال، ألم تعش واقعاً أجمل من طاقة خيالها على ابتداعه؟ أجل، بالتأكيد، وهل كان خيالها لينجح في تصوره رسم عاشقين يفران خارج المدينة في طقس ماطر وعاصف، ليتغديا في مطعم بعيد، يكون صاحبه نائماً، يرشفان زجاجة نبيذ، ثم يعودان ليرشفا القهوة ويتبادلا القبل، في وقت يغط فيه أغلب الناس في القيلولة؟ وما الذي يمنع أن تكون علاقتها معه أجمل من الخيال...

وها هي بعد أن ودعت صديقتها تسارع للكتابة إليه، مبتلعة برائحة دخان غليونه التي تنشقها بشوق حتى آخر نقطة في أعماقها الرئوية، إلى منفضة السجائر التي تحتوي بقايا دخان غليونه، إلى تلك الزاوية القصية في المكتبة التي تعطلت فيها حساباتها وإنذاراتها واستسلمت لنشوة اللقاء بينهما دون أن تمانع، أو يخطر لها أن تمانع... قرأت الصفحة التي كتبتها له. وأحست بالرضا، أقرت أن

www.ibtesama.com

الكتابة الصادقة دوماً جميلة، أو لا توجد كتابة جميلة ومؤثرة ما لم تكن صادقة، وسارعت إلى الكرنك ترسل له أول رسالة في سلسلة طويلة من الرسائل فيما بعد، ستجمعهما، وسترحدهما، كانت تبدأ عهداً جديداً ربما أول خطواته العريضة صداقتها مع موظفي الكرنك.

• • •

تلقى رسالتها بشغف كبير، وكتب لها في الساعة ذاتها الرد، مبتدئاً بكلماته، التي هي رذاذ روحه، تتلقاه بسعادة، وهي لا تزال في مرحلة الاكتشاف، كتب: من آخر نقطة في رسالتك يبدأ هذا اللي لا ينتهي بيننا.

لم أقل بمصادفة أن الحياة هي «أبداً» في مكان آخر.

ثم لنكون في الوقت اللي لا شيء فيه يكون أو يتكون بسهولة...

لا شيء يقبل، لا شيء يدبر.

فجأة، عينان رماد نارهما الأصلية الأبدية.

يبدو لي منهما لمعان من غريب - قريب إلى حد الترقوة.

فأومئ لروحي التي ابتعدت كثيراً في مجهولها.

أن تأتي لترى ما أرى.

مكان عتاب الرائحة النفاذة لقهوة المساء.

أنثى اكتمالها في خريف مدينتها.

أنا المخلول، كأنني اللحظة التي تتطفئ.

فيها ارتعاشة الظلام في آخر شمعة.

أنا اليائس من الحب في آخر ما خلفه العاصفة.

القادم، الموحل، المملح، من آخر ممشى.

www.ibtesama.com

عصرنا اللي لا ثقافة فيه، لا حضارة فيه.

والـ «إذن» لا حب فيه.

أنا وجدت هكذا فجأة أمامي.

وردة يأسي، شرفة على البحر مكسورة وباقية.

بنفسجة مكسورة مخذولة وباقية وجميلة.

أخيراً وجدتك أيتها الفتاة الطالعة من روحي.

أحبك

نوفيق

وصلتها الرسالة صباح اليوم التالي، إذ اتصل بها موظف الكرنك، وسارعت تسلمها وتقرؤها وهي تجلس في سيارتها، كانت الساعة لا تتجاوز الثامنة والنصف صباحاً، أمكنها أن تلاحظ حلاوة الصباح، وهي عادة لا تخرج من بيتها قبل العاشرة، وجدت نفسها تقود سيارتها إلى شارع الكورنيش، وتتوقف في أقرب نقطة إلى البحر، تدير المسجلة على شريط شهرزاد اللي تركه لها وتعيد قراءة رسالته، تتعرف إلى روحه بل تحس أنها تلمسها، كان البحر هادئاً رمادياً مخضراً، وغيوم رماديةً كثيفة تبدو كأنها تسارع لتنتحر فيه، لكن ثمة ضوء مبهر كامن في هذه اللوحة، ورغم اكفهرارا الشتاء وصوت الريح، وغضب البحر والسماء، إلا أن المشهد كله أعطاها انطباعاً بالسعادة، بالحرية والحياة، وفكرت أنها لو أرادت أن تتخيل الحرية لتخيلتها هكذا بحر هائج، وغيوم متسارعة وريح، وعناق بين الأمواج والصخور، عناق مُلح ومتكرر، تمنت لو كان إلى جانبها الآن، إنها تشتاق إليه فعلاً، ترى أين هو؟ أوه هذه الساعة إنه نائم بالتأكيد، أو يفكر بها، وأرادت أن تتخيله أنه جالس يكتب لها

www.ibtesama.com

رسالة أو قصيدة، تحرك فيها هوى الكتابة فكتبت على ظهر علبة المناديل الورقية، كلمات لم تفكر بها، ولم تخطر ببالها، ولم تعرف ما ستكون عليه، كان القلم وحده يكتب، لكأن صوت الريح والموج يحركانه لكنها ابتسمت معجبة بما كتبته، نادراً ما كانت ترضى عما تكتبه، عادت إلى بيتها لأن مطراً غزيراً بدأ يهطل، تذكرت قصيدة بعيدة كانت ترددها دوماً وهي طفلة: إنها تمطر في السماء كما تمطر في قلبي...

سمعت صوت هاتفها يرن بإلحاح وهي تصعد الدرج، أسرعت معتقدة أنه هو، لكن أختها كانت على الطرف الآخر تسأل بلهفة: أين كنت؟ هل كنت نائمة؟

قالت: لا، كنت في نزهة إلى الكورنيش؟

- أتمزحين، نزهة إلى الكورنيش في هذا الطقس العاصف؟ من يخرج من بيته...

قاطعتها بمزاج مرح ومرتفع: سوى المجانين، وهمست لنفسها والعشاق...

- أوه أنت قلتها، هل حقاً كنت في نزهة؟

- مرام، ما بك، ما الغريب في الأمر؟

- لا شيء، لكني سأطلب منك أن تتركي ياسمين هذا الصباح عندك.

- حبيبتي ياسمين، كم اشتقت إليها، قولي لها خالتو هيام زعلانة منك، لكن ما السبب؟

- ستسافر أنا وإياد للسفر إلى قريته للتعزية، توفي جده.

- رحمه الله، متى ستحضرين ياسمين؟

www.ibtesama.com

- بعد ساعة على الأكثر، هل تكونين في البيت أم المكتبة؟

- أكون في المكتبة، لكن لا تقلقي، سآخذ الألعاب والحلويات إلى المكتبة.

- وهل أخشى أن تمل ياسمين وهي برفقتك، أحياناً أشعر أنها تحبك أكثر مني.

- يستحيل، أنت أمها.

- وأنت أيضاً أمها الثانية.

- أوكي، باي.

أسعدتها تلك العفوية التي لفظت بها أختها كلماتها، أمها الثانية، هذا ما تشعره أحياناً، إنها تحب هذه الطفلة بلا حدود، فلتعترف أنه رغم حبها الشديد لأختها، فإن أحلام يقظة بشعة وشريرة تصدر عنها أن أختها توفت بحادث سيارة أو بمرض خبيث، وتركت ياسمين في كنفها. ويصور لها خيالها أنها تعيش مع هذه الطفلة الرائعة، ابنة الثلاث سنوات، وستعلمها أن تناديها ماما، كانت تلوم نفسها بشدة على هذه الأحلام الشريرة، وتسارع تعتذر بينها وبين نفسها من أختها، لكنها لا تملك حيلة تجاه هذه الأحلام المباغتة والتي تعرف تماماً مدلولاتها...

دبّت الحركة في البيت الساكن سكوناً مطلقاً، الذي لو نسيت كتاباً على إحدى أرائكه لبقي الكتاب في موضعه إلى الأبد، توحدت مع الستائر والأرائك، والتلفاز، والسجاد والمكتبة الكبيرة، والمطبخ بأدق تفاصيله، لكنها تحس أن البيت يتعش، إنها تفيض من روحها فيه وتغمره بدفق جديد من المشاعر يصعب أن تحدد نوعها، لم تفكر أن تطلق تسميات على مشاعرها، ولم تقل إنها تحبه بينها وبين

www.ibtesama.com

نفسها ولو مرة واحدة، أكثر كلمة رددتها أنه حبوي أو متلفق حبوبة، وأنه شاعر، ومثقف ورائع، ودافئ، هكذا تحسه، وهكذا تشعر تجاهه، لكن هذه المشاعر ترضيها وتكفيها الآن، تحسها أشمل وأعمق من كلمة حب، إنها تسعدها على أية حال، أليس هدف الإنسان أن يكون سعيداً؟ لقد ارتبط الحب في لا وعيها بالألم، فالرجل الذي أحبته وعاشت معه أجمل قصة حب في باريس وتزوجته، انتهت علاقتها به نهاية أليمة، ألمها لسنوات، تغيّر وما عاد يشبه الشاب الذي كانه... إنها لا تحب أن تتذكر أبداً حياتها معه، بذلت جهوداً جبارة لتدير ظهرها للماضي، ليصير ذكريات بعيدة باهتة لا تؤثر فيها، جميل أن تعيش حالة انتظار، إنها ترقب يومياً اتصال موظف الكرنك بها ليعلمها عن وصول رسالته، وتسعدها أكثر أنه بحالة ترقب مثلها لرسائلها، جميل أن تفتح درجها الخاص لتضع فيه كل يوم أو يومين رسالة أو قصيدة، لأن أغلب رسائله قصائد حب يكتبها لها، إنها الموضوع والمحبوبة والقصيدة، هذه هي السعادة، أن تكون موضع حب شخص يعرف جيداً كيف يحب، كيف يعطيك جزءاً من روحه، كيف يصوغ من كلماته نسيجاً حياً ودافئاً يغطيك فيه، أو يلفك، هكذا تحس كلماته، كلمات غير مادية تبني لها عوالم حية دوماً، تحرك فيها أحاسيس غنية ومختزنة اعتقدت أنها ماتت بل في الحقيقة نستها تماماً، جعلها تتذكر أغاني قديمة وحلوة مشبعة بالعواطف والصور الرقيقة، ليس أجمل من أن تجعلك علاقة تُحيي الذكريات الحلوة التي مرّت في حياتك... وها هي تتذكر جدها كما لم تتذكره بهذه الكثافة منذ سنوات، بل سنوات القلق والعذاب التي قضتها مع زوجها جعلتها تنسى جدها، الآن

www.ibtesama.com

تتذكر أدق التفاصيل، كيف كانت تجلس بحضنه وهي طفلة، ويحكي لها قصتها المفضلة علاء الدين. خلال خمسة عشر يوماً كانت قد كتبت تسع رسائل، أربع منها قصائد حب وجدانية، وكتبت له ست رسائل، سمتها رسائل البوح العميق، كانت تقول له فاحكة وهي تكلمه كل يوم مساء: إنها حين تكتب له تحس أنها متمددة على كرسي التحليل النفسي...

شُحنت الأشواق بفيض الرسائل، وبالمكالمات المستمرة بينهما، صار يلح أن يراها، يحرضها على السفر، لتغيير جو مدينتها الضيقة والمحدودة، سينتظرها، ويقضيان يومين خارج الزمان، وربما المكان، والفته على اقتراحه أن تسافر إليه، الخميس وتعود الجمعة مساء... اتفقا ألا يكلما بعضهما بالهاتف يوم الأربعاء، كي يكونا بحالة شوق أعظمي عندما يلتقيان، مبتذلين برسم طقوس علاقة استثنائية من أهم بنودها عدم الاتصال قبل اللقاء بيوم...

لم تستطع أن تغفو الليلة السابقة لسفرها، رغم كوبي اليانسون المركز، وحبة الفاليوم عيار / 5/ ، سمت نفسها بسخرية «العاشقة عابرة القارات» وحدها السخرية تخفف توترها، وقامت من فراشها في ساعة مبكرة تنفض عنها أغطيتها الصوفية بقوة المغامرة لتلبس ثيابها وهي ترتجف من البرد. كانت قد جهزت ما ستلبسه قبل سفرها بيوم، القميص الأحمر الحريري، بياقه البيضاء، والجاكيت الكحلية القصيرة والتنورة المثناة من اللونين الكحلي والأحمر، قالت لنفسها: في هذه الثياب أبدو كفراشة، تتمايل ثنيات التنورة معي كيفما تحركت، وتدثرت بمعطفها، ما كانت تنوي أن تحمل مظلتها، لكن المطر المنهمر بكثافة صباح سفرها، أجبرها أن تحملها،

www.ibtesama.com

متحملة عباءها، ورغم أن ثمة حجة، وثمة وجه، حاولن ثنيها عن سفرة الجنون هذه، إلا أن هوى المغامرة انتصر، وسيطر على أعصاب قدميها، وجرهما جراً إلى المحطة، وأجبرهما أن يصعدا درجتي الباص، وأن يثمرا ليجلساها في كرسيها في الباص...

ساعة انطلق الباص أغمضت عينيها إعياءً، كانت تعي كيف أنها لم تنم لحظة واحدة طوال ليلة البارحة، تذكرت كيف سألت الستائر، ونار المدفأة والوسادة عن رأيها في سفرها، وكلما مانعت، وفندت لها الأسباب الوجيهة والمنطقية كي لا تسافر، لكن الحجج لم تفلح في إقناعها، رغم أنها في لحظات قصيرة ومفاجئة كادت تلغي سفرها، لكن قوة غريبة وجديدة كانت تلكزها في كتفها وتحرضها على المغامرة...

تذكرت وهي تنطلق بخطوات متسارعة إلى الباص، كيف ومض بقلبها شعور خاطف سرعان ما انطفأ، تمنت لو تكون مسافرة لملاقاة رجل تحبه، لو تكون بحالة عشق وهوى، انطفأ شعورها لتحول إلى زفرة طويلة يائسة تاركاً تساؤلاً خائباً ويائساً كالرماد: إذاً لماذا أنت مسافرة؟! كانت من التشوش والتعب لدرجة أنها غير قادرة على التركيز، وليست متحمسة لمواجهة نفسها، ومناقشة أية فكرة، قالت زاجرة كل الأصوات الداخلية والخارجية بما فيها صوت المطر: فيما بعد، فيما بعد... أمامنا وقت طويل للمناقشة، وأردفت بعد صمت قصير، وللعذاب أيضاً...

أخذ تعب الليلة السابقة وأرقها يتسلل من عقاله، ويلفها كغطاء دافئ، أغمضت عينيها وهي تحس بجسدها كخرقة عتيقة أهرمها الزمان، استسلمت بعناد لصوت المطر، وصوت ماسحتي الزجاج بحركتهما الرتيبة الأبدية. أوه لشد ما ترغب بالنوم، حسدت

www.ibtesama.com

المسافرين اللذين يغطون في نوم فعلي، وأخذت أطياف صور تتراقص تحت أجفانها المغمضة، ويبدو أنها أغفت قليلاً لأنها كانت تتابع فتاة صغيرة تلبس مريلة مدرسة زرقاء وتضفر شعرها في جديلتين وراء أذنيها. والصغيرة في السادسة من عمرها، تحمل على ظهرها حقيبة المدرسة، طفلة نظيفة، نضرة، لكنها تسير في طريق طويل طويل، ليس فيه كائن بشري، لكنه طريق رائع تحفه الأشجار الباسقة وتتعانق فوقه راسمة قوساً، إنما قوساً لا يحجب أشعة الشمس الدافئة، وكانت تتساءل بقلق لماذا هذه الصغيرة وحيدة؟ ولماذا تدبر ظهرها هكذا؟ حين تنبهت لصوت معاون سائق الباص، يخبرها عن استراحة مدتها ربع ساعة في محطة المسافرين، أدركت أنها كانت تحلم، وأحست أن هذه الصغيرة ليست سواها، وهي صغيرة... نظرت في ساعتها، كان قد مضى ساعتان منذ انطلاق الباص، نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم، وتساءلت، أوه متى توقف المطر؟ أحست بجوع، ولا تعرف لماذا بدا لها هذا الشعور ثقيلاً. نزلت من الباص، وجلست وحيدة وهي تحكم أزرار معطفها، وتغوص برأسها بين كتفيها، في تلك اللحظات وعت جنون سفرها، وهي تدرك بعقلها كم ابتعدت عن مدينتها، وأسفت أنها لم تصغ لصوت العقل، أو صوت الوسائد والستائر، آه حقاً أنا مجنونة... واستحضرت وجهه إلى خيالها لكأنها تستنجد به، لكن للأسف بدا وجهه غريباً، ولم تستطع أبداً أن تتخيل لحظة دفء تشع من عينيه، كان خيالها يرسمه بيرود، رجلاً غريباً ملتحياً، يدخن الغليون، ويراقبها بنظرات قاسية، وهالها كيف سمحت له أن يقبلها وأن تستسلم منتشية لقبلاته بعد ساعات من تعارفهما؟! أوَليس هذا هو الجنون بعينه؟! تنهدت وقد أحست بالهمّ يسمرها إلى الأرض ثقيلة

www.ibtesama.com

مرهقة، أشارت للنادل أن يحضر لها فنجان قهوة، وأطرقت وهي تعي الأمر الواقع: تسافر إليه بعد أسبوعين، وهي بالكاد تعرفه!! أشعلت سيجارة وسحبت النفس الأول وهي تقول والندم يجللها: ليتني لم أسافر... وماذا يقول في سره عن امرأة تقطع عشرات الكيلومترات لتراه؟! قدم لها النادل قهوتها؟ أخذت ترشفها وهي تدخن وتعي كم هي مسكينة، وأحست أنها ملفاة احتياطاً في الحياة، وخاصة في استراحة المسافرين هذه... وتذكرت أنها في أغلب أسفارها كانت وحيدة... ودمعت عيناها من التعب وربما اللي يفتق الأشجان، وفتشت بين وجوه المسافرين عن نظرة تعاطف، لكن كل منهم مشغول بنفسه. وفجأة انفجرت ضاحكة حين سقط نظرها على رجل بدين يلتهم سندويشة بشراهة ويرشف الشاي، وانقلب مزاجها تماماً بمنظره، وأخذت عاصفة من الضحك تهزها، بعد أن كانت غددها الدمعية متنشطة لإفراز دموع الحزن والخيبة والمرارات القديمة، تغيّر صوتها، وانفردت قسماتها، وتلبّسها شعور بعبثية الحياة، وبدت لها محطة السفر هي الحياة نفسها، وقالت لنفسها معجبة باكتشافها: ما الحياة سوى محطة... أوه لماذا نهول الأمور، وما نحن سوى عابرين، وعت في تلك اللحظة دقات قلبها رتيبة منتظمة، وتخيلته عضلة نابضة في سجنه العظيم. وتساءلت بخوف وكأنها تخاطبه: ترى متى ستوقف عن النبضان؟ وعصرها الحزن للحظات، لكن هذا الحزن الحاد حررها من جهة أخرى من ثوب تعلبها لنفسها في رحلتها المجنونة هذه لتلقى رجلاً هو الغموض عينه... لكن هل هناك ما هو أكثر إثارة من اكتشاف الغموض مهما كان نوعه!!!

عادت إلى الباص تلحق بالمسافرين، وهي تحس بذلك الدفء

www.ibtesama.com

الإنساني الذي يلتمسه الغريب وسط انحشاره بين الجموع، كانت القهوة قد نشطتها قليلاً، ورفعت مزاجها، وأخذت تفكر بتلك القبلة الطويلة الساحرة التي جمعتها بالغريب، وابتسمت صراحة وهي تعي حلاوة تلك القبلة وسحرها، لكن تساؤلاً خبيثاً تسلل إلى أذنيها هامساً: ترى هل كنت تتبادلين القبلات مع رجل لم تعرفيه سوى منذ ساعات لولا مساعدة النيد؟!

أطرقت طويلاً وزجاجة النبيذ الغرمزية ترتسم في خيالها رمزاً لتحرير المشاعر من عقالها... سرحت بنظرها على جانبي الطريق، أحست أن موعدها مع الغريب يقترب، من تغير المناخ من الرطوبة إلى الجفاف، وكانت أنظارها تتابع أكوام الثلج المبعثرة على جانبي الطريق، ابتهجت بالثلج الناصع هي التي تفتقده في مدينتها الساحلية، كانت الأشجار كلها مائلة بشدة ومتخلة وضعية الاستسلام الأبدي أمام ريح الشتاء القاسية، وبدت في ميلانها ذي الاتجاه الواحد كأنها مسافرة، أحست بوجهها يشرق مستمتعاً بالطبيعة، وحدثت نفسها واجدة مبرراً لنفسها مجرد استمتاعها بالمناظر الطبيعية الخلابة، وبدأ قلبها يقرع بعنف، أوه ستراه بشكل مؤكد بعد ساعة على الأكثر، ترى كيف سيكون اللقاء؟! أين سيتناولان طعام الغداء؟ وهمْ سيتحدثان؟ أوه لقد ملّت الحديث عن نفسها وقناعاتها في الحياة، ضحكت ساخرة أية قناعات، إن كل شيء يتبدل وأنها الآن مقتنعة باللاقناعة، مؤمنة أن لا شيء ثابت أبداً، ألم تقرأ منذ أيام مثلاً لتنها: تمهل في الحب والكره، فكم من حب تحول إلى كره، وكم من كره تحول إلى حب... زفرت بقوة كأنها تود طرد أفكار مزعجة شمت رائحتها تهاجمها من الماضي، أوه ما يهم اللحظة، أخرجت مرآتها الصغيرة من حقيبة

www.ibtesama.com

يدها، وضعت طبقة من الظل الرمادي على أجفانها... وصبغت شفتيها بأحمر الشفاه، ابتسمت لمرآتها الصغيرة وسألتها: هل يبدو أنني لم أذق النوم ليلة البارحة، ردّت المرآة: لا أبداً، أنت نضرة وجميلة.

أخرجت زجاجة عطرها المفضل الأوبيوم، ورشت بكثافة على عنقها ومعصميها، منبهة المسافرين أن موعد الوصول قد اقترب، سرحت شعرها بأصابع يديها، كانت أنفاسها تتسارع، ومئات الاحتمالات تضج في رأسها، كان شعورها العميق بالندم يضايقها، وما كانت تستطيع تجاهله، وأنها في العمق تتمنى لو لم تسافر وتغامر، وأنه ليس حبيباً، ولا يجمعهما زمنٌ، ولا قصة حب، وأن كل ما تفعله أنها ستخلق الفرح قسراً، ستولده من بطن روتين ممل حتى الموت، ستخلق عمداً قصة مغامرة أو مجرد رحلة، أو أي شيء يحرك سطح البحيرة الراكدة...

• • •

كان آخر ما تحسسته في جوف حقيبة يدها، هو علبة صغيرة تضم حمالة مفاتيح من الفضة بصورة حصان جامح تؤطره دائرة فضية، لا تعرف لماذا استهواها هذا الحصان، أبدت إعجابها بجماله وعضلاته النافرة، أحست كأن هناك شبهاً بين جموحه وعلاقتها مع الشاعر في جوهرها الذي لا يزال غامضاً، ابتسمت وهي تلمس العلبة المخملية، إنها هديتها له، كم من زمن مضى لم تهد رجلاً هدية خاصة، غابت ابتسامتها وهي تتذكر وجوهاً أسرعت في طردها، كانت شمس شاحبة تغمر المدينة بضياء مصفّر، أزاحت ستارة النافذة، فيما أخذ قلبها يقرع بعنف يفتش عنه وسط الزحام،

www.ibtesama.com

وغير بعيد رآته، لمحت نظرة القلق واللهفة في عينيه، إنه ينتظرها، ولا يمكن أن تكون نظرته تمثيلاً، كان يلبس سترته الجلدية السوداء التي التقته بها أول مرة، ويدخن غليونه، الذي سرعان ما يبدد الهواء دخانه، أسعدها أن تراه قبل أن يلمحها، أمعنت النظر إليه لكأنها تؤكد لنفسها حقيقة: إن هذا هو الرجل الذي سافرت لتراه.

أخذ الركاب يتململون، قامت تلبس معطفها وتتأهب للنزول، هاجمتها ذكريات كثيفة ومزعجة من كل صوب، تذكرت رحلاتها بهدف الحمل، صرخت في الصور المباغتة وقالت: اغربي عني أيتها الذكريات اللعينة، اغربي الآن... أسرعت خطواتها تجاهه، والهواء الفارس يلفحها، مدّ لها كلتا يديه، واحتضن يدها الدافئة، وأول ما قاله لها: من أنتِ؟... استعارت أسلوبه الطريف وسألته بدورها: من أنتَ؟ أشار إلى سيارته الفوضوية. واعتذر أنه لم يتمكن من غسلها، وما أن جلست حتى طلب إليها أن تلتفت إلى المقعد الخلفي...

كانت باقة كبيرة من الورود الملونة النضرة ترحب بها، وقصاصة صغيرة من الورق الأزرق تناديها، مدّت أصابعها لتنزع الورقة المطلوبة، وقرأت خط يده: أرجو أن تبلغيها أنني أحبها. شعّ وجهها بالرضا والسعادة، وزالت آخر ذرة من ارتباكها، سألت مازحة: من هي التي ستبلغها أن تحبها؟

ربّت على خدها قائلاً: احزري.

ضحكت معلقة: أوه الحب كلمة كبيرة.

ردّ مؤكداً: فعلاً الحب شيء عظيم، وأنا أحبك يا شكاكة.

قالت مدافعة عن نفسها: لست شكاكة ولكن...

www.ibtesama.com

كانت تتحسس ذلك الشعور النحيل الأشبه بشعاع ضوء يدخل إلى غرفة مظلمة ومهجورة منذ سنوات، حكمة السنين، أو خبرة السنوات، أكدتا لها أن هذا الرجل يحبها حقاً. وأن سفرها الذي يبدو متهوراً وجنونياً، له ما يبرره في الحقيقة، كانت تتأمل باقة الورد في حضنها وتداعب أوراقها، سألها:

- بماذا تفكرين؟

قالت وكأنها تخاطب نفسها: أليس غريباً، لأقل جنوناً، أن أسافر إليك، ونحن لم نلتق سوى مرة واحدة؟ و...

قاطعها بحزم: أبداً، لو لَمْ تحضري، لكنت ترددت في تقييمك كرائعة ومدهشة.

سألته وكأنها ترجوه ان يكون صادقاً: أحقاً تراني رائعة ومدهشة؟

قال: بالتأكيد، من أول مرة رأيتك تفتتين أوراق النعناع، وتراقبين المدعوين في المرآة، قلت إنك امرأة استثنائية.

ضحكت قائلة: أتعرف أنني أحب الإطراء كثيراً؟

قال: هل تحبين أن أطريك بعد؟

قالت بغنج: ولم لا.

قال: تبدين جميلة جداً، فراشة حقيقية...

قالت: حقاً، مع أنني لم أنم أبداً ليلة البارحة.

- بالتأكيد عشت صراعاً حول سفرك.

- أجل.

- وكيف حسمته؟

- أوه، كما ترى، لقد سافرت.

www.ibtesama.com

- ولكن هل اقتنعت تماماً برحلة الجنون كما تسميها؟

سكتت، لم تجب، همّت أن تقول له إنها، ولكن الكلمات تبددت، لم تعرف ماذا تنوي أن تقول. فلتعترف له أنها ما تزال تعاني من الصراع و... لكنها تكره أن تتحدث بهذا الموضوع، وهي إلى جواره وباقة الورد في حضنها، لم يحرجها بمزيد من الأسئلة الفضولية، سألها: أين ترغبين أن نذهب؟

قالت: أقرب مكان نشرب فيه القهوة.

قال: حسناً، ما رأيك بالميرديان.

قالت: عظيم... إنه يذكرني دائماً بالفاكهة المجففة.

- الفاكهة المجففة؟

- أجل، ذات يوم تذوقت أطيب فاكهة مجففة في الميرديان.

- أي نوع تفضليه...

- المشمش المجفف... ألا تحبه؟

- لا أبداً، أنا لا أحب الحلويات.

- أوه، وأنا نقطة ضعفي الحلويات.

- وماذا لو قدمت لك برمباً من المشمش المجفف، هل تحييني قليلاً.

- أوه في هذه الحالة لا يمكنني المقاومة أبداً.

كان رذاذ خفيف من المطر ينهمر، وبدت الكهارب الزرقاء للميرديان حزينة وأميل للون البنفسجي، ترجلا من السيارة، وسارا متلاصقين تحت مظلتها، تتنشق بعمق رائحته المميزة، رائحة دخان الغليون وجلده ورائحة الشعر، أحبت أن تتخيل أن للشعر رائحة، ربما أجمل رائحة شمتها في حياتها.

www.ibtesama.com

انتحيا زاوية معينة في البار، وجلسا متقابلين، كانت القاعة دافئة لخلع سترته الجلدية، تأملته في قميصه الخمري ذي الأكمام القصيرة، وقد فك أزراره الأمامية كاشفاً عن صدر متين لسباح قديم... ضحكت وهي تقول: منظرك يضحكني، تلبس قميصاً صيفياً في عز الشتاء، ألا تبرد؟

قال وهي تحس أنه يُقبّلها بنظراته الدافئة: هل يمكن أن أحس بالبرد وأنا معك؟

كانت موسيقى رومانسية خافتة تساعدها أن تسترخي أكثر وأكثر، تنطلق من مكان ما من القاعة يصعب تحديده.. كان يتأملها بحنان وشوق لا يمكن إلا أن يكونا صادقين، سألها برقة: هل لي أن أسألك كيف رجعت كفة السفر أخيراً؟! همّت بالجواب، لكنها لوجئت بدموع خفيفة ترشح من عينيها، والكلمات تبددت عند شفتيها، كان صوته من الرقة والنفوذ إلى أعماقها الهشة المسهدة، أن حرك بحيرة من الدموع في أعماقها، أجابت بصوت مختنق: يجب أن أعترف أنك شغلتني كثيراً من يوم التقينا، ورغم أن فصة قوية اضطرتها للسكوت لحظات، إلا أنها تابعت تقول بعد أن مسحت على عجل دمعة تهم بالسقوط، والرسائل التي تبادلتها خلال أسبوعين، كذلك المكالمات الهاتفية... لم يعد بإمكانها أن تكمل، اختلج صوتها واحترقت عيناها بالدموع، في تلك اللحظة انتابها شعور جارف لتبوح له بكل قصتها لتفرد أمامه حياتها، أرادت أن تشرّع كل أبواب روحها، وتدعوه للدخول، كما تدعو الغرف الرطبة النور ليدفئها، كانت على استعداد أن تريه كل نقاط وجعها وخزيها، وخيبات أملها، بل تمنت لو تتذكر كل الحوادث المنسية وتحكيها

www.ibtesama.com

له، أمسك يدها، وقبّل بشغف باطنها وظاهرها، قائلاً بصوت تكتشف حلاوته: ما أحلاك، ما أرقك...

قالت له وهي تغرق في الحنين: آه لا أظنك تعرف كمية الحزن في أعماقي.

قال: أعرف وأحبها.

ضحكت، أحست بدفء يده، سألته مازحة: يبدو أنك تسقط في الحب بسرعة.

قال: أتمنى لو تصدقيني، في حياتي لم أحب امرأة مثلك.

قالت مغتبطة: ابتدأت حملة رفع المعنويات.

قال معاتباً: لا أظنك بحاجة إلى من يرفع معنوياتك، أنت قوية الشخصية، ورائعة. ابتسمت قائلة: شكراً شكراً مرة ثانية.

قال: ما أجملك تبتسمين، عيناك تشعان بالنور.

قالت: آه حقاً! إذاً لم تعد نظرتي مطفأة.

قال: لا أبداً...

قالت: عظيم، أظنك أنت سبب لمعان عيني.

قال: أتمنى.

سألت: وهل من سبب آخر...

قال: لا أعرف...

اقترب منهما نادل مفرط في التهذيب، يسألهما ماذا يشربان، طلبت قهوة، أما العاشق فاستأذنها أن يشرب كأس ويسكي، وأبدى رغبته لو تشاركه شرابه، قالت: أتشربُ ويسكي صباحاً؟

قال: ولم لا، احتفالاً بحضورك إلى دمشق.

قالت: حسناً، في هذه الحالة لن أشرب القهوة، لكني أفضل

www.ibtesama.com

الجن بالليمون.

استأذنها ليحضر علبة دخانه من السيارة، تأملت قامته وهو يبتعد، ابتسمت متحسسة جمال جسمه الرياضي، حدثت نفسها: لرجل الخمسين جاذبية خاصة، بل آسرة، تحديداً رجل مثله شاعر، وشخصية غنية... تذكرت قولاً قرأته لمركيز، إن الحب وكتابة الرواية يبدآن في الخمسين... فكرت أنه يكبرها بأحد عشر عاماً، هي لي التاسعة والثلاثين وهو في الخمسين، أسعدها هذا الفرق، هكذا ستظل شابة ومرغوبة بالنسبة له، تساءلت هل يمكن لرجل في الخمسين أن يقع بغرام امرأة في سنه؟ استأذنها النادل ليضع كأسي الشراب على الطاولة، وليضع أمامها صحناً ممتلئاً بالمشمش المجفف، شكرته، وتناولت مشمشة مجففة أكلتها بشهية، أحست أن للسعادة طعماً حلواً ومركزاً كالمشمش المجفف، عاد بعد برهة يحمل علبة دخانه ودفتراً صغيراً، شكرته على لفته الرقيقة وأشارت لصحن المشمش قائلة: لكن هذا كثير جداً...

قال: اليوم استثناء، في كل شيء، حتى الأكل.

قالت: معك حق، أشارت لدفتره قائلة ما هذا الدفتر...

قال: أتحبين أن أقرأ لك القصيدة التي كتبتها البارحة عنك.

قالت بمرح: ها قد صرتُ ملهمة الشعراء.

قال: ملهمتي أنا لو سمحت...

قالت: حسناً أنا مصغية.

قال وهو يخرج من جيب قميصه نظارة القريب: أرجوك أن تدكي الفليون بالدخان.

قاطعته: وأشعله وأدخنه.

www.ibtesama.com

قال: أجل، لو أحببت...

شربا نخب اجتماعهما، ونخب /6/ شباط يوم تعارفا، قلب صفحات دفتره، حتى استقر على صفحة، وضع نظارة القريب، كانت تتأمله بعين تراقب كيف تنشأ قصص الحب وتتطور، قالت له: أنا مصغية...

وضع نظارته القريب وأخذ يقرأ بصوت ساحر ودافئ:

نادراً ما يلد القوس غزالاً بريئاً

ونادراً ما يعثر الغواصون على مياه عذبة

في أعماق البحر

ونادراً أيضاً ما يشاهد السنونو

في الشتاء مرفرفاً على قوس قزح

ونادراً أيضاً ذاك الذي حدث ذات يوم:

قد رأى الصباح الذي مضى منذ أسبوعين

قريباً من نجمة الفجر

اثنين على سحابة

يفكان أزرار الغيوم

ويخترعان بالتماعة العيون

برق الكلام

توقف عن القراءة، قدمت له خليونه مشتعلاً، سألها عن رأيها، قالت: إن شعره جميل جداً، صُوره حلوة، طلبت إليه أن يقرأ لها المزيد، لكنه قال ليس الآن بل في بلودان، حدثها عن مطعم رائع في بلودان قصده منذ أيام مع رفاقه، وسألها إن كانت راغبة بالذهاب إلى بلودان، رحبت بالفكرة، خاصة وهي مغرمة بمنظر

www.ibtesama.com

الثلج الذي تفقده في مدينتها الساحلية.

سألته: ما الذي أحبه فيّ...

قال: أشياء كثيرة، لكن تملكني صفة نادرة، هي عفويتك غير المخربة.

سألته: وهل هي صفة نادرة؟

قال: بالتأكيد، هذا الزمن خرّب عفوية الناس، وأنا صراحة يدهشني الإنسان العفوي الذي لم يتشوه بعد...

حدثته عن ضجرها الخانق في اللاذقية، لدرجة أنها في أحيان كثيرة تتمنى لو تنام الساعة الثامنة مساء، وأن أيامها متشابهة كصف خبالي من التوائم الحقيقية، وأنها لولا صديقتاها اللتان تنافسانها في الضجر لانفجرت حقيقة، حكت له عن ياسمين وولعها بها، وسعادتها وهي تحكي لها القصص، بل تختلقها لها من خيالها، وكان يصغي إليها منتشياً بحديثها لكأنه يرشفه مع الويسكي، وحين قاما لينطلقا إلى بلودان، تساءلت وهي تتنثر بمعطفها وتركب إلى جانبه في السيارة: ترى ألا يفترض في الإنسان أن يخلق فرصاً وظروفاً هو بنفسه؟ وهل فعلت شيئاً خارقاً للأصول؟!

لكن صوت الريح في الخارج، كان يؤكد لها، أن كل تصرفاتها مع الشاعر خارج الأصول والأعراف المتعارف عليها...

بلودان الساحرة، المتنثرة بالثلج، يغطي قرميد بيوتها، ورؤوس أشجارها، وأشعة الشمس المنعكسة عليه تجعل الطبيعة تلمع بضياء آخاذ، وهي مسترخية إلى جواره في المقعد تتابع بافتتان ومن خلال نظارتها الشمسية السوداء المناظر الخلابة، فيما يصغيان لموسيقى موزارت الرائعة، كان يحقّ لها في تلك اللحظة أن تهنأ نفسها

www.ibtesama.com

لإقدامها على السفر، كانت منتشية بالطبيعة، بدفء حضورها، بشعره، بالجن مع الليمون وبالثلج الناصع، كانا صامتين، ويداهما تتلاقيان من وقت لآخر بلمسات طويلة تؤجج عواطفهما المختزنة، أخذ يحس ببعض الضيق وقد تاه عن المطعم المطلوب، واستمر يقود سيارته باحثاً عنه أكثر من ساعة وهما تائهان وحيدان، وسط طبيعة مغطاة بالثلوج، ضحكت قائلة: هل ستستمر إلى الأبد تفتش عن مطعمك الوهمي.

قال: إنه ليس وهمياً... أتعجب كيف لم أهتدِ إليه. أظنني بوجودك أعجز عن التركيز.

قالت: ربما، لكن ألا يوجد مطعم آخر.

قال: بالتأكيد، نظر إلى ساعته، كانت تقترب من الرابعة، قبّل يدها قائلاً: حبيبتي جائعة، حتماً سأتوقف عند أول مطعم.

أغمضت عينيها لثوان، وهي تحس أن روحها نسيم يرقص على موسيقى موزارت، كان تعبها في ذروته يمضّ في كتفيها، ومفاصلها، كانت تتساءل: أليست الحياة أن يتوه رجل وامرأة ومشروع حب بينهما في الطبيعة باحثين عن مطعم لن يجداه؟! وماذا لو استمر دورانهما في هذه السيارة إلى الأبد؟ هل ستعترض؟ لا، هل من لوحة أجمل من بيوت بلودان وأشجارها مغطاة بالثلج، وآدم وحواء يجوبان طرقاتها، عاشقين، هاربين، معمّدين بنور الشمس والحب... تنبهت لصوته يسألها: إيه هل دخلت حبيبتي مرحلة الأحلام؟

فتحت عينيها بتثاقل قائلة: لكني لم أغفُ بعد؟

سألها: هل أنت متعبة كثيراً؟

www.ibtesama.com

قالت: لا، أنا بحالة جيدة، اطمئن أنا سعيدة، لكن أحس بنعاس خفيف.

قال: لن تغفي إلا بين ذراعي.

سرت قشعريرة في جسدها وهي تجسد الصورة في خيالها وقالت: مستحيل.

سألها: ما هو المستحيل؟

قالت: أن أغفو بين ذراعيك.

قال: وما أدراك؟

قالت: أعرف نفسي.

ضحك قائلاً: الحب يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا.

أعجبها جوابه: قالت له: تعبير جميل.

قال: إنها الحقيقة.

تساءلت: لماذا يؤكد أن ما بينهما حب؟ وهل أحبها حقاً؟ إنها تميل إلى تصديقه، لكن الحب شيء مختلف، إنه كبير وعظيم... وتساءلت ما معنى كبير وعظيم؟ ولماذا تفهم الحب دائماً على أنه غير عادي وأبدي ومدهش؟ ترى ألا يوجد حب وسط.

توقف أخيراً أمام مطعم جميل يبدو غارقاً بين الأشجار. قال لها: هيا يا حبيبتي، تدثري جيداً بمعطفك، فأنت غير معتادة على البرد الشديد.

ترجلت من السيارة، أخذت ترتعش من البرد، وأسنانها تصطك مصدرة صوتاً، أحاطها بذراعه وقرّبها منه، قبل وجنتها الباردة وهمس: أفتقدك كثيراً، أحبك.

قالت بخجل: وأنا أيضاً أفتقدك.

www.ibtesama.com

قال: لشد ما رغبت في تقبيلك.

قالت مازحة: صاحب المطعم يراقبنا.

قال: فليراقب.

قالت: يجب أن نحترم مشاعره، فلا تغازلني أمامه.

قال: معك حق.

جلسا متقابلين: ألصقت يديها بالشرفاج الفاتر، أخذ ارتعاشها من البرد يخف، تذكرت العلبة المخملية، أخرجتها من حقيبة يدها، وقدمتها له، قائلة: هذه لك أرجو أن تعجبك.

فتح العلبة وأخرج حمالة المفاتيح قال: رائع هذا الحصان. أشكرك.

نقل مفاتيحه إلى حمالة المفاتيح الجديدة، قالت له: أعجبني هذا الحصان الجامح.

قال: إنه كالحب جامح دوماً.

قالت: لكن جموحه للأسف محبوس ضمن دائرة.

قال: أنا لا أرى الدائرة.

قالت: لكنني أراها.

قال: انسيها، تجاهليها.

قالت بإصرار: لكنها موجودة.

قال: يمكنك ألا تريها، أن تتجاوزيها.

قالت: ليس الأمر بهذه البساطة.

قال: بل هو أبسط مما تتصورين.

قالت: بالنسبة للرجل الأمر بسيط.

قال متزعجاً: أرجوك لا تتحدثين بمنطق رجل وامرأة.

www.ibtesama.com

قالت بأسف: إنه الواقع يجبرنا أن نتحدث عن رجل وامرأة.

قال: أنا وأنت يجمعنا شعور عال، لا تفسديه بالتحدث عن امرأة ورجل. على فكرة أنا بدوري سأقدم لك هدية تعجبك...

سألته: ما هي؟

قال: عشرة أشرطة انتخبتها لك انتقاء، من بينها شريط رائع اسمه غزو الجنّة.

سألته: غزو الجنّة، ماذا يعني؟

قال: إنها الموسيقى التي عزفها الهنود، يوم غزا كريستوف كولومبس أميركا.

شكرته، معربة عن إعجابها بثقافته الموسيقية، قال لها وأصابعهما مشتبكة، مولد باشتباكها حرارة متعاظمة: إن غزو الجنّة الحقيقي كان لي قبلتا الساحرة.

قالت: أجل، لقد أطللنا على عالم جميل، لعله الجنّة.

سمعت قرقرة أمعائها، نظرت في ساعتها كانت الرابعة والنصف، قالت له، في مثل هذا الوقت أكون في المكتبة أشرب القهوة وحدي.

قال لها: من الآن وصاعداً لن تشعري أنك وحيدة، أنت محبوبتي.

علقت: جميل أن يكون الإنسان محبوباً.

قال: أنت تُحسنين كثيراً.

انتشت بقوله وأردفت: أنت تراني بعين المحب.

قال: بل أراك بعين نزيهة تماماً...

قالت: أين هو النادل، أكاد أموت من الجوع.

www.ibtesama.com

قال: سأقوم بنفسي أطلب الطعام...

لم يبتعد خطوات حتى نادته: أعطني غليونك لو سمحت أرغب ان أدخن به.

• • •

كان الغسق يغلّف الطبيعة بألوانه السحرية، لحظة غادرا المطعم في طريقهما النازلة من بلودان إلى دمشق، تلاشى جسدها فوق المقعد، وهي تحسّ بخدر النبيذ يختلط مع خدر النعاس، وربما مع خدر أقوى - الحب - أخبرها أنه مدعو إلى سهرة عند أحد أصدقائه، وأنه يتمنّى ان تتعرّف بهم، سألته وهي مغمّضة العينين: هل حدثتهم عني؟

قال: أجل.

انتفضت ربحلقت به: وماذا قلت لهم؟

قال: ما بك أجفلت هكذا، قلت ما يجب أن يقال...

- ولكن، لم أفهم.

- حبيبتي، لا يليق بك أن تخافي هكذا، أتمنّى لو تتعرّفي بأصدقائي، لترى أن مخاوفك كلها غير مبررة.

كان خدر النبيذ قد أرخى أعصابها، وحرّرها من نشاطها العصبي المعاوض الذي بذلته طوال النهار، اشتاقت أن تغفو، وتخيّلت ياسمين تحتضنها، تشمّها، وتغفو إلى جانبها، كانت تبذل جهوداً لفتح أجفانها، وأخذ التعب يمضّ في عضلاتها، ويحرض في رأسها، صداعاً سألته أن يوصلها إلى مركز الباصات لتسافر، قال متعجباً: غير معقول، أن أتركك ترجعين بهذه السرعة، خجلت أن تريه عمق نعاسها ورغبتها بالنوم، اكتفت بالتصريح أنها متعبة،

www.ibtesama.com

وتفضل لو ترجع باكراً، لكنه أغراها بالسهرة، طلب إليها تغفو بالسيارة في طريق العودة، أغمضت عينيها شبه مخدرة، كان حلمها الوحيد أنها نائمة نوماً طويلاً، كانت تتنشق رائحة سجائره، وتنصت لموسيقى خافتة ورائعة لموزارت، رغبت أن تحدّثه عن الفيلم السينمائي الذي حضرته مؤخراً عن حياة موزارت، لكنها لم تملك قوة نشاط للحديث، أيقظها بقبلة من عنقها، انتفضت ونظرت في ساعتها، كانت السابعة والنصف، سألته: أين نحن؟ تلفتت حولها لتجد نفسها في شارع جميل، بناؤه حديث وأنيق.

قال بتودّد: هيا، تعالي نشرب القهوة، ستنعشك وتطرد نعاسك.

فكرت أنه بعد نصف ساعة سينطلق الباص الأخير.

قالت بخجل: أرجو أن توصلني إلى المحطة، أنا متعبة جداً.

أمسك يدها وأمطرها بالقبل ورجاها ألا تفسد اليوم الجميل، وأن تلبّي اقتراحه بشرب القهوة ثم السهر مع ثلّة الأصدقاء واعترف لها أن السهرة مُقامة على شرفها وأنه حكى عنها لأصدقائه طويلاً ووصفها بأروع أنثى تعرّف بها في حياته وقال تحديداً إن لباقتها عالية، ولم يعرف لباقة عند امرأة بهذا المستوى.

لا تعرف تماماً لماذا أذعنت؟ بالتأكيد كانت رغبتها بالسفر أقوى، وكانت على درجة من التعب والنعاس إنها لا تحلم سوى بالنوم، حتى تبادل قبلة معه بدا يتطلب جهداً خارقاً، تركته يحيط خصرها بذراعه وهو يطلب المصعد، فهمت منه أنهما يقصدان شقة خالية لصديقه الرسام، حدّثها عنه ووصفه بالعبقري، ووعدها أن يأخذها ذات يوم إلى مرسمه لتتأمّل لوحاته الرائعة... توقف المصعد في الطابق التاسع، أخرج من جيبه المفتاح وفتح باباً رائعاً

www.ibtesama.com

من خشب السنديان، لم تتمالك أن أعربت عن إعجابها بالمعينات الهندسية المختلفة الأحجام التي تزيّنه، كذلك التفتت بأثاث الشقة الذي ينمّ فعلاً عن ذوق فنان مبدع. احتواها بين ذراعيه وأمطر وجهها وعنقها وشعرها بالقبل، وهو يهمس لها، حتى أحسّت أن أضلاعها ستتكسر، بدت ليّنة طرية وهو يشدّها إلى صدره المتين، وعضلات ذراعيه تطوقان خصرها، كأنهما لن تفلتاه أبداً، مستها السعادة بشكل خفيف لكأنها تعبر فوقها أو تطير إلى جانبها، أسعدها اشتياقه لها ولهفته العارمة لجسدها، لكنها حتى تلك اللحظة لم تكن راغبة سوى بالنوم... آه فعلاً ليس سوى النوم يغريها الآن.

فك حصارها، طلب إليها أن تتفرّج على اللوحات فيما توجّه إلى المطبخ ليعد القهوة، التفتت برسوم صديقه، اعترفت أنه عبقري حقاً، أغلب اللوحات كانت تمثّل مناظر من الريف، بيوت قديمة وسلالم عتيقة من الحجر، وأشجار الصنوبر والبلوط... أحسّت بنشاط بعد أن شربت فنجانين من قهوة، وعادت حالة النشاط العصبي تتلبّسها، تحرّر من قميصه كاشفاً عن جلده الأسمر وعضلاته المشدودة، أطرقت مرتبكة وفكّرت أن سفرها هو الجنون عينه، لم يكن من السهل الفكاك الآن من إغواء التجربة، دارت ابتسامة ارتباكها وهي تقول، فعلاً إذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما. كان رقيقاً في مداعبتها، لدرجة خجلت أن تقاومه، وتلفت غزله ليس رغبة فيه بل مكافأةً له لشدة رقته ونعومته واحترامه لها. وحين طلب إليها أن تتحرّر من جاكيت الجوخ القصيرة، ومن حمالتها رفضت متشنّجة قائلة لا قطعية وفظّة.

سألها برقة: لماذا؟

www.ibtesama.com

ردّت بلهجة نزقة: هكذا.

احتضنها برفق قائلاً: أرجوك لا تتوتري، تحرّري من ثيابك قليلاً، ركع إلى جوارها، حرّرها من حذائها، وأسند رأسه إلى ركبتيها، أمكنها هكذا أن تتأمله بحرية، بدا شعورها محايداً، تخترقه لحظات كالومض تشعر أنها ترغبه، وبدت في نظر نفسها غريبة وشاذة، وتساءلت: أين أنا؟ وما صلتي بهذا الرجل نصف العاري وكيف تختلي في شقة صديقه وأنا بالكاد أعرفه وقبل خمسة عشر يوماً لم يكن له وجود في حياتي، يا إلهي كيف وصلت ببساطة إلى هذه الشقة... كانت تستمر في نمط تفكيرها، لبما امتدّت يدها هازئة منها إلى شعره الرمادي الكثيف تداعبه، وانزلقت إلى جبينه وحاجبيه وعينيه، ثم أنفه ولحيته ولمه، تستكشف ملامحه، كان مغمض العينين من نشوة إحساسه براحتها تتكلم، وينهّد بعمق من آن لآخر كأنه يحرّر مشاعر ثقيلة من صدره، كان يصرّ على وصف راحتها بأنها تتكلم.

هل كانت تعلم بأعماقها أنه سينتفض بعد دقائق ليحملها بين ذراعيه القويتين ويقودها إلى غرفة نوم الرسام، ويمدّدها على السرير دون أن تبدي مقاومة تُذكر كانت تحسّ بثقل جسده، بثقل جسد الرجل، إحساس كادت تنساه، لأن سنوات وحدتها الطويلة جعلتها تنسى كيف يكون ثقل جسد الرجل، رجته ألا يفعلا شيئاً، لكنها بعد دقائق كفّت عن الرجاء مستسلمة لقبض قبلاته ومداعباته وكلماته ذات الحلاوة الخاصة، والتي لا يقدر سوى شاعر مرهف على ابتداعها، غابا في عالم الاكتشاف الأول، ولم يخف انبهاره بجسدها، بدقة خطوطه وتناسقها. ولم تتوقّع في حياتها أن تستسلم

www.ibtesama.com

لرجل بهذه البساطة الساذجة، ولم تبرّر يوماً علاقات الشهوة ولم تمارسها أبداً، حتى وهي في أوج يأسها وحرمانها وشبابها، فلماذا تستسلم الآن ودون مقاومة تُذكر؟ أما كان بإمكانها أن تصرّ على السفر وتعود، لكن أما كان أفضل لها لو لم تسافر أبداً أصلاً؟! وأتاها الجواب: أوه إنه اليأس، أغمضت عينيها مؤكدة اكتشافها: آه، وحده اليأس يجعل الإنسان يستسلم بهذه الطريقة الأشبه بالقدرية.

تأمّلته يرتدي ثيابه ويدخّن غليونه، كانت تغمض عينيها متظاهرة بالنوم، لم تكن ترغب أن تنظر في عينيه أو يتبادلا الحديث، فليتركها لدقائق غارقة في ذاتها، وما أن لمحته من بين أهدابها يخرج من الغرفة، حتى فتحت عينيها، كانت عارية تماماً تحت غطاء صوفي ذي ألوان ساحرة، أحسّت أن أعصابها تتلف من الندم، أصوات في داخلها كانت تصرخ وتصرخ محتجة على لقائها السريع مع رجل بالكاد تعرفه... ولا يجمعها به الحب... إعجاب واستلطاف، يأس ورغبة، وحب المغامرة، أشياء وأشياء رمتها على السرير، في شقة رسام عبقري ومع شاعر غريب... أجل أشياء وأشياء، فاجأها يحضر لها كأساً من عصير البرتقال، تصنّعت بهجة زائفة وهي تشكره. ارتدت ثيابها على عجل، سألها إن كانت ترغب أن يكملا السهرة وحيدين، أم يعرّفها بأصدقائه، قالت إنها تترك الخيار له. أشعلت سيجارة وقالت ساخرة من نفسها: ما معنى أن أرفض السهرة الآن، بعد أن استسلمت له، أخرجت علبة الماكياج من حقيبتها، كان وجهها جامداً رخامياً وهي ترسم خطوط الماكياج فوقه، تساءلت: هل ستقدر على السهر حتى الفجر؟ كان التعب

www.ibtesama.com

يتمثّل لها في تلك اللحظات مخيفاً كالموت، وأحسّت أنها يمكن أن تموت من شدة الإرهاق...

• • •

قدّمها لشلّته الخاصة، الرسام الذي استعار يته، شاب جميل في الثانية والثلاثين من العمر على الأكثر، وعشيقته التي تكبره بخمسة عشر عاماً. صاحبة مطعم مشهور، اللواء المتقاعد وعشيقته الممثلة الناشئة والتي تصغره بأكثر من عشرين عاماً، الأستاذ الجامعي في قسم الفلسفة وحيداً دون عشيقة أو زوجة...

رحّبوا بها بود قديم، صبّ لها كأساً من الويسكي مع كثير من الثلج كما تحبه، قالت لنفسها أنا بحاجة لمساعدة الويسكي كي أفهم شلّة الفانتازيا هذه، أوه ثمة خطأ في الترتيب، في التوزيع، بادل ذهنها، بين عشيقة الرسام، وعشيقة اللواء، وأعادت ترتيبهم، اللواء مع الكهلة صاحبة المطعم، والرسام مع الممثلة الشابة، وأستاذ الفلسفة يجب أن تُدبّر له عشيقة تناسب ثقافته الواسعة، وشكله الأنيق... شربوا نخبها، ورفعوا كؤوسهم عالياً، علّق أستاذ الفلسفة قائلاً:

- لي صحتك، في صحة المرأة التي فتنت شاعرنا...

شكرته على المجاملة الرقيقة لكنه قال إنها الحقيقة، وحدثها عن صديقها الشاعر أنه كان ممتنعاً عن السقوط في الحب، لكن المعجزة حدثت في اللاذقية، وغرق في بحر الحب... همست بأذنه أنها سمت رفاقه شلّة الفانتازيا، قال: رائع هذا القلب، ولكن ألم تشملنا معهم.

قالت: ليس بعد.

www.ibtesama.com

سألها: لماذا، نحن أظرف ثنائي بينهم.

كانت أفكارها تسرح بعيداً عن أحاديث شلّة الفانتازيا، فكرت أن أياً من هؤلاء الرجال لا يسهر مع زوجته، بل مع عشيقته، وتساءلت كيف تقبل العشيقة أن تظل في السر؟ وهاج غضبها عاصفاً وهي تعي بعقلها وحده كيف استسلمت له وانفجرت بصراخ أخرس، فعلاً أنا مغفلة وغبية، وبدا لها تصرفها، غريباً بل أقرب إلى الذهول، وعنفت نفسها قائلة: ما الذي قادك إلى دمشق تقطعين عشرات الكيلومترات لتلتقي رجلاً لا تحبينه، وتتعرّي في أحضانه كالمخدّرة، وتسهري مع شلّة الفانتازيا، وكل رجل فيها ملكُ زمانه يتمتع بزوجة وعشيقة - على الأقل والزوجة والعشيقة تتنازعانه كأنه سلطان عصره، تفلّصت معدتها وهي تؤكد لنفسها ندمها وقرفها... كان التعب متركزاً في قدميها، تمنّت لو تقدر على خلع حذائها، ونقع قدميها في ماء فاتر نضيف له القليل من الملح، تأوّهت بصمت من التعب وتمنّت لو تقدر بمعجزة أن تكون في سريرها، تغطّ في النوم، تركته يقبّل يدها ووجنتها أمام رفاقه، يأسها وحده أعطاه حرية تصرفاته، وكانت تتأمل عشيقة اللواء كيف تداعب كرشه، وتتبادل معه قبلات حميمة أمام أنظار الجميع، فيما التزمت التاجرة الخمسينية حدود الحشمة مع الرسام، لسبب وحيد كي لا يظهر الفرق الشاسع بين عمريهما وهي تقرب شفتيها من شفتيه... تذكّرت وسط شلّة الفانتازيا، وتحت رعاية مختلف أنواع دخان السجائر والغليون والويسكي، قصة عوامة ثرثرة فوق النيل لنجيب محفوظ، وتساءلت بلامبالاة: ترى ما موقعي أنا من الإعراب؟ وردت بسخرية مُرّة: أنا عشيقة الشاعر، ولم تعرف كيف انصرم الوقت، وكيف

www.ibtesama.com

ميّزت وسط ضجيج أحاديثهم آذان الصبح، وانفضّ الجميع، وتبادلوا القبلات، ووجدت نفسها تتبادل القبلات مع الرجال وعشيقاتهم، فادها إلى شقة الرسام، التي أخلاها لهما منضماً إلى شقة عشيقته الثرية... واعتقدت أنها ستغطّ في النوم حالما يلامس خدها المخدة، كان الفجر يطلّ رمادياً مزرقاً فوق مدينة لا تزال غافية، لكن أملها خاب، فما أن استقرّت فوق السرير وهو إلى جانبها حتى افترسها توتر غريب، وتركته هو يغطّ في النوم بعد أن شرب أكثر من نصف لتر من الويسكي، وأخذ يصدر شخيراً عالياً ومتواتراً بانتظام، كانت تتأمله بعينين حياديتين أبعد ما تكونان عن العاطفة، وتراقب تنفسه البطني، وبدا لها، وهو نائم وشبه عار إلا من سرواله، غريباً وبعيداً، واستنكرت بقوة وجودهما على نفس السرير، انفجر صداع في رأسها، وسقطت دمعتان وحيدتان من عينيها طالبة النوم، فعلاً النوم سلطان... تذكّرت ياسمين وهي تنظر في ساعتها، السابعة صباحاً، في مثل هذا الوقت تستيقظ طالبة زجاجة الحليب، ليتها إلى جانبها تشمّمها وتقبّل خدودها النضرة وتغفو، لشد ما هي بحاجة لتغفو، ولو كانت الإغفاءة الأبدية...

لم تعد تحتمل شخيره، خرجت من الغرفة، حافية وبكامل ملابسها، وأخذت تتفرّج على رسوم الرسام، مفتتنة بها أكثر من قبل، وتساءلت: عجباً كيف يعيش مع امرأة تكبره بعشرين عاماً؟ ما الذي يعجبه فيها؟! أخرجت فرشاة أسنانها من حقيبتها واتجهت إلى الحمام، هالها منظر وجهها في المرآة، أجفان متصلبة مرهقة، وجنتان شاحبتان، وعينان حمراوان، ربما من التدخين والسهر المديد...

www.ibtesama.com

فكرت أن تعد قهوة الصباح وتوقظه ليوصلها إلى المحطة، عادت إلى غرفة النوم لكنه كان يغط في النوم وبالوضع ذاته وقد اتخذ وضعية المصلوب... أضحكها منظره، وانسدارت لتتجه إلى المطبخ وهي تمازح نفسها أن المرأة لا تضحك من منظر الرجل نائماً إلا إذا كانت لا تحبه... من نافذة المطبخ في الطابق التاسع، أمكنها أن ترى الأطفال يهرولون إلى مدارسهم، انهمرت دموع حارقة من عينيها وهي تعي وجعها الأبدي - الطفل - أوه لو كان عندها طفل، تعيش معه في كنف عائلة سعيدة ومستقرة، هل كانت قطعت عشرات الكيلومترات لتلتقي برجل غريب... أذابت دموعها بقايا الكحل، وأذابت غبار الدخان المتراكم في ملتحمة عينيها، أحست كم هي مسكينة، ووحيدة، وغريبة، وهي ترشف قهوتها في بيت الرسام وفي مدينة غريبة وخطر لها لو تكتب له ورقة تودّعه وتوقف تكسي يقلّها على محطة الباصات... لكنها عدلت عن فكرتها، فلتنتظر قليلاً، عساه يستيقظ... تمدّدت على الأريكة في الصالون، تلفّ وجهها في وسادة حمراء صغيرة، معتقدة أنها بهذه الطريقة تهرب من صداعها المتعاظم، كانت ألوان فاقعة تلتمع أمام عينيها، وشرارات الصداع تلتمع في دماغها كالبرق، أحست بغثيان، وشعرت كيف يمتزج الويسكي مع القهوة في معدتها، ولم تتمكّن من الإغفاء ولو لدقائق، قامت وقد قرّرت أن توقظه، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، اقتربت من السرير، ورنت بلطف على كتفه، قالت بصوت محمل بالخيبة: أرجوك، استيقظ، يجب أن أسافر...

فتح عينيه قائلاً: حبيتي، تعالي إلى جانبي...

www.ibtesama.com

قالت: لا، أرجوك، يجب أن أسافر...

تأملها والنعاس يحوم حول عينيه: أوه، لماذا أنتِ بكامل ملابسك.

لم ترد، قالت، تعال نشرب القهوة معاً.

لكنه جلبها من يدها إلى السرير، واحتضنها بين ذراعيه، سألها: ما بك متوترة هكذا، قالت وقد تركت نفسها مضمومة إلى جسده الدافئ: لم أنم أبداً...

شهق بدهشة: حقاً؟ ألم تنامي ولو...

قاطعته: لم أنم ثانية واحدة.

أبعدها عنه قائلاً: بعد أن تملّى في وجهها، قبّلها بحنان: لماذا؟

- هكذا، لا أستطيع أن أغفو إلا في سريري...

- لكن لماذا لم توقظني، لماذا تركتني أنام؟

- ولماذا لا تنام، كنت متعباً للغاية.

- لكن ماذا فعلت طوال هذه الساعات.. ألم يهدك التعب.

- لقد تفرجت على لوحات الرسام، وشربت القهوة...

رجته أن يلبس ملابسه ويوصلها إلى المحطة، شدّها بقوة إلى حضنه قائلاً لكم أرغبك... لكنها انتزعت نفسها بقوة من ذراعيه قائلة بعصبية لم تنجح في إخفائها: أرجوك أنا منهارة من التعب ويجب أن أسافر.

قال كالمعتذر: حسناً، دقائق قليلة، سآخذ دوشاً بارداً، هل تمانعين.

قالت: لا أبداً..

www.ibtesama.com

خرجت تنتظره في الصالون، وحين رجعت لتتفقده.. سمعته يتحدث إلى الهاتف، تسمّرت مكانها وهي تسمعه يقول: كيف حالك، أنا لا أزال موجوداً على قيد الحياة... ما أخبار الصغيرين.. حسناً.. مع السلامة.

أحسّت بغثيان، إنها زوجته ترى ما نفع الندم الآن، فلتؤجل مشاعرها قليلاً، إنها لا ترغب سوى بالنوم، أرجوك أيها النوم اسعفني، اسعفني...

تبادلا قبلة خاطفة في السيارة وهو يوصلها إلى محطة الباصات، نزعت حذاءها من قدميها حال جلوسها في المقعد، أغمضت عينيها ولكن لسوء حظها لم تتمكن من النوم لأن الفيديو كان يبث فيلماً لوحش الشاشة فريد شوقي، وأخذ توترها يأخذ شكلاً هياجياً، وتسارعت أنفاسها، وانتابتها رغبة أن تشد شعرها بقوة، وأن تصرخ وتبكي بصوت عال... وفي استراحة المسافرين لم تنزل من الباص، رغم إلحاح مثانتها عليها كيف تفرغها، لكنها زجرتها قائلة: لن أتحرك من مكاني، ولم ألبس حذائي لأنزل إلى الاستراحة في هذا البرد.. وأخيراً وصلت إلى بيتها متهالكة، كان الغروب يطبق على المدينة يلفّها بوشاح رمادي داكن، وحين انغمست في فراشها وهي تحس أنها تعود إلى رطوبته الحبيبة بعد سنوات طويلة، غطّت في نوم عميق أقرب للسبات.

لكنها استيقظت بعد ساعات لتسرع إلى المرحاض، وحين انتظرت أن تفرغ مثانتها عجزت، كان سلك من نار يحرقها، وقد تحوّل بولها إلى نقاط داكنة تحرقها، عاودت النوم، ولم تستيقظ إلا ظهر اليوم التالي، ليصفعها التهاب المثانة الحاد، وقد تطبل أسفل

www.ibtesama.com

بطنها، وتحوّلت مثانتها لكرة منتفخة، كانت تصدر صرخات حادة كلما همّت بالتبول، واستنجدت بطبيب تعرفه، وصف لها إبراً لالتهاب المثانة، بعد أن طلب منها فحص البول، وشخص لها التهاباً حاداً في المثانة..

اضطرّت أن تلزم فراشها يومين متتاليين، تحت رعاية أختها التي كانت تزورها لتعطيها الإبر... وهكذا انتهت رحلة غرامها الجنوني بالتهاب مثانة حاد، ألزمها فراشها. أما هو وشلّة الفانتازيا، فكانا يطوفان خارج ذهنها بين وقت وآخر وكأنهما ضرب من اللامعقول، ورغم استحضارها للحظات حلوة بينهما، إلا أن صوّرته يمسك سماعة الهاتف ويخاطب زوجته بلهجة الطاعة الزوجية طغت على الصور كلها، بل صبغتها بلون الفتور المصفر تاركة طعم مرارة وندم غريبين، تتعرّف إليهما للمرة الأولى...

أشفقت على نفسها من شدة تأنيبها لتلك المرأة الأربعينية الوحيدة، أشفقت على نفسها من نفسها، وحاولت ذاتها المنهزمة أن تستمع ذاتها المقرعة قائلة: هل كان ليحدث ما حدث لو لم يكن هناك مبررات قوية، أو معقولة لحدوثه؟ لست أنا من تطلب التسلية، وليس هو الرجل الذي يوصف أنه بلاي بوي، إنه في الخمسين ويبدو أنه عارك الحياة طويلاً، ولم يعفه الزمن من آثار السنين في وجهه وجسده، إذاً، ماذا عساها تفسّر ما حدث؟! ظلّ شعور مستمر يلازمها أنه فعلاً يحبها ويحترمها، ولا يمكن أن تكون ساذجة في تبين صدقه معها، كان قد اتصل بها ظهر اليوم التالي لسفرها، وأخبرته أنها مريضة ومتألمة، أبدى أسفه، ولام نفسه كيف غرق في النوم بينما هي صاحية، ردّت ببرود أنه ما من داع لليوم نفسه. فهي قلقة بطبعها، ولا يمكنها أن تغفو إلا في سريرها، مساء اليوم نفسه

www.ibtesama.com

تلقّت هاتف من الكرنك يبلغها عن وصول طرد باسمها، لكنها لم تسارع لاستلامه، بل قرّرت للحظات أنها لن تتسلّمه، واقتنعت أنها يجب أن تقطع صلتها به تماماً، وعادت تتذكره كيف يكلم زوجته بلهجة الطاعة وكأنه يسلمها سنوات حياته. وشكرت ربها أن علاقتها معه وقفت بعد زمن قصير وأكثر ما طمأنها كونه بعيداً ويسكن مدينة أخرى، وهمّت أن تكتب له رسالتها الأخيرة، ترجوه بأدب أن ينقطعا عن المراسلة والمكالمات الهاتفية، وأحسّت برضى بالغ تجاه فكرتها، وأخيراً سامحت نفسها على سفرة الجنون هذه، ووجدت عذراً لها أن كل إنسان يخطئ، وإن دافعها لهذه السفرة كان ضجرها الذي عمره سنوات، ضجر رهيب متجذر عميقاً في روحها، وخيباتها الماضية، لتعترف بصدق بينها وبين نفسها بشوقها للرجل، وتذكّرت كيف أدهشها شعورها وهي تحسّ بثقله فوق جسدها، أدهشها إحساسها بوزنه ذلك الإحساس البسيط المادي الذي نسته لسنوات... أوه كفى، صفحة يجب أن تطوى، عادت تحمد ربها كونه يسكن في مدينة أخرى، لكنها فيما كانت تستعد لإغلاق مكتبتها مساء، فاجأها موظف الكرنك يحمل لها الطرد، ويسألها عن أشرطة تعلم الإنكليزية، والكتاب المرافق لها، شكرته على لطفه، وقدّمت له طلبه بعد أن حسمت له مبلغاً أرضاه... فوجئت بعلبة من الورق المقوى علبة جوارب نسائية، فتحتها لتجد باقة نضرة من البنفسج مربوطة بشريط أزرق، وقد كتب في قاع العلبة: قد تكون معجزة الحب وردة. ورسالة مطوية بأناقة قرب باقة البنفسج، فتحتها لتقرأ، بقلب أخذ يتمرّد إلى إيقاع خفقانه العادي، وعينين بدأتا تلتمعان:

هيام...

www.ibtesama.com

أيتها الفتاة الآتية لتوها
من مكان غامض
أنا أحبك
كما لو أنني «هديم» خبز خمر وحرية

• • •

هذه الشفاه التي لنا
كأنها سقطت ذات يوم
من القمر
لأن ما فيها من الضياء الدائم،
يظل مشعاً في العتم.
كأنما ليقول، وهو صاعد إلى أعلى.
تعال أيها الأب المضيء.
تعال، وخذني إليك.

• • •

ذات دهر من الدهور. . .
وأنت تمرين، خفيفة كالهواء
معطرة كحمل بري
ذات دهر من الدهور. . .
وأنت تمرين هكذا،
إلى جوار مقعدنا القديم.
أمام البحر، في الغابة البعيدة
مدّي يدك، بالأصابع العشرة
واقطفي، من الهواء مباشرة.

www.ibtesama.com

تلك العناقيد المتدلية من القبل السالفة

• • •

أمس
كان طعم غيابك
في مساء القرى الصامت
كالعطش الأكبر.
بعد جولة طويلة.
حول الحياة!
أمس...
كان شكل غيابك
كالطيور البيضاء
وهي تمضي في سماء غائمة!

توفيق

ما بالها ترق هكذا، وهي تمسك بيد باقة البنفسج، وباليد الأخرى الرسالة... أعادت قراءة كلماته، وهي تحسّ بلمعان ثلوج متراكمة في أعماقها، استقرّ نظرها أخيراً في قاع العلبة لتكرّر قراءة (قد تكون معجزة الحب ورقة)، كان شعورها الأولي العفوي حالما انتهت من قراءة قصيدته الرقيقة أنها تمنّت لو تقبّله بقوة، ولامت نفسها على الطريقة القاسية والمتخلفة التي فكّرت بها، وتساءلت: متى سيلفظ تفكيري تلك الطريقة البدائية المتوارثة التي تدرّبت أن أفكّر بها، خاصة حول الرجل والمرأة، وهل سبق أن عاملها رجل بتلك الرقة والشفافية؟! هل خطر لها أنها ستتلقى باقة من البنفسج

www.ibtesama.com

تُرسل لها من مدينة إلى مدينة، مع أرق قصيدة حب، وما ذنبه إن كان متزوجاً، إن كان قد تورّط بسبب نزاهته وتزوّج، إنه أب ومسؤول، أخذت تشمّ باقة البنفسج وهي تعيد تقييم لقائهما، واحسّت كم كان لقاءً حميماً ودافئاً، ومفعماً بالمشاعر، أوه هكذا يتكوّن الحب ولولا تعبها - عدو الحب اللدود - لكانت ابتهجت وغيّرت نظرتها إلى شلّة الفانتازيا.

أسعدها أنه يعيش عبق ذكرياتها، قضت ليلتها تفكّر في حياتها، في الحياة بشكل عام، لأول مرة تفكر بطريقة حرة تماماً من ثقل أفكار متوارثة، وتذكرت بأسى سنوات التحمل في زواجها، ما الذي أجبرها على تحمل زوج يعاملها بقسوة وجفاء لولا أنها ربيت على أساس أن الزواج مقدّس بحدّ ذاته، أما كانت ستتورط بزواج ثانٍ استناداً إلى أفكار ثابتة وسلفية أيضاً، وها هي تعترف بينها وبين نفسها أنها عرفت السعادة الحقّة خارج إطار الزواج، وخارج الشكل الشرعي والمقدس، هله حقيقة مؤكدة لا يمكنها الهروب منها، ولماذا عليها أن تحارب سعادتها وتضع العصي بين الدواليب، حتماً أنها لم ترسل له تلك الرسالة التي تعلن فيها الفطيمة.. يا للخيبة وهو يقرؤها...

وضعت في المسجلة شريط غزو الجنة اللي أهداها إياه، فيما أوسدت باقة البنفسج داخل مزهرية من الكريستال، صغيرة ومزيّنة بزهور حمراء، أمكنها وهي تسمع موسيقاه، وتشم أزهاره، وتقرأ كلماته أن تحس به إلى جوارها، أغمضت عينيها، وهي تتمثّل بحواسها قبلاتهما ووصالهما الدافئ، أحست بوخز لحيته على عنقها وبين ذراعيها، أتراها تحبّه؟ ها قد تسلّل إلى حياتها كما تسلّل رائحة

www.ibtesama.com

الربيع من شقوق النوافذ، إنه رائع، رجل غني، متدفق حيوية وشعراً...

أسعدها أنه يحبها، آمنت بعواطفه، جميل أن تكون مشرقة لهذه الدرجة، كانت تنتظر مكالمته الهاتفية التي صارت من أهم طقوس علاقاتهما، كل مساء حوالى الساعة العاشرة يتصل قبل أن ينصرف من مكتبه، وها هو الهاتف يرن جاعلاً قلبها يخفق بقوة كما لم يخفق وهي في الرابعة عشرة، لكن أملها خاب وهي تسمع صوت صديقتها المفضلة بشرى، تشكو من الضجر، من الاختناق، من ضياع الشباب هدراً، دون حب، ودون علاقات اجتماعية مسلية ومفيدة في آن، لم تعد تحس أنها تنتمي للخانة التي تنتمي إليها بشرى، إنها الآن تصغي لموسيقى غزو الجنة، وتستعدّ لغزوها فعلاً، إن الحياة تقدّم لها حباً استثنائياً عاشقاً له طعم ابراري، ورائحة الزهور الغريبة، إنها مدعوة للمغامرة، أوف، يا لضجر الأيام العظيم الذي كانت تعيشه، يا لقحط الأيام يا بشرى، ما عليك سوى بالبحث عن عاشق شاعر يلوّن حياتك، ويحرّرها من الموت اليومي للروتين...

حتى شلّة الفانتازيا شملتها بخيالها، وماذا يعني أن يكون لكل رجل حبيبته؟ وما ذنبه إن لم يوفّق في زواجه، هل يحرم عليه أن يبحث عن السعادة مع امرأة أخرى؟ وكل إنسان حر بحياته الشخصية واختياره، فليختر الرسام امرأة تكبره، وليختر اللواء فتاة في عمر بناته، ما علاقتها هي؟ إنها لا تريد أن تكون ديّانة، ولا أن تزيّن تصرفات الناس بميزان الذهب، وتذكرت كم كانت مدلّلة ومحترمة وسطهم، ما الذي يدفعهم لاحترامها ومحبتها، لو لم يكونوا طيبين في أعماقهم، الا يجب أن تحمد ربها أنها التقت بأشخاص ظرفاء

www.ibtesama.com

يعرفون التمتع بالحياة، وهل يعقل أن تظل حياتها مقتصرة على المكتبة والكتب، وأسرة أختها، وبشرى... تفكّرت قليلاً وأردفت والبحر، واعترفت أنها لولا البحر لكانت جنت ربما، وأنه الصديق الحقيقي على مدى الأيام...

فاضت قريحتها للكتابة، كانت الساعة تتجاوز العاشرة والنصف مساء، ترى لماذا لم يتصل؟ بالتأكيد لديه عمل، قامت إلى مكتبها، وابتدأت رسالتها بجملة «إنها تتعثر بسعادتها، وتكتشف مشاعر جميلة ورقيقة، في أعماقها كانت قد نسيتها... وأن كلماته تنعش يومها واليوم اللي يليه، وأنها سعيدة وهي تفكر به، وتنتظره»...

رنّ الهاتف ليقطع سلسلة أفكارها، كان هو، ابتدرها قائلاً: كيف صحة حبيبتي...

قالت: حبيتك شفت بياقة البنفسج، وبالكلمات الرقيقة...

قال: لشد ما أتمنّى أن أكون بجانبك الآن..

قالت: وهي تحس مدى الصدق في صوتها: وأنا أيضاً.

قال: أعذريني على التأخير في موعدنا المسائي..

قالت: لا بأس، كنت أكتب لك...

قال: حقاً، اقرئي لي ما كتبت.

قالت: لا، سوف تقرأه غداً...

قال: أين تنوين أن تقضي عطلة نهاية الأسبوع.

قالت: كالعادة، إما مع بشرى، أو مع أختي، ألعب ما ياسمين.

سأل: أليس من احتمال آخر...

أحسّت كأنه يخفي عنها شيئاً، قالت: اقترح أنت...

قال: تلقّيت هاتفاً منذ دقائق، يخبرونني عن وفاة زوجة واحد

www.ibtesama.com

من أعز أصدقائي في طرطوس...

قالت: حقاً، إذاً سآتي...

قال: حتماً، سأكون عصر يوم الخميس عندك...

خفق قلبها بقوة قالت: كم يجب أن نشكر الأموات وهم يدعونك لتعزي بهم.

قال: هذا ما كنت أفكر به، لكن هل أفرحك خبر حضوري؟

ردّت في الحال: بالتأكيد، لكن لماذا تسأل؟ هل تشك أن أفرح بقدومك؟

قال متردداً: لا، لكن..

قاطعته: لكن ماذا..

قال: حتى الآن لم أسمع منك كلمة حب..

أطرقت، معه حق، لكن، كيف سأعبر له، أنها تحبه، لكنها لا تعتقد أن شعورها تبلور تماماً، فليعفها من الكلمات، والكلمة مُبطنة بوعد، حتى لو لم يصرّح به ليبقى في حياتها قمراً جميلاً وبعيداً وحراً.

قالت: في الحقيقة، أنا ما عدت أؤمن كثيراً بالكلمات...

قال: إياك أن تظني بي أنني أعاتبك، أو أطلب منك شيئاً، أنا مكتف بما تودينه لي من مودة.

قالت بمرح: أكن لك أكثر من المودة بكثير...

قال: أنت حبيبتي المؤكدة...

أثر بها صوته الدافئ وكلماته لدرجة أن كلمة حبيبي كانت تفرّ من بين شفتيها لكنها لجمتها، أنها لا تقدر أن تقولها بعد، أحسّت باللهب يخزّها قليلاً، لكن، فلتترك نفسها على سجيتها، إنها تحتاج

www.ibtesama.com

لزمن أطول ربما يجعلها تصدق أن ما يحصل معها واقع حي، وليس وهم أو خيال...

• • •

كعادتهما، اتفقا ألا يتحدثا مع بعضهما في اليوم السابق للقائهما، فكرت أنها ستخترع علراً يمكنها من الهرب من أختها ومن بشرى، لتعيش يوماً ونصف خارج قوسي مدينة الضجر، تساءلت أين عساها تلقاه؟ ولو قصد أحد الفنادق لن تتمكن من زيارته، وبدا لها أمراً مشيناً ولا معقولاً أن تمنع الزيارات المختلطة في الفنادق، ولا يمكنها أن تستقبله في بيتها لأن الجيران يراقبون تحركات امرأة وحيدة ومطلقة، ولو رآه أحد داخلاً أو خارجاً من بيتها لفجّت الفضيحة في المدينة في نفس اللحظة... ترى أين سيختليان مع بعضهما... ووجدت الحل سريعاً، سوف تطلب إليه أن يستأجر شاليه، أحست بالرضى حين توصلت لهذه الفكرة، عليها الآن أن تتهيأ نفسياً لاستقبال رجل نجح بالنفوذ إلى حياتها وأعماقها بقوة سحره الشخصي، إنه حتماً يملك سحراً خفياً، لا يملكه أحد من الرجال الذين تعرفهم، والذين لم ترغب يوماً ما بتقبيل أحدهم طوال سنوات طويلة من معرفتها بهم...

• • •

فاجأها عصر الخميس بدخول مكتبتها، الغاصة بالزبائن، اضطرت أن تسلم عليه بتحفظ، كان يحمل رزمة كبيرة من الأغراض وضعها فوق مكتبها، أخذ يتأملها بعينين مشتاقتين وهي تحاسب الزبائن وترد على أسئلتهم، وحين تمكنا من الاختلاء مع بعضهما أخيراً، قفزت أصابعهما تتعانق بقوة، سألته وهي تشعر بدفء جديد

www.ibtesama.com

بشيء من جلدها.

- إيه، هل قمت بواجب التعزية؟

- رد ضاحكاً: بالتأكيد.

- حملت الرزمة الثقيلة، سألته: كل هذه الأغراض لي.

قال: أجل.

كانت علبة الفاكهة المجففة على السطح، تليها منفضتا سجائر بشكل قلب أبيض مؤطر بإطار أحمر، وقد كتب في قاع المنفضة بالفرنسية، وبخط جميل: صعب، صعب أن تبقى وحيداً، شكرته وهي تبدي إعجابها الشديد بمنفضتي السجائر، وفي أرض الرزمة كانت لوحة رائعة بالألوان المائية، وقد رسمها صديقه الرسام، تمثل طريقاً ريفياً محفوفاً بالأشجار المتعانقة، مشكلة قوساً في الأعلى، تخترقه أشعة شمس خالتة، وطفلين يسيران في الطريق متجاورين، وقد أدارا ظهرهما للمتفرج كانت قصاصة ورق مطوية، وملصقة بزجاج اللوحة وقد كتب عليها: من توفيق إلى هيام مع حبي.. وآخر ما حوته الرزمة ثلاثة قضبان من الزنبق الرائع الفوّاح... وصفت نفسها بأنها أكثر من سعيدة، وأن هداياه لها مدلول رائع، كانت تحضر القهوة في الزاوية القصية للمكتبة، وتسأله إن كان متعباً من السفر، وكيف كان الطريق.. قال إن كل تعبه يتبخّر حين يراها، وأن صورتها لا تفارق خياله، وهي تشرب قهوتها. طلبت فليبونه، وأخذت تنفخ الدخان متشهية، كانت تتحسّس سعادتها كما تتحسّس الدخان، قال لها إنه لم يتوقّع أن يكون البرد شديداً هكذا أخبرته أن موجة من البرد القارس ابتدأت منذ يومين، ويقال في النشرة الجوية إنها ستستمر أسبوعاً، وأنها قادمة من تركيا... اتفقا أن يستأجرا

www.ibtesama.com

شاليه، وأن يتظرها تمام السابعة والنصف في آخر شارع المكتبة.

كانت سعادة حيوية تتقافز من روحها، وهي تغلق المكتبة قبل أوانها، لتسارع إلى السوق تشتري له كنزة رائعة من اللونين الكحلي والخمري، مع خطوط سوداء ورمادية طويلة، وصففت الدرج لاهثة، لترتدي تايورها الأحمر من الجوخ ذا الأزرار الذهبية الكبيرة، وترش الكثير من الأوبيوم على رقبتها وشعرها، ولم ترد على الهاتف الذي ظلّ يلح طويلاً، أرادت أن تكحّل عينيها بطريقة جديدة، وأن تبدو مختلفة متجددة، متماشية مع سيل من المشاعر الحية المفتوحة الشهية للحياة الحب، نظرت إلى نفسها في المرآة، وخاطبت صورتها قائلة: فعلاً، أنت جميلة، ما من شيء يجعلك جميلاً سوى الحب، منذ سنوات لم تمشي بخطا متسارعة لملاقاة حبيب، لم تبال بالبرد الشديد الذي جعل الدموع تسيل من عينيها والدماء تتجمّد في وجنتيها وأطرافها، كان بانتظارها مبتهجاً، زفّ لها خبر استئجاره شاليه صغيرة ومنعزلة، قدّمت له الكنزة الصوفية، فلبسها قائلاً إنها أجمل كنزة لبسها في حياته، انطلقا إلى مطعمها الأثير، استراحة السيدة، كانت الريح في الخارج غاضبة بشدة، تعصف بالأشجار دون رحمة، لكنهما كانا لامبالين، منتشين بسعادة تنمو بينهما وتزداد كل لحظة...

استقبلهما صاحب المطعم كعاشقين اعتباريين، كان قد أحضر معه زجاجة الويسكي، وطلب من صاحب المطعم أن يحضر لهما عشاء يليق بمغامرين فصداه في هذا الطقس العاطل... أول ما فعله صاحب المطعم أن أشعل النار في المدفأة، ثم أحضر لهما كأسين وزجاجة ماء ووعاء ممتلئاً بالثلج، شربا نخب علاقتهما المتميزة

www.ibtesama.com

وشربا نخب المبتين، اللذين لولا مغادرتهما الحياة لما توفرت لهما فرصة التعارف واللقاء، أخذا يتحدثان عن الحب كغاية وحاجة أساسية في الحياة، مكتشفين كل بطريقته ومن خلال ذاته حلاوة الحياة وروعتها حين نتعامل معها بقلب محب، حدثته كم صارت أكثر لطفاً ورقة مع الزبائن، وأنها صارت تبتدرهم بأسئلة وتساعدهم في اختيارهم للكتب، حتى قصصها التي تؤلفها من خيالها لياسمين صارت نهاياتها أكثر سعادة، ولاحظت الصغيرة التغير في قصص خالتها وقالت لها مساء البارحة: احكي لي قصة بتفرح مثل البارحة...

موجة الدفء واللطف تغمره بدورها، حدثها عن صداقته مع موظفي الكرنك، وكيف يدفع لهم أضعاف ما يتطلبه إرسال طرد أو رسالة، وصف لها إحساسه وهو ذاهب لتسلم رسالتها، قائلاً: هل تعرفين الجرو الصغير كيف يلاحق أمه. هكذا أكون وأنا ذاهب لاستلام رسالتك، حتى أن موظف الكرنك أشفق عليّ ذات مساء وقال لي: يا أستاذ تفضّل اقرأ الرسالة في مكتبنا، بدل أن تقرأها في الخارج...

كان صاحب المطعم قد ملأ طاولتهما بأشهى المقبلات، لكن هياج مشاعرهما جعلهما يعزفان عن الطعام، ولا يأكلان سوى القليل، حكى لها عن صداقته مع الويسكي، وسمّاه صديق أسفاره، سألته إن كان يشرب كل يوم، فأجاب بالنفي، قال إن للشرب طقوساً معينة، وأنه لا يحب أن يشرب وحده أبداً، ابتدأت نتف صغيرة من الثلج تتساقط في الخارج، ضحكت مبتهجة قائلة: أتعرف منذ سنوات طويلة لم يسقط الثلج في اللاذقية، لعلك جلبته معك...

www.ibtesama.com

شربا نخب الثلج، وحين غادرا المطعم وقفا متلاصقين ونتف الثلج تتساقط فوقهما، تبادلا قبلة طويلة أسكرتهما فيما كانت نتف صغيرة من الثلج تتقافز سعيدة على وجهيهما.. ظلا صامتين كل طريق العودة، بحثت عن شريط شهرزاد ليسمعاه معاً كما في اللقاء الأول، كانت متحفزين ومنتظرين لتلك اللحظة التي ستضمهما فيها الشاليه، كانت حمى أشواقهما قد بلغت أوجها، وساعدها الويسكي في الانطلاق من عقالها، وما أن اختليا في الشاليه حتى التحما للحال بعناق بدا إلهياً، ومحرراً لها من أثقال الماضي، إنها لا تعي شيئاً الآن سوى أنها بين أحضان رجل تحبه، كان السرير عارياً سوى من شرف رطب، والبرد شديداً لدرجة أن أسنانها كانت تصطك مصدرة صوتاً كالقرقعة، همست أوه أما من وسيلة للتدفئة؟ همس بأذنها: سأدفئك. تمدّدا على السرير البارد، وهما يشعران كيف يتآلف جسداهما بطريقة عجيبة لكأنهما متحابان منذ سنوات، كان يتعشّق خطوط جسدها، واعترفت له بجرأة لم تتوقعها إطلاقاً في نفسها، إنها لم تعرف حقيقة النشوة إلا معه... واعترفت له أنها تحبه، ومتأكدة أنه رجل حياتها، وأخفت تناديه حبيبي وهو محلّق في فضاءات من النشوة والانشراح...

كانت الساعة تقترب من الثالثة فجراً حين انتهيا من عزف سمفونية الحب، انسلت خارج الشاليه كاللصة، وحين أوصلها إلى بيتها، تمنّت لو تدعوه لينام في بيت دافئ، وغصّت وهي تسأله: كيف ستنام في الشاليه دون غطاء... لكنه طمأنها قائلاً: لا تخافي عليّ، ألم أخبرك أنني أستحم كل صباح بالماء البارد

لم تنم تلك الليلة، أخذ جسدها يرتجف، وأشواك حادة تخز

www.ibtesama.com

بلعومها، وعند الفجر كانت بحالة سيئة وألم بلعومها يزداد، حتى ما عادت قادرة على بلع ريقها دون أنت قول آخ متوجعة، أخلت حرارتها، وشهقت حين قرأتها /40/ ، كانت تعاني من التهاب بلعوم حاد، وتجرّعت الأدوية الضرورية، وشربت البابونج، والزهورات والشاي، وتحاملت على نفسها، ولبست كنزتين من الصوف ومعطفها المبطن بالفرو، وانطلقت إليه، وجدته بانتظارها في الشالیه جالساً يرتعد من البرد، اعترف لها أنه لم ينم بسبب البرد، وأنه لم يمر عليه في حياته مثل هذا البرد، أخرجت من حقيبتها ظروفاً صغيرة من الشاي، شرباه متلاصقين، أخذ البرد يتراجع خارج حدودهما، وفجأة التحما ومارسا حباً عاصفاً لكأنهما لم يقضيا الليل مسهدين، مهدودين من التعب والمرض، كان للسعادة طعم كثيف وحلو ولا يمكن مقاومته... دعته للغداء في مطعم يطل على البحر، لكنه أصرّ أن يتغديا في مطعمهما - كما يسمّيه - وانطلقا إلى استراحة السيدة، ولم تتمكن من ابتلاع الطعام لأن بلعومها كان يخزها بأشواك متزايدة، كانا يخططان لعلاقتهما، ويخلقان بخيالهما فرصاً للقاء، قال لها منبهاً: بعد أيام سيكون 6 آذار، سنحتفل بمرور شهر على تعارفنا... قالت مبتهجة: أجل معك حق، يجب أن نحتفل... سألها: ألا يمكنك الحضور إلى دمشق... ومرّ بذهنها رحلتها الأولى الشاقة والتي انتهت بالتهاب مثانة حاد، لكنها ابتسمت قائلة: لم لا، سأحاول. وحين تركها تترجّل من السيارة في أول شارع بينها، أحسّ كأن روحه تنسحب منه، وأمكنه أن يلاحظ التماعة عينيها، وأن يلمح دموعاً تترقرق فيهما... أمسك يدها قبل أن تغلق الباب وراءها قائلاً: كم هو

www.ibtesama.com

صعب عليّ تركك هكذا... همست وهي تقول: وأنا أيضاً... أوصاها أن تهتم بصحتها وأن تكثر من السوائل الساخنة لتداوي التهاب بلعومها، وأوصته أن يكون يقظاً في طريق العودة، وألا يستسلم للنعاس، وألا يسرع...

• • •

كانت ترشف الشاي مع الليمون، وتربط عنقها بشال من الصوف، وتصغي بحواس جديدة، لموسيقى ساحرة لأشهر أغاني السينات الإنكليزية، من يوم عرفته والموسيقى لا تتوقف تصدح في بيتها، لقد غزاها بأشرطته، أكثر من ثلاثين شريطاً أرسلها لها تباعاً في الكرنك، كانت تفكر كيف يأتي الحب مباغتاً، وفي الوقت غير المنتظر أبداً، وبعد أن نكون قد اتخذنا القرارات بلامبالاته وسخفه، أوه إنه الحب يشرق دوماً من قاع اليأس، حين توصد بوجهنا كل الأبواب، وحين نعتقد أننا استنفدنا فرصنا في الحياة يفاجؤنا سخياً دافئاً مدهشاً، كانت تلاحق ألسنة النار في المدفأة، وتتمنّاه إلى جانبها في الصالون الكبير، تفاقمت أشواقها، وأمسكت قلمها وورقتها لتسطر له رسالة ناسية أنها قد أرسلت له رسالة صباح اليوم نفسه، فلتكتب له رسالة في الصباح وأخرى في المساء، ابتدأت رسالتها بعبارة حبيبي الأبدي، لكنها توقفت وقد تحوّل نظرها فجأة إلى الهاتف، إنها ترغب أن تسمع صوته، وتحس بأنفاسه، فلتتصل به تذكرت أنه ذكر أمامها أنه لا يوجد أي حرج إذا اتصلت به إلى بيته، لكنه يفضّل أن تتصل به في مكان عمله... أخذ قلبه يخفق وهي تدقّ للمرة الأولى رقم هاتف بيته، سرت قشعريرة في جسدها وهي تتخيل أن صوته سيأتيها بعد قليل، أحسّت كأنه سيقبّلها

www.ibtesama.com

ويحتضنها، لكن الرنين توقف فجأة وأتاها صوت أنثوي حيادي ويبدو مستقراً ومرتاحاً: ألو، ألو...

غامت ملامحها وراء غيمة في الغمّ - إنها زوجته - كانت قد نسيت أنه متزوج، أحسّت أنها تهبط في مظلة من عالم أحلامها الوردية إلى واد سحيق، إلى عالم جاف يقتل البهجة والبسمة بكلمة ألو تصدر من حنجرة زوجة، أغلقت السماعة وتساءلت بحرقة: مَن تكون تلك المرأة؟ وما علاقتها به، وسخر منها صوت قادم من مكان ما في داخلها: إنها زوجته، المرأة التي عرفها منذ عشرين عاماً والتي تزوجها وأنجب منها ولديه...

غاص قلبها وهي تحس بقهر شديد كون تلك المرأة تفوّقت عليها لسببين أولهما أنها حملت وأنجبت والثاني كونها تزوجت الرجل الرائع الذي تعشقه الآن، لكن أإلى هذا الحد تضطرب وتتأنى لمجرد سماعها ألو من حنجرة زوجته، أليست حبيبته الوحيدة والمؤكدة كما يقول، وهو الذي يرسل لها وروداً وفاكهة مجففة في الكرنك، ويكتب لها أشعاراً، ويقطع عشرات الكيلومترات ليراها؟! لما بالها الآن تزلزلت، وتضعضعت، لكأن هزّة وجدانية موشكة على الحدوث... أخذ عرق بارد يتصبّب من جبينها في الوقت الذي حرارتها تتجاوز التاسعة والثلاثين... ألمها ضعفها وشعورها بحاجتها له، وأحست أنها طفلة مريضة ومتروكة لزمن طويل وحيدة ويائسة، لكن أين تراه يكون؟ إنه ليس في مكتبه ولا في البيت، لكن عجباً كيف تؤكد أنه ليس في بيته، الأنه لم يرد على الهاتف، وتخيلته إلى جوار تلك المجهولة المؤكدة يتعشيان أو يرشفان الشاي، وتجمّدت مشاعرها وهي تقارن بين صورته مع

www.ibtesama.com

زوجته بشامران، وبين وحدتها القاسية، وهي مريضة تلف شال الصوف حول رقبتها وترشف الشاي مع الليمون، وتحلم به بكل طاقتها على الحلم، وتحبه مفتعلة مشاعر إيجابية دافئة في الوقت الذي يلهو فيه مع زوجته وطفليه.. هاج غضبها عظيماً، وتمنّت لو تشاجر معه وتعنّفه على إهماله لها... لكن مهلاً، مهلاً يا عزيزتي، ما ذنبه هو، هل تغلين من الغضب لمجرد سماعك صوت زوجته؟ من أين أتاها هذا الصوت؟ لا تعرف، لكنها صرخت بصوت مسموع: لكنها موجودة، وسخر منها صوت وحدتها قائلاً: الآن أحسست أنها موجودة لمجرد سماعك صوتها؟ ألم يقل لك مراراً إنه لولا أولاده لتركها منذ زمن، وأنه يبكي طويلاً ساعة تورط وتزوّجها... قامت لتشرب الدواء، ونصبّ لنفسها مزيداً من الشاي، رنّ الهاتف فخفق قلبها بقوة معتقدة أنه هو، لكن أملها انطفأ وهي تسمع صوت أختها تسألها إن كانت تريد شيئاً، شكرتها وأعلمتها أنها ستنام كي لا تعاود الاتصال...

أحست باستفزاز يتنامى في نفسها، ستعاود الاتصال به، إن معركة خفية تنشأ بينها وبين تلك المجهولة المؤكدة المتربعة في صدر بيته، يراها كل صباح ومساء، يتناولان الغداء معاً، ويسهران معاً، وينامان... أوه، لا، غير معقول أن يقربها، على الأقل لا يفترض به أن يقربها بعد أن أحبها، وعرفها، بعد أن انصهرا وصارا واحداً، أجل، الحب لا يعرف الشركة، لقد وهبته نفسها وجسدها، وعليه أن يكون مخلصاً لها ولا يخونها مع زوجته، وانفجرت ضحكة ساخرة من مكان ما حولها وصوت هازئ يقول: يا للمهزلة، صارت معاشرة الزوج لزوجته خيانة، وتخيّلت جمهوراً من الرجال والنساء

www.ibtesama.com

يضحكون من منطقها، رفعت سماعة الهاتف وعاودت الاتصال وقلبها يخفق، تركزت حواسها في أذنيها، ستحاول أن تحلل شخصية تلك المرأة من صوتها، من مجرد كلمة ألو... وأتاها صوته قريباً ودافئاً كما تعهده، خفق قلبها واضح أنه يأكل، همست له: هلو أنا...

قال مرتبكاً: آه، أهلاً أهلاً، كيف الحال...

قالت: اشتقت إليك، هل اشتقت إليّ؟

قال: جداً، جداً، كيف الصحة...

كان يمضغ لقمته مما جعلها تفقد كل رومانسية، حدثت نفسها أنه يتناول عشاءه، إذاً ولا يبالي بي، لكأنه يخونها إذا تناول عشاءه مع زوجته..

قال: سيصلكم الطرد غداً ظهراً...

قالت: أجلس وحيدة، أتذكر كل همسة ونظرة وكلمة...

قال: وأنا أيضاً، كيف أحوال الطفل عندكم.

غضبت قائلة: ما بك لا تقدر أن تتكلم، عجباً هل تراعي مشاعرها لهذه الدرجة، ألم تقل إنها لا تعني لك شيئاً سوى كونها أماً لطفليك... هل أنت جبان؟ أيعقل أن تكون جباناً؟!

ردَّ مرتبكاً: عظيم جداً، لكن..

قاطعته قائلة: أنا آسفة، لم أتخيل أبداً أنك يمكن أن ترتبك هكذا، وأعقبت بلهجة أقسى: آسفة مجدداً، اعذر لي من المدام.

أغلقت السماعة دون أن تسمع رده، ودون كلمة وداع، قامت تتمشى في الصالون بعصبية، وتوقف ساخطة موسيقى السيمفونيات الرومانسية، حبست الهواء في صدرها مغتاظة وقالت وهي تكزّ على

www.ibtesama.com

أسنانها: أنا المغفلة المسكينة أجلس بغباني اكتب له، وأسمع موسيقاه، وأنتمي حبي لها بينما هو - وبكل صفاقة - يتناول طعام العشاء مع زوجته... لكن مهلاً أهي الغيرة؟ تساءلت رغم غضبها.. في كل الأحوال لم يكذب عليها، لقد عرفته متزوجاً وأباً منذ البداية، وأحبته وهو بوضعه الحالي، فأين الخلل؟! أوه ليته إلى جوارها الآن، لكن عليه أن يقضي أربع ساعات على الأقل مسافراً ليصل إليها، ويحتاج مثلها في العودة، تنهدت وهي تقاوم غصة قاسية تقبض على حنجرتها: ألا يكفي أنه متزوج، وفوق ذلك بعيد...

خبت ألسنة النار في المدفأة، كما خبا هيجان مشاعرها التي ابتدأت بوجد عالي المستوى وأشواق راقية كالموسيقى التي أهداها لها، ثم تحولت إلى غضب وسخط من صوت الزوجة، وأخيراً رماد، مجرد رماد، أحكمت شال الصوف حول رقبتها، ابتلعت دموعها بصعوبة بالغة، لأن تقبيح لوزتيها سبب لها آلاماً شديدة، اندست في فراشها وهي تحاول طرد صور مبهمة تصوره ملتصقاً بزوجته...

• • •

أفاقت قبل طلوع الفجر، وهي تجد صعوبة بالغة عند البلع، أعدت قهوتها وهي تحس أن كآبة مُرّة تقطر من وجهها، انتابها شعور باليقين أن وحدتها هي الشيء الوحيد المؤكد في حياتها، وأن كل مشاعرها الأخيرة مفتعلة هدفها الهروب من وحش الوحدة، وتساءلت بجدية: هل أحبته حقاً؟ أم أردت أن ألوّن حياتي بلون بهيج؟ أن أقتنص من الحياة مشاعر غنية حية بهيجة لن تسمح لي الظروف أن أعيشها فيما بعد؟ وهل من فيتامين فعّال سوى الحب

www.ibtesama.com

يطرد الوحدة ويخلق السعادة... لكن أي علر هذا أبشع من ذنب!! هل تبرّر لنفسها أن تمثّل الحب وتفتعله، وتكذب على نفسها لمجرد هروبها من الوحدة؟! ولكن هل هناك حدود صريحة بين الرغبة في الحب والارتماء عمداً فيه، وبين وقوع الحب كأمر لا مفر منه؟! تشوّشت أفكارها من الأسئلة المتلاحقة، ما عادت تستطيع التفكير بشكل منطقي، بحلقت في ألسنة اللهب تتأمل تقافز ألسنتها، طالبة معونتها وحرق شوائب تفكيرها، وانبثق سؤال في ذهنها كالفقاعة: ترى هل أبحث عن مجرد حب، أم عن حياة غنية، عن عيش عمق اللحظة، واستنزافها والاندماج بها حتى النهاية؟ وهل من رجل سواه قادر أن يغني حياتها بطريقته. وورود يرسلها بالكرنك، قصائد رائعة يكتبها لها، أشرطة كاسيت، كتب، طرود مشمش مجفف، منفضات سجائر طريفة، اندفاع شديد في حبها وفي تعشق جسدها، وتذكرت صورهما معاً في طقوس الحب الاستثنائية بينهما... ابتسمت رغماً عنها، إذاً إنها تحبه؟ ولم لا؟ وما هذا السخف افتعال الحب، تمثيله؟ من أين تأتيني هذه الأفكار عند هذا الفجر النقي؟ ضحكت وهي تتذكر أنها ستسلم منه طرداً ظهر اليوم، يا له من عاشق بديع، ورغبت أن تحرج نفسها أكثر، تدخل منطقة المحرمات والخطر، واستعادت بذاكرتها أشد لحظاتهما حميمية فوق سرير الشاليه الرطب، وهما يرتجفان من البرد واللذة... وصفعت نفسها بسؤال هل يعقل أن يكون كل هذا الزخم من الأحاسيس مجرد رغبة في الحب؟! ولعظيم دهشتها أتاها الجواب من مكان في نفس أن نعم... وصرخ عقلها متعباً: ماذا كيف تجين بنعم؟! وسمعت صوتاً ساخراً يرد عليها: لأن المرأة تعلمت أن لا تعيش هذه الأحاسيس

www.ibtesama.com

إلا حين نطلق عليها اسم الحب، الحب تستعمله النساء كتأشيرة الخروج بالنسبة لجواز السفر، لقد رُبيت المرأة بشكل عام على الاعتقاد أنها لا تسلم نفسها إلا إذا أحبت، أجل هكذا زرعوا في أعماق المرأة، التي يفترض أن تكون ذات مستوى راق وأخلاق، بتعبير أدق أن تكون طبيعية، المرأة الشاذة هي التي تعيش مشاعر رغبة بكل أحاسيسها وتقول صراحة لنفسها هذا ليس حباً، بل انجذاب، إعجاب، بداية حب ربما...

ولكن، ما هذه الأفكار المتوالدة هكذا، وبهذه السرعة في رأسي هذا الصباح؟ فلأطردها جميعها، ولامت نفسها على جفائها وسوء سلوكها ليلة البارحة، وندمت كونها أغلقت السماعة بوجهه دون كلمة وداع، وعزمت أن تتصل به في مكتبه لتصحيح خطيئة البارحة، وأحست بمشاعر فرح تتقافز في قلبها كألسنة اللهب في المدفأة، ووجدت نفسها تفكر بطريقة لم تتوقّعها أبداً من قبل، حدثت نفسها أنها في التاسعة والثلاثين جميلة وشهية، وتصغر زوجته بعشر سنوات، هو الذي أخبرها أنها تماثله في العمر، وتصوّرتها بدينة، وقد غزا الشيب شعرها، وما عادت تحرك فيه أي شعور، إنها مجرد أم عليه أن يحترمها ويراعي مشاعرها لأجل ولديه، تنهّدت بحرقة إذ ليس بمقدورها أن تلفظ كلمة أم إلا وأشواك تخز قلبها، وتذكّرت وجه ياسمين، الطفلة الحيية التي تسمّيها طفلة السعادة، وحدها هذه الصغيرة قادرة أن تدخل السعادة إلى قلبها، كانت قد قرّرت فعلاً أن تنسى جنس الرجال وهي على أعتاب الأربعين، متبعة حكمة ابتدعتها بعد طلاقها، يوم كنت شابة ونضرة وشهية فشلت، والآن في الأربعين سأعيش علاقة ناجحة مع رجل؟! آمنت بهذه الحكمة

www.ibtesama.com

وسارت على أساسها وقد فقدت شهيتها تماماً للرجل، ولاقت عزلة كبيراً وسط جمهوره من العانسات والزوجات التعيسات والمطلقات، وأخلها عمق تعاسة المرأة في زيجات كثيرة تبدو من الخارج ناجحة ويحسد أصحابها عليها، واعترفت لها بعض النساء أنهن لم يعرفن معنى النشوة الجنسية وهن متزوجات من سنوات، واعترفت بعضهن أنه لا توجد أية علاقة مع أزواجهن منذ سنوات طويلة، وهن ساكنات، راضيات، الخجل والخوف وحدهما يربطان اللسان، ويمنعانه من الكلام، آمنت بعد مشاهداتها الكثيرة خلال سنوات وسنوات أن الزواج في أفضل أحواله ليس سوى مؤسسة يتعايش فيها الرجل والمرأة بهدف التفريخ، وتخيّلت في المستقبل غير البعيد كثيراً سيبطل الزواج، سيصير موضة قديمة... ترى كيف سيكون شكل المجتمع وقتها؟ وتخيلت مجتمعاً وهمياً قائماً على الصدق وحده، يا سلام رائع، يا ليت يتحقق هذا المجتمع يوماً ما، لا يتعامل الأزواج فيه إلا بصدق، يبوحان بخلجات شعورهما لبعض، ويستمران أو ينفصلان على هذا الأساس، وصور لها خيالها أن كل الزيجات ستنفجر كالقنابل، فيما لو اعتمد الصدق قياساً لاستمرارها، لكن عجباً كيف يعيش الإنسان حياته كلها، سواء كان زوجاً أو زوجة وهو يكذب ويداري، يداري ويكذب. إنها سنوات عمره، كل عمره كيف يرضى أن يعيشه ليس كما يرغب؟!!

دبّ النعاس قوياً، مرخياً أجفانها، لعل سببه تفكيرها المنهك هذا الصباح، أو بالدفء الذي غمرتها به السنة النار، قامت إلى سريرها لتنام، وقبل أن تغفو، بحلقت لثوان في غرفتها، تساءلت بألم وهي تغرق تدريجياً في عالم النوم: إلى متى سأنام وحيدة؟!

www.ibtesama.com

لم يمضِ ساعة على نومها حتى أيقظتها ياسمين بصوتها الطفولي العذب، وحدها ياسمين لا تمل من رنين التلفون، رفعت السماعة ليأتيها صوت الصغيرة: خالتو، تعالي اليوم على الغداء...

- حاضر يا ياسمين، ماذا أجلب لك من أغراض.

- علكة.

- فقط علكة؟

- أجل.

- لا سأحضر معي مفاجأة حلوة لك.

- ما هي؟

- لن أقول لك.

- بل أريدك أن تقولي.

- لا، لن أقول - سترينها ظهراً.

- باي.

أغلقت السماعة، كم تحب هذه الصغيرة، إنها تحتضنها كل مرة وتقول لها وكأنها تخاطب نفسها: أحبك، عبادة، أتفهمين عبادة.

أحسّت بتحسن صحتها، انطلقت إلى المكتبة بمزاج مرتفع، تمنّت لو تتصل به، تعتذر منه عن هاتف البارحة، لكن مشاعرها انقبضت فجأة وهي تتذكر صوت الزوجة، الحيادي والرائق، أوه إنها لا تريد أن تسمع صوتها، فلتطردها من ذهنها، فلتنسى وجودها إذا أرادت لحبها أن يدوم، هكذا نصحت نفسها، لكن وقع كلمة يدوم في نفسها، أخذ يتّسع ويتّسع كدوائر متلاحقة بحدتها سقوط حجر في الماء، وأتاها صوت رائق من مكان ما في داخلها رددت رفوف الكتب صداه: وما الديمومة سوى الزواج؟! وفي شرقنا

www.ibtesama.com

الحزين هل تدوم قصة حب خارج إطار الزواج، ألا تموت مختنقة في الأزقة ولي الأفية؟!

رغبت أن تدخّن سيجارة رغم احتقان بلعومها، كانت بانتظار وصول الطرد، ترى ماذا سيرسل لها هذه المرة، رنّ الهاتف، فرفعت السماعة ببرود، إنها أختها بالتأكيد، لكنه كان هو على الطرف الآخر، يقول: حبيتي المتضايقة من نقص الكلام.

قفز قلبها قائلة: أوه، أهذا أنت.. حبيبي أنا آسفة.

تنهّد قائلاً: اسمعي، أرجوك أن تعفي قلبي من اللعب العشوائي به.

قالت: ماذا تقصد؟

قال: حبيتي أرجوك أن تراعي الجو الذي أعيش فيه.

قالت بانزعاج: تقصدها هي.

قال: إنها أم أولادي، يجب أن أحترمها، ألا أجرح مشاعرها أمام عينيها...

احتدّت وقالت: وأنا العشيقة السرية أليس كذلك؟

قال: مهلاً، مهلاً لا تغضبي، أنت حبيبتي، ولست العشيقة السرية، ولست أنا بالرجل الجبان، والذي تغلقين السماعة بوجهه... أرجوك حبيبتي انسي وجودها، لا تخربي علاقتنا بسخافات.

سألت: هل كونها تعيش معك سخافة؟

قال: يا حبيبتي، أنت مصرّة على النكد، ماذا تريدينني أن أفعل، هل أطلّقها؟

قال: لا أبداً، أنا لست شريراً، إنها في كل الأحوال أم

www.ibtesama.com

أولادك.

قال: أنا أحبك، متى ستفهمين، أنك حبيبتي إلى الأبد على الأقل؟

ضحكت وقد لانت مشاعرها: هل هناك أبد على الأقل؟

قال: أجل، لو تعرفين كم أحبك.

قالت: وأنا أيضاً أحبك.

قال: إذاً حبيبتي أرجوك انسي وجودها، كنت سأحدثك عن مفاجأة.

سألت: ما هي، الطرد

قال: لا، بعد ثلاثة أيام سيكون 6 آذار، يجب أن نحتفل بذكرى تعارفنا منذ شهر.

قالت: معك حق.

قال: سنقيم الشلّة حفلة على شرفنا، إنهم مندهشون أنني فارق في الحب.

سألته: حقاً، ولماذا يندهشون

قال: لأنني كنت أعتقد أنني لن أجد المرأة التي تستحق كل عواطفي.

قالت: وهل أنت واثق أنك وجدتها؟

قال: يا للسؤال الغبي، المهم يجب أن تحضري في 6 آذار...

قالت: ولكن كيف سأبرّر سفري؟!

قال: هيام، أنت لست طفلة، ثم من له الحق أن يتدخل في حياتك.

قالت: حسناً، سأرتّب الموضوع، ولكن قل لي، ماذا ترسل لي

www.ibtesama.com

اليوم في الكرنك.

قال: لن أقول، مفاجأة.

قالت: أنت أروع رجل عرفته في حياتي.

قال: هل أنت متأكدة؟ ألست جباناً؟

قالت: أوه حبيبي اعذرني، لم أقصد؟

قال: أنا الذي يعذر لأنني أفهمك وأحبك.

قالت: حسناً، سأكلمك مساء.

سألها: هل دخل زبائن إلى المكتبة.

قالت: أجل.

قال: لن أغلق السماعة إن لم ترسلي لي قبلة.

قالت: أوكي، باي، الآن أغلق الخط أرجوك

• • •

كان الطرد طريفاً للغاية، بطانية صوفية وردية اللون، وقد زينت بأزهار بيضاء، وقفيا زنبق ملفوفين في قطعة من النايلون، وقصاصة ورق، كتب عليها: حبيبتي الحساسة، سريعة العطب، لأجل أن تحتاط من البرد في المرة القادمة.

أهديك هذه البطانية، كي تمنع البرد عن جسدك الذي أعبده.

أحب فيك ائتلاف الروح والجسد..

اعذريني على ضيق الوقت، سأكتب لك لاحقاً.

توفيق.

شذى الزنبق ملأ هواء المكتبة، وطرد رائحة الدواء والمرض والوحدة، قفيا زنبق يتمايلان عاشقين، يا للشذا العطر، وما السعادة سوى شذا الحياة، كم تأسف أنها لم تعرفه منذ زمن طويل،

www.ibtesama.com

تذكرت كم تأسف أنهما لم يلتقيا قبل أن يتزوج كل منهما... شدا الزنبق أشعرها بسعادة الشفاء، وما عاد يلعنها بخزها، انطلقت بخطوات مرحة إلى السوق، واشترت لياسمين دباً ودبة متعانقين وجميلين، يلبسان مريلتين متماثلتين، إنها تحب الحياة، تحب الناس المجهولين اللذين يسيرون في الطريق إلى جانبها، إنها تحب هذا الرجل البديع، الذي تسلل إلى حياتها دون استئذان، عليها الآن أن تستعد لتسافر إليه في 6 آذار عليها أن تحتاط كي لا تعود مريضة ومشوشة.

• • •

أخذت تتأمل أختها وزوجها بعين مراقبة، ومحايدة، تتفرّس بتعابير وجهيهما ونظراتهما الفاترة لبعضهما، والأبعد ما تكون عن حب أو شهوة، وتقول لنفسها هذا هو الزواج، وهكذا يكون الزوجان، كائنين مدجنين، ديك ودجاجة، وضحكت بسخرية وهي تحسّ أنها أدارت ظهرها تماماً لماضيها، وتذكرت روح تلك السنوات بعبارة وحيدة مختصرة: لم أكن سعيدة.

وأسعدها أن تعيش لوناً جديداً من العلاقات، علاقة مثيرة، فيها تحدٍّ لم تعرفه من قبل، تحدٍّ لنفسها بالدرجة الأولى، لما عُلّمت وتُرّبت أن تكونه للأطر السالفة الجاهزة سلفاً، التي اعتادت أن تفكر وفقها، الزواج قيمة مقدّسة علوية، خارجه الحرام، لولا أنها لمحت عرضاً يد صهرها تمتد لتمسح على ظهر أختها بحنان، وليقوم بسببها إلى غرفتها، إلى عشهما الزوجي... انقلب مزاجها في الحال، وقد صفعها خيالها في الحال بصورة زوجته تستقبله بحنان كل مساء، وتلبس قميص نوم شفاف، يبرز ثدييها وخطوط جسدها، دون أن

www.ibtesama.com

يخطر ببالها أنه يهب ذاته كلياً لحبيبة تسكن في اللاذقية، يزورها، موهماً زوجته أنه مسافر للتعزية... أحست بوخزة ألم حقيقية وهي تتساءل، أين تراه الآن؟ وأصرّ خيالها على تصويره عارياً مع زوجته، وعجبت من نفسها، بل ذهلت وهي تساءل: كيف لم يخطر لي أنه يمكن أن يقربها، وهي تنضمّ إلى جانبه كل مساء في الفراش؟ كان تفكيرها قد وصل إلى هذا الحد، حين انتفضت هاربة من بيت أختها مسرعة إلى خلوتها الوحيدة في بيتها. وحين فتحت الباب ودخلت متعكرة المزاج، وعتمة باردة تلفّها وتوحدها مع الأثاث، أشعلت النور، كان كل شيء أبدي ينتظرها، شبه ساخر، شبه عاتب، وشبه مشتاق، همّت أن تشعل النار في المدفأة لكنها عدلت، كانت مهدودة القوى من إلحاح خيالها أن يصوّره يغازل زوجته ويعاشرها بكل الأوضاع التي تعرفها، أو تسمع بها، أحست أنها صرفت طاقات أسبوع كامل في تلك الساعة.. رمت ثيابها جانباً، ولبست قميص نومها، وحين وقفت أمام المرآة لتمسح وجهها بالكريم المنظّف هالها عمق نظرتها، أحسّت أنها ترى قاع روحها كيف يترسّب فيه الأسى، أعطاها الحزن جمالاً، تأملت صورتها طويلاً في المرآة وعادت تتساءل بألم: ما أدراني إن كان على علاقة ناجحة مع زوجته أم لا؟ وتذكرت أنه يصفها دوماً بالشخص اللطيف والمسالم والراجح العقل، إذاً إنه لا ينفر منها؟! وهاج غضب أعمى في روحها كاد يعميها ويخرجها عن طورها، سرعان ما كبحته بقوة مستخدمة أقوى سلاح تملكه لامتصاص غضبها: السخرية.. خاطبت نفسها هازئة من علاقتها معه: في المرة الأولى لسفرك أصبت بالتهاب حاد في المثانة، وفي المرة الثانية

www.ibtesama.com

للفائكما في الشاليه أصبت بتفيّح في البلعوم، وها أنت الآن تستعدين لتسافري إليه، ترى بماذا ستصابين؟ وأنت نرين بعينك المؤكدة بعد أن أسقطت عنها غشاوة الوهم، حياته الأسرية أنه زوج، زوج، قالتها وكأنها تشتمه، لم تعد قادرة على مواجهة صورتها في المرآة همست لنفسها، أنا لست عشيقة، لا يمكن أن يكون دوري في الحياة مجرّد عشيقة، أنا امرأة كاملة، أريد رجلاً لي وحدي، الحب لا يحتمل الشركة، الحب مُتطلب... واستعادت بذاكرتها صورة أختها وزوجها وياسمين، وبطن أختها المنتفخ بالحمل، وقاست بخيالها الحرارة المنبعثة من جو الأسرة، إنها تقدر الآن أن تلمس لمس اليد تلك السعادة المطمئنة والراسخة لجو الأسرة، وذلك النوم الهنيء الذي يغرقون فيه دون مساعدة الفاليوم أو الكحول، وتساءلت ترى هل تبالي أختها الصغرى بتقدّم العمر، وتفكر بالشيخوخة مثلها؟؟ وهي تعيش في كنف زوج يحبها، ومع طفلة رائعة كياسمين..

سرحت بخيالها في فضاءات بنفسجية مبهمة، لا شيء واضح فيها، كانت تفكر مرهفة أنه بالتأكيد سيكون الرجل الأخير في حياتها، في شبابها، وإذا فشلت علاقتها معه، فإنها لن تملك بعد الشهية ولا الجرأة ولا الإرادة لتبدأ مع رجل جديد... واحتّت بصدق أحاسيسها وهي تعترف بينها وبين نفسها أنها لم ترغب يوماً أن تعرف رجالاً كثيرين، وأن أحلامها كانت وردية ومشتركة مع كل الفتيات، حلمت بالحب والزواج والإنجاب، وأن تعيش عمرها مع رجل يشعرها بالأمان والاستقرار، تكون له وحده، لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، ولكن عجباً من مفاجآت الحياة؟ ألم

www.ibtesama.com

يداهمها الحب وهي في قاع يأسها، أما كانت قد وصلت إلى مرحلة، تنظر كل يوم إلى صفحة وجهها في المرآة، وتتخيّل بشرتها وقد كبرت عشر سنوات، أما كانت تشير بسبابتها إلى مواضع في بشرة وجهها وتقول هنا تبدأ التجاعيد، وهنا سترسخ، أما كانت تنتظر الشيخوخة كل يوم، لأنه لا يوجد شيء آخر تنتظره، هل حلمت وهي تتربّع على عرش وحدتها، أن يعشقها رجل متميز بتلك الطريقة الشاعرية والإبداعية، وأن يفتتن بها، ويشعرها كم هي أنثى ودافئة ورقيقة..

ألم يفاجئها سلوكها بين ذراعيه، ألم يطلقها الحب من قمقم الخوف والتقاليد، ومزّق كل اللجم والحبال التي تسجنها، محرراً إياها من مخاوف الطفولة، ومن عقد ذنب المراهقة، ومن سخف الاعتبارات الأخلاقية للبالغين والناضجين...

آه يا لسوء الحظ، رجل متزوج وبعيد، أهذا ما كانت تنتظره؟! أرادت أن تفرّ من حالة الصحو، الصحو المزعج يقود إلى الجنون، خاصة إذا تناسلت الأسئلة بغزارة في دماغها، فلتنم، لتغرق في النوم، النوم يعطّل كل شيء، الأفكار، الأفراح، الأحزان، يمحو كل الوجوه، ويغرق الذكريات في بحر النسيان، أطفأت النور، وابتلعت حبة فاليوم دون ماء، كان جسدها يرتجف من ملامسة الفراش البارد، للحظة ومضت صورته بذهنه يحتضنها، يدلثها، استعجلت الفاليوم كي ينجدها، إنها تريد أن تغيب، أن تنام، حتى لو تكرر النوم بالموت...

• • •

كان نومها سطحياً، وكانت أحلامها كوابيس قصيرة لا تتذكرها

www.ibtesama.com

تماماً، قامت من فراشها مشوّشة الذهن، وأحسّت أن قرارها قد نضج، وآن الأوان لتتصرّف كما يليق بإنسانة تحترم نفسها أن تتصرّف، أكدت لذاتها أن أهم شيء في العالم أن يظل الإنسان محترماً تجاه ذاته، لا يهم إن احتقره الآخرون أو أساؤوا فهمه، إنه يستطيع أن يتجاهل أحكامهم، يستطيع أن يعذرهم على جهلهم وسطحية مفاهيمهم ومحدوديتها، لكن أهم شيء ألا يخاف الإنسان من مواجهة نفسه، ألا يهرب منها حين يجلس وحيداً كل مساء، أمسكت قلمها في وضعية الاستعداد لإطلاق حكم، أجّلته طويلاً تذكّرت أنها طوال معرفتها به لم تكن يوماً مرتاحة، تلك الراحة الأشبه بالنقاء، بالفجر، بالألوان الصافية التي لا تشوبها شائبة، دوماً كانت قلقة، هاربة من أفكار كثيرة، تؤجل مواجهة مواضيع حساسة وأساسية في علاقتها معه، تكذب على نفسها، تجبر زاوية رؤيتها أن تحيد عن رؤية الحقيقة.

تعجّبت كيف يخدع الإنسان نفسه، الآن ترى بوضوح بالغ أنه متزوج وأب وملتزم بحياة أبدية مع أسرته، بل إنه لا ينوي أبداً أن يغيّر أي شيء في حياته، على العكس، إنه حريص جداً على مشاعر زوجته وأطفاله، وما هي بالنتيجة سوى حبيبة أو عشيقة - لا فرق - مجرد محطة عارف سلفاً أنها ستنتهي ذات يوم، عاجلاً أم آجلاً، وأن شرارة الانجذاب والسحر بينهما ستخبو إن عاجلاً أم آجلاً أيضاً... بدت لها هذه الحقيقة شديدة النصوع، لا مجال لتغييرها، وتساءلت بذهول: أية تمثيلية هذه، كنت أقوم ببطولتها، وهالها وهي المرأة الناضجة في الأربعين أن تسافر إلى دمشق وتختار ثيابها قبل يوم سفرها كمراهقة في الخامسة عشرة، بحلقت في الورقة البيضاء

www.ibtesama.com

خالية اللحن، أمامها وقالت: غير معقول، كيف صدرت عني كل هذه التصرفات؟ ولماذا؟ ماذا دهاك يا هيام؟ هل خرفت؟ أهي مراهقة متأخرة؟ لكنك راهقت جيداً، ولم تعيشي يوماً مختنقة بالعقد. كانت أنفاسها تتسارع، وأحست أن رئتيها أصيبتا بثقوب وأن الهواء يصفر فيهما بقوة، استعد القلم في يدها للكتابة، كانت قد اتّحدت تماماً بقرارها، وابتدأت الكتابة، ارتعشت يدها وهي تتذكّر أنها لن تكتب له - كالعادة - حبيبي الأبدي، سيغيّب هذا التعبير اللطيف إلى الأبد، فلتبدأ بالكتابة دون مقدمة، لا داعي لذكر اسمه حتى، ابتدأت بكلمة لا المناسبة جداً للنهايات، وسطّرت كلماتها بيد واثقة، كتبت:

لا داعي أن نستمر في تأجيل سماع صوت العقل، وما سأكتبه كان يجب أن أقوله لنفسي منذ الساعات الأولى لتعارفنا، وأظنك في العمق موافقاً عليه، لكننا متساهلين في مواجهة غرائزنا، لأقل عواطفنا، لكن المواجهة لا بد منها، آه كم أتذكّر الآن أهمية الضمير، إنه الشيء الوحيد الذي يميّز الإنسان عن غيره من الحيوانات، بل يميّز البشر فيما بينهم، صدّقني لم يرتح ضميري يوماً منذ بدء علاقتنا، ولم تغب صورة أطفالك وزوجتك لحظة عن خيالي، وكل الحجج اللامنطقية التي حاولت الاستنجاد بها لنستمر معاً سقطت، أتعرف لماذا، لأنها فارغة من الحق، الآن أقف بخشوع وشجاعة وقوة وأنحني لأحمل صليبي راضية تماماً، الإنسان الذي يحترم نفسه هو الذي لا يتهرّب من حمل صليبه، أرجوك أن تصدّقني أنني بكثير من الود والاحترام أطلب إليك أن تنهي ما بيننا، لا أريد أن أسمّيه، قد يكون حباً، أو جنوناً أو وهماً، قد يكون

www.ibtesama.com

حقيقة أو هروباً، ليس مهماً ما يكونه، ما أعرفه جيداً الآن، أنه يجب إيقاف هذه العلاقة المعاكسة للتيار، لتيار الحق والواجب والضمير، وأنا واثقة أنه في أعماق كل إنسان مؤشر لتصرفاته، راداراً ينذره في كل خطوة أين الصح وأين الخطأ، لكننا نصمّ آذاننا ونعمي عيوننا، هل تذكر يوم تناقشنا، أن ليس كل من يرى يبصر، وليس كل من يسمع يفهم، يجب أن نكون دقيقين ولو لمرة واحدة. أخيراً لن أطيل الكلام، أتمنى لك التوفيق من كل قلبي، وأرجوك أن تهتم كفاية بأسرتك كما يليق برجل ذكي وموهوب ومُحب أن يكون... من ناحيتي أشعر برضى بالغ للقرار الذي اتخذته، لا تفكر أنني سأبكي طويلاً، وسأكون تعسة ووحيدة، بالتأكيد سينتابني الضيق والحزن، إنما سأستعيد مشاعر أكثر أهمية وروعة: احترام الذات، وراحة الضمير، لن أضطر بعد الآن للهروب والخجل من شخصية العشيقة، لي رجاء آخر ألا تكتب لي، وألا تتصل، لنطوي صفحة تلك العلاقة بصمت، ربما الصمت سيكون أبلغ تعبيراً عن الاحترام العميق الذي يكنّه كل منا للآخر. وداعاً.

هيام

طوت الورقة راضية ودفنتها في الظرف، أحكمت لصقه بيمانها، وأسرعت ترسله في الكرنك، غاص قلبها وهي تحسّ أنها تكتب عنوانه للمرة الأخيرة، تسلّمت الورقة المعتادة من الموظف، وقبل أن تنصرف، توقّفت للحظة وركّزت أنظارها على الموظف، لكأن قرارها شمله، لن تراه بعد الآن، ولن تستلم منه طروداً ولا رسائل... كانت قد دسّت الورقة الزرقاء في جيب بنطالها، وانتابتها

www.ibtesama.com

رغبة أن تمزّقها، وأخرجتها من جيبها، لكنها غيّرت رأيها، ماذا لو ضاعت الرسالة! وما أن دخلت بيتها حتى هاجمتها دموع باردة تساقطت حال وقع نظرها على جهاز الهاتف، واختنقت حنجرتها بغصّة قوية وهي تتخيّل أن صوته سيغيب، جلست مهدودة القوى على الأريكة وأغمضت عينيها تاركة لدموعها الحرية في السقوط في كل الاتجاهات، أحسّت أنها محنّطة، وكان وجهه يرتسم تحت أجفانها ذابلاً، قلقاً بعيداً، وتخيّلته يكتب لها قصيدة حب، أو رسالة رقيقة في الوقت الذي كانت تكتب فيه رسالتها الجهنمية، فتحت عينيها، واستوت في جلستها تبحلق في صمت وحدتها، وحانت منها التفاتة إلى أشرطته الرائعة التي كان يرسلها لها، غزو الجنّة، وفرانسيس غويا، وعزف منفرد على الغيتار، وتساطت بجزع: هل ستخلو حياتي منه؟!

يا إلهي لماذا؟ أحسّت أن السعادة تفرّ منها مذعورة كأنها قط تطارده عصا مجنونة، نظرت في ساعتها وشهقت يا إلهي بعد دقائق سينطلق الكرنك حاملاً أقسى رسالة كتبتها في حياتي، حاملاً سكيناً تطعن بها قلب أكثر إنسان أحبها في حياتها، ولم تشعر أنها تحبه، كما أحبته في تلك اللحظات، طارت من الباب، نازلت الدرج، قافزة كل ثلاث درجات معاً، وأخذت تركض باتجاه الكرنك لامبالية بنظرات الفضوليين، مستهترة بالسيارات وإشارات المرور وسمعت صوتاً تعرفه ينادبها هيام، هيام. تلفتت إنها جارتها فاطمة، لوّحت لها بيدها بمعنى فيما بعد، فيما بعد سأختلق لك كذبة لأبرّر ركضي... كانت دموعها تسقط متسارعة مع ركضها، وأنفاسها تتلاحق كأنها ستنقطع بعد لحظات وإلى الأبد... وحين لاح لها

www.ibtesama.com

الكرنك من بعيد، خفق قلبها كان الباص لا يزال واقفاً.. ولم تنظر في ساعتها إنما اجتهدت أن تضبط أنفاسها، وأن تمسح دموعها، دخلت القاعة رأساً، تطلب من الموظف الرسالة، لكنه ابتسم وردّ ببساطة: إن الباص انطلق إلى دمشق منذ ثواني...

سمرتها المفاجأة، قالت: لكنه في الخارج...

ضحك قائلاً: هذا الباص متجهاً إلى بيروت..

قالت وكأنها تخاطب نفسها: إذاً، الرسالة.

سألها الموظف: خير، تبدين قلقة.

استعادت سيطرتها على أعصابها قائلة: لا، لكني نسيت ورقة هامة.

تخيّلته يتسلّم الرسالة ويقرؤها، سينزوي في مقهى ويشرب الويسكي حتى يسكر ويموت، ارتعدت، وأفكارها تتوقف عند فكرة الموت، ستقتله، ستقتل حبهما، أية حكمة جوفاء أن تخلو الحياة من الحب؟ ألم تقل لنفسها مراراً إن هذا الحب الذي نعيشه أجمل من كل قصص الحب التي قرأتها؟ واستعادت بذاكرتها تفاصيل رسالتها التي كانت منذ فترة قصيرة رمزاً للعقل والحكمة والضمير، وكادت تبصق قرفاً كلماتها التي سطّرتها منذ لحظات، أية سخافة لطيمة هذه الرسالة؟ إنها الغباء، وضيق الأفق والمحدودية تجمّع في كلماتها، حب جميل يربط بين قلبين كبيرين متميّزين يجب أن يصان، بل أن يحسّ الإنسان بالفخر والاعتزاز به، أما هي فتلاحقه لتخنقه لماذا؟ لأنه متزوج؟ وماذا يعني ذلك، كم مرة قال إنه تورّط وتزوّج، وأن عليها أن تقبل بشرطه الموضوعي، وأنها المرأة الوحيدة في حياته التي يعبدها، ويعشق ذرات احتكاك ثيابها بالغبار،

www.ibtesama.com

ألم يقل لها يوماً هذه الجملة، فلماذا تطعنه هكذا؟ لماذا تسعى جاهدة للنهاية، وماذا سيتبقّى لها وهي تقف متفرّجة على حطام حب؟ ماذا سيبقى لها سوى رفرف الكتب، والكلمات الميتة؟ وهو سيغيب، يا إلهي أي جنون ركبها وجعلها تكتب رسالة الدمار هذه؟ أي شيطان وسوس لها بهذه الأفكار؟ توقّفت عند إشارة المرور، وأتاها صوت من جهة ما، كيف يمكنها التمييز بين وسوسة الشيطان وصوت الضمير؟!

وحين وصلت إلى بيتها بخطوات متباطئة، وصعدت الدرج متمهلة تتوقّف عند كل درجة، متفكرة بما حدث لها خلال ساعة، كيف قرّرت كتابة الرسالة بقناعة تامة، وكيف اقتنعت تماماً بخطأ ما فعلته؟ أخافها تأرجحها بين التناقضات في أقل من ساعة، عجباً كيف تتردّد النفس البشرية لهذه الدرجة؟ قبل ساعة كانت مقتنعة حتى لب عظامها بتركه، وبعد ساعة صارت مؤمنة حتى لب عظامها أيضاً بالاستمرار معه في علاقتهما المتفرّدة.. ترى أين الحقيقة؟ وتساءلت أيهما أهم الحقيقة أم السعادة؟ احترت بنظرها الجدران والأثاث، أحسّت أنها تمقت هذا البيت، إنه ميت، ميت، قالتها بصوت مسموع، أغمضت عينيها إعياء وتخيّلته مجدداً يتسلّم رسالتها، يا لحزنه الجليل، إنها تعرفه كيف يحزن، ينزوي، ويأكل نفسه، يحرق أعصابه، لكنه لا يتوسّل ولا يستجدي، لماذا تجرحه هكذا؟ وهو الإنسان الوحيد الذي تقدّر مزاياها وأحبها بجنون.. ألم يقل لها إنك اكتشافي الشخصي...

كانت طاقة انفعالها العنيف قد تلاشت تاركة إياها في وضعية الاسترخاء المثالية لاستعادة الذكريات، وأحسّت أن الحياة حلوة

www.ibtesama.com

حقاً بكل مرارتها وقسوتها وفشلها. وأن أجمل تعريف للحياة هو: الحياة هي الحياة، لي تلك اللحظة كانت متصالحة مع ذكرياتها ومع العالم، واستطاعت أن ترى أهمية حبها وفناء، وتفرّده مقارنة لكل ما مرّ معها من تجارب، ليس أروع من أن يجمعك مع شخص، الكلمة والفكرة، وتنبّهت لرقي لغتها معه، لكأنهما ابتدعا قاموساً جديداً، وهل أجمل من أن يغدو الشعر وسيلة تخاطب بين عاشقين؟ أوه يجب أن تتصل به وتعتذر عن رسالتها، ستقول له إن ساعة شؤم دفعت تفكيرها بهذا الاتجاه، إنها تحبه حقاً، لأنه يُحَبّ، ولأن صفاته نادرة، ليته يكون معها الآن وهي بهذا المزاج العالي للحب...

أحسّت بالجوع، قامت تفتح باب البراد، لتأكل أي شيء، كانت بقايا طعام تنتظرها، وتساءلت ونظرها ينتقل بين الأطباق الباردة: ترى ماذا سيبقى لي لو أنهيت علاقتي معه سوى بقايا حياة، بقايا طعام، وقد تتغدّى عند أختها، أو تطلب طعاماً من المطعم، إنما من غير بهجة انتظار...

تنبّهت لرنين الهاتف، أسرعت تجيب متمنية أن يكون هو، وأتاها صوته سعيداً مبتهجاً.

قال: هل فاجأتك...

قالت بلهفة: أهلا أنت، لو تعرف كم فكرت بك هذا الصباح.

قال: وكيف فكّرت؟!

- فكّرت كثيراً، المهم أنا أحبك.

- حقاً؟ أأنت متأكدة.

- لكن.. تلعثمت، كانت تبحث عن الكلمات المناسبة لتبرّر

www.ibtesama.com

رسالتها...

- لكن ماذا؟ هيام لماذا أنت متضايقة؟

- وكيف عرفت؟

- أكون غبياً لو لم أعرف أن حبيبتي متضايقة.

- معك حق، لكن هل لي أن أطلب منك شيئاً.

- أنت تأمرين، ولا تطلبين..

- أشكرك، سنصلك اليوم رسالة مني، أرجوك لا تقرأها، مزّقها.

- أهي رسالة الوداع؟

خفق قلبها قالت: كيف عرفت؟

لم يخف عنها الحزن في صوته قال: هيام أنت غير مقتنعة بعلاقتنا.

- لا تقل هذا الكلام أرجوك.

- لكن، هذه هي الحقيقة، لو كنت مقتنعة لما كتبت...

قاطعته: أرجوك، يجب أن تقدّر أنني بين وقت وآخر أعيش صراعاً.

- هيام، أنا لا أحب أن أكون عبئاً عليك، لا أحب أن تتعذّبي وتتنازعك الأفكار بسببي...

- لكني أحبك..

- هل تريدين أن تعطي نفسك فرصة للتفكير؟

أرادت أن تعرف جوابه لربما لو قالت له: كم من الوقت تعطيني؟

قال: لك الوقت الذي تحتاجين، تأكدي ستجدينني بانتظارك ولو

www.ibtesama.com

بعد سنوات.

رفّت حتى نتحت الدمع من عينيها قالت: كم أحبك.

قال: كم أتمنّى أن أسعدك.

قالت: بعد غد سأكون عندك، سنحتفل بـ 6 آذار، أليس كذلك.

قال: هل ترفضين حقاً بالحضور.

قالت: بالتأكيد.

قال: وأنا أعدّ الثواني لأضمّك بين ذراعي.

قالت: تذكّر حسب اتفاقنا لن تتصل غداً.

قال: أجل، سيكون أطول يوم في حياتي يوم الغد

قالت: فكّر في اليوم الذي بعده، ستكون في انتظاري في محطة الباصات.

قال: سأكون بانتظار أرق وأحلى حيبة...

قالت: إذاً، حتى تلك اللحظة، سنصمت عن الكلام المباح.

قال: أجل، أقبّلك بقوة..

قالت: وأنا أيضاً.

• • •

السفر تجديد بحد ذاته، ها هي جالسة في المقعد الأول تراقب الركاب في المرآة الأمامية الصاحي منهم وشبه النائم، اللي يبدو مستعجلاً وقلقاً، والذي يبدو مرتاحاً ومسترخياً، سألت نفسها متقصدة أن تفتح - هذا الصباح - حواراً هادئاً ولطيفاً مع نفسها، بعد الأيام الثلاثة الأولى السالفة الحافلة بالأسئلة المقلقة: وأنت من أية فئة يا هيام؟ ردّت بمرح: أنا من فئة الباحثات عن الحب، ابتسمت، جملة تصلح أن تكون عنواناً لفيلم ساقط، كانت قد دمّت

www.ibtesama.com

في حقيبة سفرها مجلة أنيقة تصدر في الخليج استعارتها من أختها ما كانت تحب أن ترهق ذهنها في السفر، فتحت المجلة اعتباطاً، وطالعها عنوان كبير باللون الأحمر: خاطفة الرجال، وقد صوّرت عينان مكحلتان بشدة لامرأة، ونظرة ذئبة أو حيوان جائع تطلّ منهما.. عجبت، هل هذا موضوع نجب معالجته؟ وقرأت على عجل صفات خاطفة الرجال، وأنها امرأة ذكية غالباً مطلقة، وذات دهاء وخبرة، تجعلان أشد الرجال إخلاصاً لحياتهم الزوجية يسقطون في حبائلها... ويستشهد كاتب المقال بأمثلة عديدة، فلان كان يعيش بسعادة وأمان مع زوجته وأولاده، إلى أن تعرّف بجارته المطلقة فسحبته من أسرته كما تسحب الشعرة من العجين...

أحسّت بالقرف، ما هذا الهراء؟ وبدا لها الرجل كطفل مسلوب الإرادة، يمكن أن يسبّر ببساطة بقطعة حلوى أو بفخذ امرأة... تساءلت أي مستوى هابط لهذه المجلات؟ وأحسّت أن مستوى أسفافها مقصود ومتعمّد، إنهم يريدون تسطيح مفاهيم جيل بأكمله، ودّت لو تمزّق هذه الصفحات، لكنها عالجت شعورها ببسمة ساخرة. تمنّت لو تتحوّل إلى بصقة، فتحت اعتباطاً صفحة أخرى، طالعها عنوان كبير: جمال يديك، وجمال أظافرك، صفحات تحكي عن العناية بالأظافر، قلّبت صفحات ليطالعها عنوان جديد: الموضة هذا الربيع، كتمت ضحكتها التي كادت تنفجر عالية، وهي ترى إحدى العارضات تلبس زياً له ذنب، وتخيّلت لو يصير الذنب موضة، ذنب حمار أو ذئب أو حصان، أغمضت عينيها متفكرة بالاستلاب الفظيع الذي يعيشه البشر، وصورة عارضة الأزياء بذنب مرتسمة بدقة تحت أجفانها، أقرّت لنفسها أن أغلب النساء لا

www.ibtesama.com

بمانعين أن تنشأ لهن ذهول تقليدية، أو ربما حقيقية إذا تطلّبت الموقف ذلك! فتحت عينيها على ضجّة أشبه بالفرقعة، كان معاون السائق يحاول تشغيل جهاز الفيديو، لحسن الحظ الجهاز معطل، ابتسمت للمعاون تشكره على تعطل الجهاز، ردّ على ابتسامتها قائلاً: أنا آسف.

أسرعت بالرد: من حسن الحظ أنه معطّل، وإلا كنا سنصاب بالصمم.

انفجر الباص بعد لحظات بصوت مطرب ينهق: شفتك عالباب يا كذابة، يا كذابة، يا كذابة... زفرت وعادت تغمض عينيها وهي تقول: يا إلهي ما هذا التعذيب.

لامت نفسها كونها تنتقل من فكرة إلى فكرة دون أن يخطر ببالها الرجل الذي يفترض أن تحبه، أرادت أن تحدّد بدقة لماذا تنشدّ إليه وتحبه، وفجأة أضاء ذهنها وهي تكتشف سرّه، إنه حر، في أعماقه حر، ليس مستعبداً لفكرة أو شخص، لا يقيّده شيء سوى رهافة حسّه، يعرف كيف يحب، وهو معطاء، لتعترف أيضاً أن ثقافته أسرتها، وأنه موهوب في فن الحديث، إنها فعلاً تحبه، بل يجب أن ترجع مشاعر الحب، إن كان هناك ثمة شك، ولامت نفسها على تعبير (الرجل الذي يفترض أن تحبه) خفق قلبها وهي تنظر إلى ساعتها وتحسب أنها بعد ساعة على الأكثر ستكون معه، ارتعشت شفتاها كأنهما تستعدان لتقبيله.. واعترفت ذلك الاعتراف الذي لا يبوح به الإنسان إلا لنفسه: إنها ترغبه وتحتاجه كثيراً، وأحسّت أنها طفلته وتلميذته... سرحت بنظرها من النافذة، بقايا ثلوج مبعثرة هنا وهناك، بقايا ضئيلة جداً مقارنة برحلتها السابقة، غمرها شعور

www.ibtesama.com

بالأسى من منظر الثلوج الذائبة، هل ذكرتها الصورة بذوبان سنوات شبابها؟ ومن أعماقها صعد سؤال يغمرها كأنه من بخار: ترى كيف يعيش الإنسان عمق الحياة؟ وهل هي على خطأ أو صواب؟ وأجابت أنها يمكن أن تكون على خطأ جسيم من نواح، وعلى صواب أكيد من نواح أخرى، وتنبّهت قاطعة الطريق أمام ابتداء الأسئلة المزعجة، مهلاً لتأخذ هدنة من الكلام والأفكار قبل أن تلقاه، إنها أقرب للسعادة، أكثر حياة وحيوية لأنها غامرت وستراه، أما كان أفضل من بقائها محنّطة في المكتبة وفي بيتها؟ أما كان أفضل من الحديث الأبدي الذي يتكرّر كل يوم بينها وبين صديقتها عن قحط الأيام وذبول الشباب، والأشواق المكبوتة للحياة والرجل؟.. أما كان أفضل من تناول الغداء وسط عائلة أختها؟ اعترفت بصدق، أن أهم شيء تفعله أن تقاوم الذبول، أن تعيش انتظاراً حلواً، لا يهمّها شعورها نحوه كم سيعيش؟ ستكون رحلة على أية حال، ستعود أكثر حيوية، حتى لو ندمت، فإن الندم سيكون شعوراً جديداً مختلفاً عن ضجرها الذي تحفظه عن ظهر قلب، أوه العمر يمضي ببساطة كبيرة، سنة، وراء سنة...

انتابها هياج الفرح حين لمحت سيارته، هذه المرة كان بانتظارها خلف المقود، أسرعت إليه، رامية نفسها على المقعد، ووجهها يتهلّل سعادة وإشراقاً، قبّل يدها قائلاً: الحمد لله على سلامتك.

نظرت بآلية انعكاسية إلى المقعد الخلفي، لترى باقة كبيرة من الورد، وقد لُفّت بأناقة ملفتة، وقصاصة ورق برتقالية صغيرة أسرعت بسحبها، لتقرأ: لأنه يوم سعيد أطالب بمئة ألف قبلة. ضحكت قائلة: مئة ألف، هذا قليل، لماذا لا تطالب بـ 600 ألف. قال:

www.ibtesama.com

معك حق. أخرج قلمه من جيب قميصه وحوّل 100000 إلى 600000 ألف قبلة وكتب إلى جوارها صُحح، ضحكا، قالت: فعلاً الحب يجعل العشاق أطفالاً. قال: يجب أن أعترف لك صادقاً أنني لم أحب امرأة مثلك.

كانا في طريقهما إلى شقة الرسام.. سألته باستنكار: كيف يقيم صديقك الرسام علاقة مع امرأة في عمر أمه؟!

قال: هذا شأنه.

قالت: ولكن هذه العلاقة غير عادية.

سألها: لماذا؟

قالت: أتساءل لماذا؟ إنها تكبره بخمسة عشرة عاماً على الأقل.

قال: إنه على علاقة معها منذ خمس سنوات.

شهقت دهشة: أحقاً، أتظن أنها علاقة مصلحة.

استكر: مصلحة، لا أبداً، إن أحواله المادية ممتازة.

قالت: إذاً، ما هذه العلاقة؟ ما الذي يربطهما؟

قال: يا حبيبتي، لا تشغل بالك بهما، كلٌ حر في حياته.

قالت بانفعال: لكن هذه الخلاقة خطأ، ما رأيك أنت.

قال: أنا لست حكماً، ولا أريد أن أقيم سلوك أصدقائي...

قالت: لكني أسألك رأيك.

قال: بالتأكيد ستنتهي ذات يوم.

أردفت: ذات يوم قريب.

قال متململاً: ما أدرانا، حبيبتي، انسي الرسام وعشيقته، ولا تحوّلي تفكيرك إلى صديقي اللواء، وتسألين ما الذي يربطه بالممثلة التي في عمر بناته، انسي كل هؤلاء، فكّري بي، بنا نحن الاثنين،

www.ibtesama.com

نحن جميلان.

قالت: معك حق.

سألك: هل تعرف الشلّة عمق العلاقة بيننا.

قال: حتماً، ألم نحتل شقة الرسام المرة الماضية.

سألت بخوف: وماذا لو ثرثروا؟

قال: هيام، أنت لا تعرفين جوّي الخاص بعد..

ودّت لو تقول: بل أعرفه، لكل واحد من أصدقائك عشيقة وزوجة. لكنها قالت: وهل أنت متأكد أنهم لا يثرثرون؟

قال: أجل، متأكد، ثم إنك غريبة، أنت لا تسكنين في دمشق.

تنهّدت بارتياح: آه معك حق، الحمد لله أنني في مدينة أخرى.

سألها: كيف برّرت سفرك بالنسبة لأختك.

قالت: الكلب، إنهم يضطرونك للكلب.

قال: في هذه الحالة، هلا ليس كلباً.

قالت: بل الكلب هو الكلب.

قال: لا أنا أخالفك الرأي، أنت صادقة ولا ترغبين بالكلب، لكن المجتمع حولك يدفعك للكلب، كأسلوب حياة، وأنت تجاملينه وتكلبين.

قالت: فعلاً، لا تتصوّر كم أتضايق لأنني مضطرة للكذب.

دخلا شقة الرسام محمّلين بالأكياس، كانت قد أحضرت معها سمكاً مثلجاً لشلّة الفانتازيا، وغليوناً هدية له، أحسّت بألفة مع المكان الذي عاشت فيه منذ شهر دهشة اكتشافها الأولي، ابتسمت للوحات بود، كان يحمل باقة الورد وكيساً كبيراً جمع فيه المكسرات، والفاكهة المجففة، وألبوم صور يضمّ صوره في المدن

www.ibtesama.com

التي عاش فيها، أخرج من جيب سترته الجلدية علبة مخملية كحلية وفتحها، وأخرج خاتماً من الذهب أنيقاً، أمسك يمناها وقال أتسمحين...

شكرته معربة عن إعجابها بذوقه، قالت مازحة: ها قد خطبتي.

قال: أجل يجب أن نحتفل بخطوبتنا.

قالت: التي تُعلن بعد شهر من تعارفنا.

اتجه إلى المطبخ وعاد يحمل كأسين ووعاء ممتلئاً بالثلج، أخرج زجاجة الويسكي من كيسه الكبير، وصبّ شراب الحب اللعين.

قالت ضاحكة: مَن يشرب الويسكي الحادية عشرة صباحاً.

قال: وحدهم العشّاق.

شربا نخب دخول حبهما شهره الثاني، وفجأة انتفض وكأنه تذكّر شيئاً هاماً، قال مهلاً، غرقت يده في الكيس الكبير، وأخرج شالاً أسود من الكشمير وقد طُرّزت أطرافه بخيوط ذهبية، قال إنه اشتراه من المغرب حين كان يعمل رئيس تحرير في مجلة أدبية، وأنه أعجب جداً بهذا الشال، وأقسم ألّا يهديه إلا لامرأة يحبها...

سألته: كيف تخطر ببالك هذه الأفكار؟...

قال: لا أعرف، تصوّري، احتفظت به سبع سنوات، وها أنا سعيد الآن أنني أقدّمه لك.

قامت تلفّ الشاب حول كتفيها، لمسته معجبة بنعومته الناعم، قالت: كم هو بديع.

قال: إنه بديع عليك..

تنوّقت مشمشة مجفّفة، قالت له: سأفدو بدينة من طرود

www.ibtesama.com

الحلويات التي ترسلها لي.

سألها: هل تأكلينها كلها.

قالت: طبعاً لا، إن أختي ملحولة بغرامي بالمجفّفات...

ضحكت، وحدها السعادة جعلتها تضحك، وطافت بلمحها صورها في المكتبة محنّطة وكئيبة، صور غائمة وبعيدة، الآن تعيش عمق اللحظة، تتنفّسها، تحسّ بطعمها، للسعادة طعم الويسكي، ورائحة دخان غليونه، لمست آثار جرح في خده الأيسر، وقبّلته.

وها هي بين ذراعيه وجوداً كثيفاً حياً، إنها تقيم احتفالاً بمهرجان الحواس، غابا معاً في عالمهما الشديد الخصوصية، تساءلت وهي تتماهى معه: أكان من الحكمة أن تمنع هذه العلاقة؟ وهل كانت لتقدر على منعها؟ ولي سبيل أي قيمة؟

غطّاها بالشال الصوفي، أحسّت أنها تغرق في غيوبة، هل غفت بين ذراعيه؟ كم من سنوات نامت وحيدة تضم وسادة وحدتها إلى صدرها، وحين استيقظت كانت تشعر بجوع شديد، كانت وحيدة في السرير مغطّاة بشال الكشمير الأسود، شمّت رائحة شواء شهية، قامت متلحفة بالشال واتجهت إلى المطبخ، كان منهمكاً في تحضير وجبة غداء صينية، وقد جمع أكبر قدر من الخضار... أحاطت خصره بذراعيها وسألته: حبيبي، طباخ ممتاز، ماذا تطبخ...

قال: لم تعرفي بعد أنني بارع في الطبخ...

قالت: أحقاً أنت طباخ ماهر؟

قال: يا فتاة، أنسيت أنني عازب قديم...

تخيّلته في شبابه يطبخ لنساء أحبهن، أحسّت بحزن كونهما يتعرّفان إلى بعضهما في بداية خريفهما، ماذا لو عرفته وهو في

www.ibtesama.com

العشرين أو الثلاثين من عمره، كان أمامها زخم من مشاعر الشباب وحيويته، تأمّله بعمل بنشاط وخبرة، قبّله قبلات متلاحقة من ظهره العاري، كانت تتفرّج على نفسها بعين نفسية تبطن عينها الحقيقية، كيف تتحلّل من خيوط عقدها وسبانها ووحدتها وتتصرّف كعاشقة حرّة، كأنثى نست أنوثتها منذ زمن طويل، نستها فوق رفوف الكتب، وفي صقيع الفراش البارد... تساءلت وهي تحتضن جلده الرياضي البرونزي بين ذراعيها تُرى ألا تشتهيه زوجته، ألا تلمسه، وتخيلتها تقوم بدورها في مداعبته وتقبيله، امتعضت وغشت وجهها سحابة كآبة، ليس بإمكانها الآن أن تسأله وتحقّق معه بحقيقة علاقته مع زوجته، وهو يطبخ لها بكل حب، ليس بإمكانها إفساد جمال لقائهما، ليس بإمكانها رش الملح فوق قالب حلوى... فلتبتلع الألم كالدواء المُرّ، وانفجرت فكرة خبيثة في ذهنها تهمس بأذنها قائلة: ماذا لو أنه ضاجع زوجته ليلة البارحة... هربت إلى غرفة النوم، لبست ثيابها، سرّحت شعرها، ووضعت طبقة من الكريم المرطب على وجهها، يبدو أن لا مفر من هذه الأفكار، كانت أسطوانة الزوجة والعشيقة تستعدّ للعزف في أعماق دماغها، لكنها زجرتها بكل ما تملك من قوة وإرادة، ليس الآن، ليس الآن، تنبّهت لصوته يناديها أن الغداء جاهز، أسرعت إليه هاربة من أفكار تشوّشها وتعرف أنها ستلازمها وتنغّص راحتها، قبّله شاكرة، كانت تهرب بعينيها المتمكرتين، كانت تخشى أن يغوص في تلك اللحظات بأعماق نظرتها، وتعرف أنه من الرهافة والذكاء أن يقرأ كل ما ترتّب فيهما من أسئلة معلبة.

وجدت نفسها تسأله وهي تأكل بشهية لم تعرفها من قبل، سؤال

www.ibtesama.com

انفلت من حنجرتها دون تخطيط ودون قصد، لكأنه أفلت هارباً، قالت: أنعتقد أن الرجل المحب بصدق، لا يقدر أن يعاشر امرأة اخرى غير حبيبه أم أنه...

أدهشها السؤال الذي لم تخطّط له، قال لها: حبيبتي أنا لا أخونك صدّقيني، أنا محصّن بحبي لك، ارتاحي، واطمئني أنا لا ألمس امرأة غيرك.

تشجّعت وهمست: حتى زوجتك؟

قال: هيام، ألم نتّفق أن ننساها؟

أصرّت: لكنك لم تجبني، حتى زوجتك.

قال بإصرار: حتى زوجتي.

ارتاحت لجوابه، رغم أن غباراً من الشك ترسّب فوق شعورها بالامتنان، أمسك يدها قائلاً: اسمعيني جيداً، هذا الموضوع يجب أن تنتهي منه، المهم الثقة يجب أن تثقي بحبي لك، وأن أثق بحبك لي، وإلا سنجن من الشك، بالله عليك، ماذا يختلف الوضع لو كنت عازباً، أما كان بمقدوري لو شئت أن أقيم علاقات مع نساء بمنزلي.

قالت: أجل.

تابع: المهم إذاً الثقة، أنا رجل حر، وأحبك، واخترتك عن اقتناع، عشقت روحك وجسدك، اتركيني منشدّاً إليك بحبي، وحده الحب حصني.

أرادت أن تقتنع تماماً بكلامه، لكن ظلت بذرة الشك تنخر في أعماقها كدودة نشيطة محركة سؤال عذابها الأبدي، أتراه حقاً لا يلمس زوجته؟

• • •

www.ibtesama.com

اجتمعت شلّة الفانتازيا مساءً في بيت الرسام، يوخذهم الويسكي، تحلّقوا حول المائدة المستديرة التي ضمّت أشهى المقبلات واللحوم بأنواعها والأسماك، من مطعم عشيقة الرسام، رحّبوا بها كصديقة قديمة تعود من سفر طويل، وأحسّت برد حقيقي تجاههم، ووجدت نفسها تفكّر في صهرها وأختها، ترى أي ألم وخزي سيشعران به إذا عرفوا أنها تجلس مع حبيبها وشلّة الفانتازيا... أحسّت أن أختها وصهرها يربطانها بخيوط وهمية، حبال سريعة التقطع، كخيوط العنكبوت، ترى ماذا تملك من قوى معاكسة للهروب من شلّة الفانتازيا؟ أوه لا شيء، لا تملك شيئاً سوى ضجر أوصلها مراراً إلى حدّ البكاء وربما الانهيار، وكل ما كانت مؤمنة به من أفكار وقناعات حول الأخلاق والحياة، والناس، تغيّر، ما عادت متيقنة من شيء، كل أفكارها تزلزلت، أية قناعات جامدة هذه، حين توضع على المحك تنهار وكأنها مبنية على أرض من رمال... أحسّت أنها تنقب في وجوه شلّة الفانتازيا، لكأنها تريد أن تكتشف، هل حقاً هم سعداء؟ وأحسّت أنها تخونهم لأنها لم تشعر أبداً أنها تنتمي إليهم، وأنها مندمجة معهم في العمق، أحسّت أنها بهونا، الذي كان يبيّت الخيانة في صدره للمسيح، وطفت صورة أختها حامل وتبكي وهي تراها في أحضان حبيبها المتزوج، ورأت بعين خيالها نظرات صهرها القاسية تصلبها، وللحال تبدّل شعورها من أنها بهونا إلى المسيح المصلوب. ضحكت وهي ترشف الويسكي ممازحة نفسها: جميل أن تكون بهونا ويسوع المصلوب في آن!!

قام اللواء يتصل بزوجته، تأمّلته كيف يحدّثها برقة ومودة، ويخبرها أنه مجتمع مع أصدقائه وقد يتأخر، وأخيراً يقول لها بصوته

www.ibtesama.com

الدافئ، أوكي عزيزتي، لا تنتظريني، تصبحين على خير.. أغلق السماعة، وعاد يحتضن حبيبته رائعة الجمال، الممثلة الصاعدة، التي مهّد لها طريق الشهرة بنفوذه وسلطاته، وللحال صوّر لها خيالها حواراً ساخناً بينها وبين اللواء.

صرخت به: يا للرياء، يا للنفاق، تحدّث زوجتك بلطف، ثم تسارع لاحتضان عشيقتك. وردّ اللواء هازئاً منها: وما علاقتك أنت؟ هذا أمر شخصي.

قاطعته وكأنها تكشف سرّه: أنت تستغل الممثلة، شبابها وجمالها، مقابل نفوذك وإغوامها بالمال، وبشهرة التمثيل، علاقة مصلحة.

ضحك بصوت عال هازئاً: يا سلام، كأنك اكتشفت أميركا، وأنت لماذا تقطعين عشرات الكيلومترات لتلتقي رجلاً متزوجاً.

قالت بلهجة دفاع: لكن ما يجمعني به حب نبيل، وليس علاقة مصلحة.

ضحك اللواء هازئاً: بل علاقة مصلحة، لولا الضجر القاتل الذي تشعرينه، لولا إحساسك أن الشباب سيودّعك قريباً، لما تحمّلت أعباء السفر وارتميت في أحضان رجل متزوج وأب مسؤول...

أمسكت القداحة بيدها، ورغبت أن تقذف بها اللواء، لكنها تنبّهت لحبيبها يسألها: إيه هيام، أين وصلت بأفكارك...

كان يرفع كأسه ليشرب نخبها، ونخب شلّة الفانتازيا، تنهّدت بإعياء، شربت نخب شلّة الفانتازيا بلحن مشتّت وأفكار تحشها مشردة...

www.ibtesama.com

تساءلت: يا إلهي ما الذي قذفني من مكتبتي إلى وسط هذه الشلّة الغريبة.

• • •

لتعترف أنها لم تعتد السهر الطويل، أخذ جسدها يمض طالباً الراحة، كانت الساعة تتجاوز الثانية بعد منتصف الليل، تثاءبت بشكل خفي، وقامت إلى الحمام لتغسل وجهها، أجفلت من صورتها في المرآة. نظرة متهالكة من التعب، عينان حمراوان من تكاثف سحب الدخان، أخذت نفساً عميقاً، وهي تحسّ أن الهواء لا يبلغ آخر نقطة في أسناخها الرئوية، بل يوقفه عائق في منتصف الطريق، تمنّت لو تستنشق هواءً نقياً وتخيّلت أن الهواء محمّل برائحة الزعتر البري، زفرت متضجرة وهي تقول: يا إلهي كم يكثرون من الشراب، لكن شعورها بالانعتاق الأقرب للسعادة داهمها كونها لا تحسّ بالانتماء إلى هذه الشلّة، تساءلت وهي تجفّف وجهها: أليس شعور الإنسان بعدم الانتماء هو السعادة عينها؟

عادت لتنضم إلى الشلّة، فأجلسها حبيبها في حضنه، جلست مستهترة لكأن لسان حالها يقول: كل شيء مكشوف وعار هنا، فلِمَ لا أجلس في حضنه؟ أخذت تراقب بعيون ذابلة يد اللواء تداعب عنق الممثلة، والثرية صاحبة المطعم تهمس بكلمات في أذن الرسام، ينفجران بعدها بالضحك، رائحة الفجر تقترب، ترى متى يطلع النهار ماحياً كل عربدة الليل، والزوجات غافيات، أو متغافيات، مطمئنات أن رجلهن الديك عائد إليهن أخيراً، طارداً رائحة العشيقة من مسامه.

www.ibtesama.com

أحسّت أنها تكاد تفقد وعيها من التعب، همست بأنه أنها لم تعد تقوى على البقاء.

قال: هيا، نعتذر من الشلّة ونذهب إلى غرفة النوم.

شهقت مستنكرة: أمام عيون الجميع ندخل إلى غرفة النوم.

تساءل: وماذا في الأمر، أنت متعبة، وهم يعرفون أننا عاشقان.

قالت مستاءة: لا، غير معقول.

قال: إذاً نذهب إلى بيت صديقة الرسام، وتبيت هي عنده.

قالت: لكن...

لم يتركها تكمل: قال، دعي حبيك يتصرّف.

قالت: مهلاً، أنا لا أعرفها جيداً، فكيف سأنام في بيتها؟

سألها: وهل كنت تعرفين صديقي الرسام قبلاً؟

لم يترك لها الإنهاك مجالاً للمناقشة، كادت مفاصلها تنخلع من التعب، وصدرها يختنق بالدخان، تبادل الشاعر بضعة كلمات مع الرسام وصديقته، وسحبها من يدها مودعين شلّة الفانتازيا، رافقتها صاحبة المطعم حتى الباب الخارجي، قبّلتها بحرارة قائلة: خلي راحتك، كل شيء معدّ لاستقبال أحلى عاشقين...

شكرتها على لطفها الذي أحسّته حقيقياً، كان الفجر صريحاً ونقياً في الخارج، وما أن دخلت بيت صديقة الرسام حتى شهقت من فخامته، تساءلت: هل هذا قصر أم بيت؟ تهاوت على السرير تبتسم ابتسامة تعني: لقد عرفت الآن لماذا يبيع الرسام شبابه لتلك المرأة.

لم تنم، بل غرقت في غيبوبة، كانت تفتح عينيها بين وقت وآخر، وتتأمّله بحنان هذه المرة، حافظة خطوط وجهه، مستعيدة

www.ibtesama.com

لفظات من وصالهما، حتى ما عادت تقوى على فتح عينيها، وحين استيقظت ظهراً على صداع قوي يفجّر رأسها، كان قد سبقها وأعدّ القهوة، قبّلها بحنان، قالت له: كم أكثرنا من شرب الويسكي البارحة.

سألها: لماذا كنت متوترة؟

قالت: أنا، كيف عرفت؟

ضحك قائلاً: تصوّر ألا أعرف وأنت حبيبتي، لترى لماذا لا تتركين نفسك على سجيتها؟

سألت: ماذا تعني؟ أوه، رأسي يؤلمني.

قال: ستكلم فيما بعد ما دام رأسك الجميل متعكراً بالصداع، قام بإحضار لها حبة دواء مسكن، وقدّمها لها مع كأس ماء، وجلس إلى جوارها يسرّح لها شعرها، أحست بحنان غامر يمتدّ من أصابعه إلى شعرها وفروة رأسها غامراً جسدها كله.

قالت له: أتعرف ذكّرتني بجدي، كان يحلو له وأنا صغيرة أن يسرّح لي شعري، ويضفره في ضفيرتين.

نظرت في ساعتها قالت: هيا اقترب موعد سفري... ألن توصلني إلى المحطة. رجاها أن تبقى اليوم أيضاً، لتسافر ظهر الغد، لكنها أكدت له أنها لا تستطيع، في الحقيقة كانت تستطيع أن تبقى حتى المساء، بل أيام، لكنها لم تعد قادرة على احتمال كثافة حياة جديدة وغريبة، تحسّ أنها تقلعها من جذورها، من مكتبتها الواسعة في مدينة الكسل والنعاس والرطوبة، لتلقيها وسط شلّة الفانتازيا، التي تعيش أحاسيس حية، ساخرة من الأفكار، أعجبها هذا الاكتشاف، هناك بشر يعيشون أفكاراً، وبشر يعيشون أحاسيسهم،

www.ibtesama.com

باه، كم من فرق بين الحالتين؟ غرقا بعد تناول القهوة في وصال صامت، لم تقطعه كلمة ولا همسة، كلاهما كان مذهولاً كم أصبحا متناغمين ومتكيفين، لدرجة أنها علّقت وهو يوصلها إلى المحطة، أن الحب موهبة، وأبدى إعجابه وتأثره لقولها، صعدت في الباص، لوّح لها مودعاً، ومرسلاً بانجاهها قبلة على الهواء، تأمّلته يستدير، تركّز نظرها على شعره الفضي المتمازج الذي كان يملأ قبضتها منذ لحظات، هذه المرة كان شعور الرضا هو الغالب، بل هو الوحيد الذي يغمرها، ويعطيها سعادة تشبه سعادة المرتعش، من البرد حين يغمره دفء غرفة، كل ما فيها مهيأ لخدمته، كانت تترك لمفاصلها حرية الاسترخاء، وساعدها الصوت الخافت لهدير الباص أن تسترخي أكثر وأكثر، بدت لها الأحداث التي عاشتها معه خلال يوم ونصف اليوم من الكثافة والتركيز لدرجة أنها قدرت أسبوعين على الأقل لتفرد فيهما اللحظات التي عاشتها معه، تنهّدت معترفة لنفسها أن السعادة تعني قطعاً الرضا، وأن كل المعاجم يجب أن تعطي مرادف كلمة سعادة، كلمة الرضا، طوال حياتها كانت غير راضية، دوماً عن شيء ما، الآن يشملها الرضا، فتحسّ أنها متصالحة مع الدنيا كلها، مع الناس، حتى مع الطبيعة. وتذكّرت أنها في لحظات كثيرة من توترها الشديد، كانت تعادي الأشياء والطبيعة والشمس والبرد والريح، لكأنها أعداؤها، أو وجدت لإزعاجها، ومضت في ذهنها صورتها تشتمّ أعواد الثقاب لأن الرطوبة منعتها من الاشتعال، وأطرقت، وهي تستعيد على مسامعها الكلمات البذيئة التي كانت تصدر من فمها، وتذكّرت يوم صبّت جام غضبها على العصا الخاصة بالمسح والتي تنتهي بقطعة بلاستيكية أفقية لمسح البلاط،

www.ibtesama.com

وكيف أخذت تطرقها بقوة بالبلاط وتشتمّ وتلعن وترغي وتزبد، مفجّرة قهر وحدتها وكآبتها الطويلين في قطعة خشب!

أخجلتها هذه الذكريات، أمرت نفسها أن توقف النبش في مخزون ذكرياتها لأن الكثير الكثير سيضارع ويطفو، صمتت صمتاً جليلاً معترفة بصدق أن السبب الرئيسي هو الوحدة، وأن الحاجة الإنسانية للإنسان ليعيش، هي قلب يحبّه، ويتعهّده في كل تقلباته وضعفه، وأحسّت بنمل في راحتيها وكأنها تلمس لمس اليد حبه لها، واعترفت بكل الرضا الذي يغمرها أنه يحبها بقوة، حباً لا مجال للشك فيه، وعلى غير عادتها لم تزعجها الموسيقى العالية التي تبثّها مسجلة الباص، كان رضاها الشامل يغمر الموسيقى التي لعنتها دوماً، مع مطربيها الذين نصفهم بالهبوط والإسفاف وقلّة الذوق، وكان عطفها يشمل المطربين الهابطين فتبرّر لهم سقوطهم، وتجد لهم الأعذار كونهم يبحثون عن لقمة عيشهم، وكونهم مظلومين، إذا حملوا وحدهم مسؤولية الإساءة للذوق العام، تثاءبت وهي تعي عمق حاجتها للنوم، واعتذرت عيناها عن متابعة فيلم الفيديو الذي تبثّه شاشة التلفاز المعلّق، أحسّت أنها تقترب من عالم النوم، وتعي مراحل دخولها في ذلك السبات اللذيذ، انتشت بالخدر الساري في أوصالها، ولا تعرف كم مضى من الوقت حين نشّجت لجأة فاتحة أجفانها، مبحلقة في ذهول، وفكرة تسلّطت عليها فجأة، وانفجرت في دماغها كما تنفجر فقاعة صابون، بأنها قريباً ستسافر لتعزّي بالشاعر، سيأتيها خبر وفاته قريباً، أهو حلم، أم رؤية؟ لكنها لا تتذكر أنها غفت، وتخيّلت كيف ستسافر إلى دمشق، ولن يكون بانتظارها، وستبكي حتى تنتفخ أجفانها، وتغيب عيناها تحت ثقل

www.ibtesama.com

أجفانها المتورمة، تلاشى رضاها كموجة تنحسر، وتخيّلت شلّة الفانتازيا تحيطها وتقدّم لها التعازي، أوه ماذا دهاها، من أين لاجأتها تلك الفكرة الشريرة؟ وما معنى هذه الفكرة تلكزها في دماغها وتعكّر صفاءها؟ أحسّت بخوف أقرب للذعر، أحسّت أنها تتطفئ وتتهاوى كقلعة من رمال تركلها رجل طفل عابث فتتهاوى... وأحسّت بخوف أقرب للذعر وهي تتخيّل حياتها من دونه، وتساءلت: ماذا لو فقدته؟ ماذا لو خطفه الموت؟ وأتاها الجواب بشكل صورة، صورة بئر لا قرار له، ضيق ومعتم وعطن، وهي تهوي فيه بسرعة هائلة، يا إلهي لماذا لا تكتمل السعادة؟ صرخت بألم بسؤال أبدي، لا توجد حنجرة بشرية إلا وأطلقته في لحظة ما، وأتاها الجواب هامساً، الموت يبطّن كل شيء، إنه العدو الحقيقي لحياة الإنسان، ولكن ألم تصل لفلسفتها بالحياة بعد تجارب كثيرة، أن ما من وسيلة لمحاربة الموت سوى عيش عمق اللحظة؟ أليس هذا التفكير وهذه القناعة، محرّضيها الأساسيين للحب؟ أوَليس تفانيها في العناية ببشرتها ورشاقتها هي إبعاد قدر المستطاع للملك العدو الخبيث الموت؟ أوه للتحافظ على هذه العلاقة، لتمتصّ رحيقها قطرة قطرة، وكما شملها الرضا منذ لحظات، أحسّت بقوة بعبثية الحياة، وبدت لها الحياة مهما طالت أو قصرت زائلة لا محالة، فلتعش عُمق اللحظة، لتعش في الطول وفي العرض، وسخرت من نفسها وهي تتذكّر نقاشاتها اللامجدية مع حبيبها حول طبيعة العلاقة بزوجته، واتباعها أساليب المحققين معه لتعرف إن كان يخدعها أم لا؟ سيان، كله سيان، فلتكن له حياته، فليخدعها، وهل يمكنها الجزم أنه لا يلمس زوجته؟ وغيرها من النساء بعد أن

www.ibtesama.com

تعرّف بها؟ فليبقَ حراً، لتبقى حرّة بجمعهما الحب، الدف، الوهم، الانتظار، الغضب، الشجار، إنما لن تستسلم لصقيع الوحدة الذي هو صقيع الموت، يا إلهي ما أوضح الرؤية أمامها الآن، ما الحياة سوى ومضة، فقاعة صابون تنفقئ بأية لحظة، ما هي سوى عبث أو حلم.

في استراحة المسافرين تحاملت على نفسها، كان إرهاقها في فرونه، أرادت أن تشرب العصير، لكن رائحة اللحوم المقلية أثارت غثيانها، جلست في مقعد منزوٍ تراقب الباصات المغبرة يغسلها صبية صغار، لا تتجاوز أعمارهم السنوات العشر، يفركون زجاج الباص بالماء والصابون وبفرشاة كثيفة ذات عصا طويلة، ثم يرشقون النوافذ بالماء مغرقين أجسادهم النحيلة، لكنهم يتابعون بهمة عالية عملهم، وسواعدهم النحيلة ترتفع عالياً لدعك النوافذ جيداً بالفرشاة، كانت تتأملهم بحنان وشفقة وهي تعي مأساة الإنسان الأبدية يعمل ليعيش، ليأكل، الهدف الأخير أن يعيش، تظل الحياة بكل مظاهر بؤسها غالية.. قامت تتمشّى محركة مفاصلها المتيبسة من الجلوس في الباص، توقفت لتتفرّج على أصناف الحلويات التي كدست في صوان كبيرة وتحوم بعض الذباب فوقها، أحسّت أنها متحرّرة من سلطة الطعام، وكأنها فقدت جهازها الهضمي، كانت تحسّ أنها كائن نوراني، استرعى انتباهها مجموعة من النسوة البدينات، قدّرت أن وزن كل منهن يزيد عن المئة كيلوغرام، يأكلن ويشربن الشاي، تعمّدت أن تتمهّل وهي تمشي إلى جوارهن، لكأنها تريد أن تلكزهن برشاقتها وقوامها المتناسق، لكنها تجاوزتهن دون أن يلتفتن إليها. حدّثت نفسها أن أزواجهن قد يرغبنهن بدينات، وفجأة دارت بها

www.ibtesama.com

الدنيا، وكادت تفقد توازنها، لولا قوة داخلية أنجدتها في الحال وجعلتها تتمالك نفسها، أحست أنها تدور وتدور حول محور وحدتها، كانت رؤية شديدة الوضوح تتكشف لها، رأت شيئاً مكسوراً في أعماقها، رأته برمضة، إنه حقيقة، ولا يمكن أن تخدع نفسها وتدّعي أنه وهم... ترى أين هو الحبيب؟ الشاعر؟ الرجل؟ كيف غاب، غاب بعيداً ولأيام طويلة أو أسابيع، وها هي في رحلة العودة تتناوبها المشاعر، من الرضا الشامل، إلى الإحساس بعبثية الحياة، إلى إحساسها العميق بالوحدة. ولكن ها هي بالنتيجة امرأة وحيدة تحارب الزمن، تريد أن تظل نضرة وشابة، تحاول أن تحفر في وجه الزمن كما يحفر في وجهها، تريد خلق فرص غنية لتشعر أنها تعيش، تخلق صداقات، تحاول كتابة الشعر، تقرأ بنهم، وترمي بنفسها في أحضان الحب عمداً، لكن ها هو الزمن يقودها بسلاسة ودون جهد منه إلى المكان الذي يريده، كما يقود مجرى النهر قشة خفيفة لا حول لها ولا قوة لمعاندة التيار، تلفّتت حولها في استراحة المسافرين متسائلة: ترى ما الحل؟ كيف بإمكانها أن تقنع نفسها أن تكون سعيدة وهي تكبر يوماً بعد يوم، حتى تكبر وتصبح كهلة، وتهترئ، أوه يا إلهي لماذا جعلت الإنسان شقياً بطبعه؟ واستدارت عائدة إلى الباص، وهي ترى الصبية الصغار قد انتهوا من تنظيف الباصات، منتظرين باصات جديدة يغمرها الغبار، مازحت وحدتها قائلة: كان يجب أن نخلق كهولاً، ثم نصغر ونصغر، حاولت تخيل تلك الحالة، لكن ضجة المكان العالية شوّشت ذهنها، وضيّعت أفكارها.

• • •

www.ibtesama.com

لأيام بعد سفرها، كانت سارحة بماهية الحب، أحسّت أنها تعلو عن الأرض، وتطير فوق غيمة، تحرّرت روحها من شوائبها وأفكارها من سمومها، أحبّت أن تصف حالتها بأنها حالة نورانية، حتى سفرتها الأخيرة كانت الأمور ملتبسة في ذهنها، هي نفسها كانت حالة التباس، وإذا كانت تتوه في تحديد حقيقة مشاعرها مع الشاعر أهي حب؟ أم افتعال للحب لتجميل الحياة؟ فإنها متأكدة الآن أنها تحبه، ثمة نبض جديد مختلف نابع من قلبها، ورقة تنوب في تعاملها مع ياسمين، بل في تعاملها مع زبائنها في المكتبة، إنها تودّهم كما لو كانوا أصدقاءها منذ زمن، الحب نسيج جديد، هكذا تحسّه، كانت تتساءل بدقة بالغة وكأنها تضع قلبها تحت تكبير المجهر الإلكتروني، معنى أن تحب رجلاً، وأن يحبها، إنه رجل حياتها، هذا ما تحسّه، روحان تلوبان وتتعانقان من خلال الجسد، وما الجسد سوى آلة عزف الروح وها هي تشعّ إشراقاً ودفئاً فاتحة ذراعيها لخريف العمر وللحب، ولم تعد ضربات قلبها أشبه بتكتكات الساعة، بل هي تسبيح للوجود، الذي يغدو جميلاً وله أبعاد لانهائية مع الحب، ما أحلاها عاشقة، ما ألطفها، ما أرقها، إن الإنسانة الجديدة في أعماقها تنتزع منها الإعجاب عنوة، ها قد حرّرها الحب من نزقها المعتاد، ومن ترددها المرضي، تذكّرت كيف كانت ترتدي ثيابها وتتزيّن للخروج مع رفيقاتها وفي اللحظة الأخيرة تغيّر رأيها، لسبب، وغالباً دون سبب، هكذا مجرد نزق، مجرد إحساسها أنها ستسمع أحاديث وتشارك فيها وهي تكاد تتقيؤها لشدّة ما تكرّر.

حتى الفراغ الذي كانت تشكو منه وتتخيّله كهوة كبيرة يبتلعها،

www.ibtesama.com

صار الآن يشبه دغلاً من نور، دغلاً وسط غابة فاتنة، تتسلّل إليه أشعة الشمس تنيره وتدفئه، وها هو درجها الخاص يعجّ بالرسائل والقصائد التي كُتبت لها وحدها، وهل خطر لها أن تبتدع عبارة «حبيبي الأبدي» وهو يبتدع «حبيبتي إلى الأبد على الأقل».

أبداً لم تشعر بأنوثتها كما أحسّتها معه وبين ذراعيه، إنها بحر من الحنان العذب، والعذوبة التي لا تقاوم، إنه يغرق بها ومعها في هذا البحر الدافئ، الذي لدفئه مفعول مسكر، وحده جعلها تحسّ بخطوط جسدها، وانسجامها، بل الأهم من ذلك حدّد لتلك الخطوط هدفاً أسمى هو المشاركة في الحب، حالة نورانية حقاً تعيشها، جسد من نور، جسد من روح، هكذا استحال جسدها بعد أن كان كتلة صماء.

حتى موظفو الكرنك غدوا زملاءها في السرّ والحب، وها هي تنتظر حضوره في أواخر آذار، سيحتفلان بربيع حبهما حقاً، سيكون لتفتّح الأزهار ولعودة السنونو المهاجرة معنى، إنها تحسّ بروائح الربيع تخصّها وتعنيها وكأنها تشترك سراً مع فصل الألوان في خلق البهجة... إنها تنتظره الآن كل مخزن أشواقه ومفاجآته للآخر، آمنت أن الحب هو إكسير الحياة، وأن كل الحلول لمأساة الإنسان ناقصة ومشوّهة بعيداً عن الحب.

• • •

في مطعمها الأثير - استراحة السيدة - التقيا، محتفلين بدخول علاقتهما شهرها الثالث، لم يكن الربيع أكثر بهجة مثل ذلك اليوم النيساني - هكذا أحساه - كانت الأشجار التي غسلت طويلاً بالأمطار تلتمع بأوراقها الغضّة تحت أشعة شمس لطيفة، تتهلّل

www.ibtesama.com

الدنيا لاستقبالها كملكة متوّجة تعود بعد غيبة طويلة، حتى زقزقة العصافير كانت كثيفة: كثافة سعادتهما التي كانت تدفعهما دوماً للابتسام ليفرغا ثقل إحساسهما بها، لكنهما هذه المرة لم يكونا وحيدين، كان المطعم يغصّ بالناس، أحسّا بحرج وهما غير قادرين أن تتلامس أيديهما، وأن يشربا نخب عشرات الأشياء كما يفعلان دوماً... اقترحت أن يتنزّها في غابة صنوبر غير بعيدة عن المطعم، تحمّس لاقتراحها. وقاما يودّعان مطعمهما كأنهما يعتذران منه. سألها إذا كانت تشعر بحرج فيما لو عرفها أحد الزبائن في المطعم؟ ضحكت قائلة: يفترض أن أحس بارتباك وخوف، وحرج وانزعاج، وأشياء كثيرة، لكني صراحة لم أعد أبالي، فكرت أن الإنسان قد يعيش زمناً طويلاً من عمره حتى يتمكّن أن يتوصل لمرحلة عدم الاكتراث لهذا المبدأ، بل يظل ضحية خوف اجتماعي يشلّه ويغيّر مسار حياته.. ولم تبدُ لها تلك الحقيقة مرعبة، وخطرة مثل تلك اللحظات وهي معه في غابة الصنوبر، مستلقية على الأرض المفروشة بأوراق الصنوبر الأبرية، موسدة رأسها في حضنه، مستسلمة بعلوية لا تقاوم لمداعباته الرقيقة، قالت له مغمضة العينين: تصوّر ألا يتمكّن الإنسان أن يعيش ذاته. وأن يتصرّف ما يرغب، لأنه خائف من نظرة الآخرين له، من أحكامهم، يا إلهي، أليس هذا شيئاً مرعباً؟!

قال مؤكداً: بالطبع، لكن هناك أشخاص لا يبالون بتقييم الناس لهم، ويفعلون ما يرغبون..

قالت: أين هؤلاء الأشخاص؟ ما نسبتهم؟

قال: أنا أعرف الكثير منهم؟

www.ibtesama.com

قالت: حقاً، أنا لا أعرف أحداً... صدّقني، بالكاد أقدر أن أستثني نفسي بعد أن عرفتك، لقد عشت طويلاً غنمة مطيعة للمجتمع - صمتت قليلاً وأردفت - الذكوري.

قال: لكنك أنت المخطئة، امرأة مثلك، مثقفة، حساسة، منفتحة الأنوثة. وعاشت لسنوات في باريس، كيف ترضى أن تعيش سنوات محنّطة في الزواج، وبعده بسنوات.

فتحت عينيها ونظرت في عينيه: أتسأل حقاً؟ ثقل التقاليد، إنها ثقيلة، كالحديد، كالصخور، يا إلهي إنها تطبق على صدري كبلاطة من رخام. صدّقني كنت أحسّ دوماً بثقلها كبلاطة من رخام.

قال وهو يداعب خصلات شعرها المتناثرة في حضنه: لكنك لم تبللي جهوداً إيجابية للتغيير، لم تخلقي فرصاً تخرجك من.

قاطعته: أوه، ما أسهل الكلام، أية ظروف، وأي فرص. في مدينة الكسل والنعاس والثرثرة، لا توجد أي فرص، إن عالمي كله مقتصر على صديقة لي، نجتر الحديث ذاته كل يوم وعلى مدار سنوات، وأسرة أختي، خارجهما لا يوجد سوى تماثيل، أشباح، مسوخ.

قال: مهلاً، لا تنفعلي، هذه علّة المدن الصغيرة، لو كنت في دمشق، لاختلف الوضع تماماً، هناك، لا أحد يعرف من جاره، يمكنك أن تعيشي بالطول والعرض دون أن يلاحظ أحد.

قالت بأسى: معك حق، ليتنا كنا في نفس المدينة.

قال: أجل، هذا ما كنت أقوله لنفسي، لكن لا بأس حبيبتي، ها نحن نلتقي، ونحسّ بحلاوة الانتظار.

سرحت مردّدة: حلاوة الانتظار، ربما، لكنه صعب، قاس..

www.ibtesama.com

قال: ماذا نستطيع أن نفعل؟

قالت: لا شيء، نحن محكومان بهذه الظروف.

قال: أتعرفين، أفكر جدياً أن أستأجر بيتاً هنا، فمن غير المعقول أن نلتقي في شاليه، وقريباً يأتي الصيف، ويصبح لقاؤنا في شاليه خطراً...

قالت: لكن استئجار بيت في مدينة صغيرة، سرعان ما ينكشف أمرنا.

قال: أبداً، يمكننا استئجار شقة في منطقة بعيدة، لا يعرفك أحد فيها، ثم نحن سنلتقي فيها ثلاث أو أربع مرات على الأكثر في الشهر.

حاولت أن تتمثل هذه الفكرة بحواسها وخيالها، أحسّت بغرابة هذه الفكرة، لسبب وحيد كونها أشعرتها بالديمومة، لكأنها في أعماقها تشكّ بديمومة هذه العلاقة، شعورها بالغرابة يعني سؤالاً محدداً: ترى هل ستدوم هذه العلاقة؟ وهل استئجار بيت يجعلها تدوم، وهل ستدوم بأمان الله فيما زوجة وطفلان يشفّان من خلاله؟

قاما يتمشيان في غابة الصنوبر، كانت تلبس بنطالاً من الجينز، وجزمة قصيرة سوداء، وكنزة حمراء، كان يحيط خصرها بذراعه ويشمّ شعرها الكثيف ويغرق وجهها بقبلات مفاجئة، كانت ثملة بسعادة صافية لها رائحة صريحة كرائحة الصنوبر، ضحكت وهي تحدّثه عن موظفي الكرنك كيف يبدون دهشتهم من الطرود المعطّرة التي تصلها كل يومين، قال: ليتعلموا كيف يكون الحب.

تنهّدت قائلة: ليتنا كنا في نفس المدينة.

قال مواسياً: لا بأس، هكذا لا يمكن أن نملّ من بعضنا أبداً،

www.ibtesama.com

نظل بحالة شوق.

قالت: أخشى أن ينهكنا الشوق.

قال: لا تخشي شيئاً ما دمت أحبك بهذه القوة.

قالت: وأنا أيضاً.

كانا يصغيان لوقع أقدامهما على أوراق الصنوبر، كانت تفكر أن السعادة تعني رجلاً وامرأة متعانقين في غابة صنوبر.

سألها: بماذا تفكرين؟

قالت: أليس غريباً ألا أعرف الحب إلا متأخراً، ومع رجل متزوج؟

قال: أرجوك حبيبتي، انسي أني متزوج، لا تذكريني بهذا الجرح دوماً.

قالت: آسفة، لكن، هل تعتقد أنه بإمكاني أن أنسى؟

قال: ولِمَ لا؟

ابتسمت، لم تشأ أن تخوض في هذا الموضوع الذي سيكهرب جوّهما الدافئ.

سألته: لو لم تكن متزوجاً، أما كنت فكرت بالارتباط بي؟

قال: لا أظن، لأنني.

انتفضت منزعجة وقد أحسّت بجرح عميق: لا تظن، إذاً، أنت لا تحبّني.

قال: أرجوك لا تقاطعيني وأنا أتحدّث، إذا كنت حريصاً على علاقة الحب بيننا فلا يجب أن نتزوج، لأن الزواج مقبرة للحب، أما الحبيبة فهي أعلى وأهم بكثير من أن تتحوّل لزوجة، أتعرفين ما معنى زوجة، أوه تصبح المرأة منفضة غبار.

www.ibtesama.com

قالت: منفضة غبارا

قال: أجل، تنشغل بأعمال المنزل الأبدية، وتنسى نفسها، و...

قاطعته: لأن الرجل يؤطرها ويريدها خادمة له ولأطفاله.

قال: لا ليس تماماً، إنها تحسّ بأعماقها أن هذا هو دورها الذي انتظرته منذ كانت طفلة، أم، وزوجة...

قالت: ليست كل النساء متشابهات.

قال: بالتأكيد، إنما أنا أتحدّث عن الأغلبية.

لم تستطع أن تخفي امتعاضها الشديد من أفكاره ورفضه لفكرة الزواج منها، صحيح أنها في أعماقها لم تكن ترغب في الزواج، وربما لو طلبها للزواج لرفضت، لكن سامها أن يخبرها ألا يرغبها زوجة، كانت لا تستطيع أن تتحرّر من تسلط فكرة قوية على ذهنها، أن الرجل إذا أحبّ امرأة كثيرة يتزوّجها... أحسّ بها متكدرة، قال لها: انتظريني لحظة، أسرع إلى الطريق حيث تقف سيارته، وعاد يحمل كيساً ملفوفاً بحبل أخضر، كانت مرجوحة من الشبك متينة وقد ربط طرفاها بحبلين متينين، ربط طرفي المرجوحة بشجرتين متقابلتين، وقال هيا تعالي، أخذت تضحك وهي تلقي بجسدها في المرجوحة والأشجار العالية المتعانقة ترسم قبة خضراء فوقها ملتمعة تحت أشعة الشمس، قالت ضاحكة: ما أحلى المرجوحة، أحسّ أنني طفلة. قال وقد أخرج كاميرا صغيرة من جيب سترته، وأخذ يلتقط لها الصور: أنت طفلة كبيرة.

قالت بدلال: لا أحب أن أسمع كلمة كبيرة.

www.ibtesama.com

سألها: ألم تشعر أختك بعلاقتنا؟

شهقت مستكرة: أوه مستحيل.

سألها: لماذا؟ هل تمانع أن تجدك سعيدة وعاشقة؟

أخذت تضحك، قالت: يا إلهي، كم أنت غريب، لكأنك لا تعيش هنا.

سأل: ماذا تعني بهنا، اللاذقية؟

قالت ساخرة: لا، أعني الشرق.

أغمضت عينيها متهرّبة من البهر، حلمت أن ينحني ويقبّلها ويطلب إليه بقوة حبه لها أن تتزوّجه.. كانت تعرف أنها ستعيش المرارة الكثيفة في حوارهما حول الزواج بعد أن يغادر، بعد أن يتركها لروتين حياتها الأبدي، وساعات الصفن الطويلة في المكتبة، أحسّت أن علاقتها معه لا تتميّز بصفة الاستمرارية المطمئنة، تخيّلتها كأنها شيء خارج حياتها، هكذا، فجأة يحدث قطع في حياتها، وتنتقل لخانة جديدة تماماً، مختلفة أشد الاختلاف عما تعرفه وتتعايش معه، تعيش يوماً أو يومين بكثافة غير عادية، بمشاعر تأخذ دوماً الحدود القصوى، تحسّ أنها قفزت خارج القوسين، قوسي يومياتها المعتادة، خارج القوسين قيم مختلفة، زخم مشاعر عنيفة وحادة، وجوه غير مألوفة، رسام، لواء، وعلاقات عشق غير مألوفة. ثم تعود منهكة على حافة الانهيار من التعب، إلى داخل القوسين.. القوسين اللذين يحدّدان حياتها..

سأله: إيه، هل غفوت، أرجو أن يكون لي دور في أحلامك.

قالت بصوت مفاجئ محمّل بالحزن: أنت الحلم كله.

قال لها وهو يجثو على ركبتيه قربها، ويقبّلها: لكم أرغبك

www.ibtesama.com

الآن، كم أنت شهية وحلوة..

ضحكت وهي تحسّ بسعادة كم هي مرغوبة، ومشتهاة، قالت: ما بك، يبدو أن الربيع يحرّك لي أعماقك أشواقاً كامنة.

قال: ما أسخف قولك، هل أحتاج للربيع ليحرِّض أشواقي إليك؟

قالت وهي تبعده عنها خوفاً أن يفاجئها أحد: لا تنسى أننا في غابة.

قال: ليكن، يوماً ما، سنمارس الحب في غابة.

شهقت: هذا ما ينقصنا، لنذهب رأساً إلى السجن.

ردّد مدهوشاً: السجن!

قالت: بالتأكيد، سنقاد إلى السجن، سنُتهم ببساطة بالدعارة.

قال منزعجاً: كفى، لكم أكره هذه الكلمة.

قالت: وأنا أيضاً، آسفة.

ذابا بقبلات لها حلاوة غابة الصنوبر تحت شمس نيسان، كانت متمدّدة في المرجوحة، وهو يجثو إلى جانبها يحتضنها، أحسّت بصعوبة انفكاكهما، كانت تعي بكل خلية من جسدها، كيف يتمزّق وشاح وحدتها وتملؤه الشقوق والثقوب ويتساقط، محرّراً خلاياها من الأسر، جاعلاً نسيجها يذوب في نسيجه، متلاحمين، متواصلين غارقين في نشوة الحب، انتفض فجأة واقفاً قال: هيا بنا إلى الشاليه لم أعد أحتمل أن أغازلك كقاصرين.

لم يرتعشا من البرد هذه المرة في الشاليه، رغم أن رطوبة كثيفة كانت تعشعش في الجدران، والسرير، لكنهما احتاطا، بأن أحضرت معها الغطاء الصوفي الذي أعدتها إياه المرة الثانية، كان

www.ibtesama.com

وصالهما يتأجج أكثر وأكثر لإحساسها أنه سيسافر بعد ساعات، سينفكان ويغيب كل منهما في هوة الصمت والفراق، ليس من وصال أكثر حرارة بين عاشقين حين يكون السفر ينتظر عند الباب.

شربا القهوة قبل أن يسافر، كانا صامتين ودافئين ومتشبثين بعبق اللقاء الملهل لكليهما، اتفق أن تسافر إليه بعد أسبوعين على الأكثر، وعدها أنه سيقضي أسبوعاً كاملاً في أوائل شهر حزيران مع أسرته، سيستأجر لها شاليه بعد إغلاق المدارس.

أوصلها إلى أول شارع بيتها، نزلت تحمل كيساً كبيراً يضم غطاء جبهما الصوفي، مشت مغمضة العينين في شارع تعرفه حجراً حجراً وحفرة حفرة.. كانت عاصفة من البكاء تنذرها بالهبوب في أية لحظة.

• • •

جسد ثقيل، لا يقدر أن يطال نجمة، ولا أن يعلو غيمة، إنه ينشد إلى ثقله، إلى التراب، يتوق لأصله، لكنه في وقت ما كان يحلّق ويطير، كان خفيفاً كنسمة، حراً كعصفور، لساعات وهي تجلس بالوضعية نفسها، منشدّة لثقل همومها، وعيناها مترعتان بالحزن، ويتحوّل الصمت المطبق في أذنيها إلى طنين، والطنين إلى كلام، وتسمع كلامه، أنت حبيبي، لن أتزوّجك حتى تظلّي حبيبتي، ويغيب صوته لتسمع أصواتاً قادمة من بعيد، الرجل الذي يحب المرأة كثيراً يتزوّجها.. كانت تفكّر أن الرجل لا يتزوّج سوى المرأة القابلة للتطويع والقولبة كما يريد زوجها، أي المرأة الغنمة هي المفضّلة كزوجة، أما المرأة غير القابلة للتدجين والتطويع وفق رغبة الرجل، فإنه يتّخذها عشيقة مستراً تحت شعار الزواج يخنق الحب،

www.ibtesama.com

أو الزواج مقبرة الحب.

لم تكن مقتنعة بأفكارها كما هي الآن، وأحسّت بالندم ينهرس روحها، وتساءلت بمرارة: لماذا بدأت هذه القصة؟ أما كنت قادرة على منعها؟ وحاولت أن ترتّب الأحداث أمام عينيها المترعتين بالحزن واليأس، تذكّرت رحلتها الأولى إلى دمشق، كيف كان هوى التغيير وحده دافعها لملاقاة ذلك الرجل الغريب والمثير، وتذكّرته نائماً عند الفجر تسمع لشخيره وتنظر إليه نظرة باردة ليس فيها ذرة عاطفة، وهي ركام من التعب والأرق، وكم انتابها القرف والنفور وهي تراه ينتحي زاوية في غرفة مجاورة ليتصل مع زوجته ويتحدث معها بصوت رقيق، وكأنه يقدّم لها الطاعة الزوجية مدى الحياة، ولكن... لكن الرسائل والاتصالات واللقاءات خلقت حباً، لا يهمّ البداية كيف كانت، إنها الآن متورّطة بالحب، معذّبة بالغيرة من امرأة تتصدّر قلب حبيبها، إنها موجودة معه في غرفة نومه، وإلى جواره على مائدة الطعام، إنها أم أغلى شخصين عنده في الوجود... وهي الحبيبة، البعيدة، وتذكّرت كيف كان يحكي عن زوجته دوماً بأنها كائن لطيف، وكيف كان الغثيان يخبط أحشاءها وهو يصفها باللطف، والمسالمة، إنه لا ينفر منها إذاً؟

تنهّدت بقوة وهي تأخذ عهداً على نفسها أن لا تكون له أبداً بعد الآن، ألا تعطيه امتيازاً أن يكون له زوجة وعشيقة، كان قرارها من القوة، لدرجة أقامها من مقعد وحدتها، وجعلها تغلق المكتبة قبل الأوان، وتركب سيارتها للتسكع في شوارع المدينة كأنها تبحث عن شيء تجهله وتعرف أنها لن تجده... وتذكّرت شلّة الفانتازيا، ما علاقتها بها؟ ورسم خيالها بوضوح يد عشيقة الرسام، بأظافرها

www.ibtesama.com

الطويلة المصبوغة بالأحمر، وخواتمها المتراصة في أصابعها، وهي تفتّت فخذ دجاج وتمسك قطعة كبيرة لتلمّها في فم الرسام قائلة: كل يا حبيبي... أحسّت بغثيان، أوه ما هذه العلاقات؟ ما الذي يجمعني بهؤلاء البشر؟ أية تمثيلية هذه؟ واكتشفت كم تختلف جذرياً عن عشيقة الرسام وعشيقة اللواء، إنها مجرد باحثة عن الحب، لا ترغب منصباً، وشهرة كالممثلة، ولا تعوّض عن شباب ضائع كعشيقة الرسام.. إنها تنشد الحب للحب، الحب لتجميل الحياة، ولكن لن تقدر على الاستمرار، إنها تعرف تماماً أنها على درجة من الصدق والشفافية، لدرجة لا تقدر على خداع نفسها والاستمرار فلتبقى علاقتها معه حلماً جميلاً، ذكرى دافئة، إنما لم تعد قادرة على الاستمرار في هذا النمط من الحياة، انتظار طويل ثم لقاء كثيف، كأنه برق يومض فجأة في فتور أيامها، برق يحرقها ويبهرها ويتركها لأيام تتململ نفسها بعده.

كانت قد قرّرت أن تتصل به لتخبره أنها لن تسافر إليه كما اتفقا في أواخر نيسان، وأنها لم تعد تقوى على هذه العلاقة.. لكن رنين الهاتف وصوت بشرى تخبرها أن طليقها رزق بتوأم من زوجته. جعلها تنتفض بمشاعر غريبة لم تميّزها في البداية، للحظات أحست بكره شديد لبشرى، واتّهمتها بقلة اللوق والأذى، ودّت لو تصرخ بها: أيتها العانس الغيورة، أتتصلين بي لتخبريني أن زوجي السابق رزق بتوأم، وتخيّلت وجه بشرى يقطر سعادة خبيثة وهي تخيّل وقع الخبر عليها، قالت لها متصنّعة اللامبالاة، عارفتين كلتيهما أنهما تتصنّعان: حقاً، هل ارتاح باله أخيراً. وحده هذا الخبر جعلها تعدل عن أفكارها، بل تستعجل موعد السفر إليه، أرادت أن ترتمي بين

www.ibtesama.com

فراغه وتفقد الذاكرة، إنه الآن دوارها، جرح قديم انفتح فجأة مفرغاً كل صديد في روحها التي احتاجت لزمن طويل لتشفى منه.

وهكذا أخذت تحضّر نفسها بنفس منكسرة هذه المرة لتسافر، من ضياع إلى ضياع، من هروب إلى هروب، ولكن كيف غاب عن بالها أن هذا الرجل يحبّها ويتعشقها؟ كيف غابت عن بالها كل تفاصيل لقاءاتهما؟ ترى ألم تخزن ذاكرتها هذه اللحظات الرائعة؟ ولكن أية ذكريات قصيرة حديثة العهد هذه، إنها أشبه بشجرة صغيرة وسط صحراء لامحدودة..

• • •

كانت تشعر وهي راكبة في الباص متّجهة إلى دمشق لقضاء يوم ونصف اليوم مع الشاعر، أنها سرعان ما تعود، لكأن الباص يستدير محوّلاً اتجاه سيره، ليعود إلى مدينتها. بدا لها الوقت الذي ستقضيه هناك مجرد حفنة من الساعات سرعان ما تمرّ، لتجد نفسها بعين خيالها عائدة إلى مدينتها، وتخيّلت قطرات من الزيت تطفو على سطح الماء، الزيت والماء لا يمتزجان أبداً، هكذا تحسّ الساعات التي تقضيها معه مجرد قطرات من الزيت، لا تندمج في ماء حياتها الراكد.. لكن ما بالها لا تعرف كيف تقاوم كآبتها؟ وهل كل هذه الكآبة سببها أن زوجها رزق بتوأم ما علاقتها به بعد أن انفصلت عنه منذ سنوات، أليس حر أن يتزوّج؟ وهي أما كان باستطاعتها أن تتزوّج؟ لكنها فضّلت أن تظل حرّة، وهي لا تجد الرجل المناسب، أما كانت تقول لأختها وصديقتها إن الزواج لا يغريها أبداً، لتنسى، لتنسى السنوات المُرّة التي عاشتها بقلق وتوتر، وهيجان من أجل فكرة لم تتحقق الحمل، بذلت جهوداً لتغيير اتجاه أفكارها، أجبرت

www.ibtesama.com

نفسها أن تفكّر بحبيبها، إنه رجل دافئ حقاً يحبّها، ولم يزعجها أبداً، إنه يحترمها كثيراً في العمق، فلتترك لذلك عاطفته تغمرها، وتشعرها أن الحياة جميلة، وأن الأمل موجود دوماً لكنه يتطلّب قليلاً من الإرادة، سخرت من نفسها وهي تقول بل يتطلب إرادة جبارة...

كان بانتظارها مبتهجاً يدخّن غليونه، خفق قلبها وهي تراه، قالت: حسناً فعلت أنني سافرت، تمنّت بقوة وهي تصعد إلى سيارته لو تعيش معه ما تبقى من حياتها، هكذا ستنصفها الحياة، ستعيش أخيراً مع رجل يحبها ويفهمها، لكن إنها تعرف أن ذلك لن يحصل، وأنها ليست تلك المرأة التي ترضى أن تدمّر عائلة، لتعيش مع رجل حرّ لا يطيق أي قيد، سألته ألّا يتّجها مباشرة إلى شقة الرسام، بل رغبت أن تشرب القهوة في مقهى، كانت تحتاجه صديقاً أكثر ما ترغبه حبيباً، ووجدت نفسها تحكي له عن لؤم صديقتها وكيف اتصلت بها لتخبرها أن زوجها رزق بتوأم، انهمرت دموعها وهي تتكلم، كان يمسك يدها ليشعرها أنه معها، يحبها ويتعهّدها...

قال لها مواسياً: لا تسيئي الظن بصديقتك كثيراً، إنها بالتأكيد تحبك.

- لا، أبداً، إنها تغار، إنها تحسّ بقهر كونها لم تتزوّج بعد، ولن تتزوّج.

- مهلاً هيام، أنت حسّاسة وذكية، الإنسان بضعف، يغار، يحسد، هذه أشياء موجودة عند كل إنسان، ولا يعني إذا سقط ضحية إحداها مُرّة، أنه سيء.

- لكنها تقصدت إزعاجي، أنا متأكدة، لأنني أعرفها، لو تعرف

www.ibtesama.com

كم أنا رقيقة معها وأراعي مشاعرها، وهي تتعمّد تجريحي هكذا...

- لا بأس، حبيبتي، أنا واثق أنها ستندم، وواثق أنك ستغفرين لها، لأنك أكبر من أن تحقدي.

- أحقاً تراني هكذا يا توفيق...

- هيام، إياك أن تضعف ثقتك بنفسك، لكن هل أزعجك حقاً كون زوجك السابق رُزق بتوأم؟

- لقد أزعجني من زاوية مخالفة تماماً لما يمكن أن تعتقد.

ابتسم قائلاً: وما أدراك كيف أفكر؟

قالت: ستقول إنني أحسست بالعجز، بمعنى أدق أحسست أنني عاقر.

شهق قائلاً: هيام، أتظنين فعلاً أنني أفكر بهذا؟!

- إذاً، كيف تفكر؟

قال متألماً: عجباً، كأنك لا تعرفينني بعد، أظن أن الموضوع أزعجك لأنه ذكرك بطريقة ما بهدر الوقت وتعب الأعصاب اللذي عشته معه، بمعنى أنك تتحسّرين على الزمن الضائع.

قالت: آه فعلاً، كم أنت ذكي وحساس.

قال: هيام، أنا لا أنظر إليك أنك ناقصة، أو عاقر، أو، يا إلهي ما هذا الكلام التافه الذي تتفوّهين به أحياناً...

قالت: لست أنا من أقوله، بل الناس.

قال: ولماذا تبالين بأقوالهم؟

- من قال إنني أبالي؟

- ثم إنك، وكما فهمت منك ذات يوم، لا تشكين من علّة، أنت طبيعية، وقد يكون سبب عدم إنجابك لطفل، إما تضاد مناعي

www.ibtesama.com

ينك وبين زوجك، أو لسبب نفسي كما قال الطبيب الأميركي.

لم تحس براحة أبداً، كما تشعر وهي معه، كأنه على افتتانها الشديد به، بأن أمسكت يده وأغرقتها بالقبل، قالت له بكل جوارحها: لكم أحبك.

كانت تحسّ تماماً أنه يُحب وأنه عظيم، رجل دافئ ورائع، هذا ما قاله لنفسها...

قال: حبيبتي الساذجة، أحياناً أحسّك طفلة، إن حساسيتك مفرطة للغاية.

سألته: وهل هذا خطأ؟

قال: إنه سلاح ذو حدين، أحياناً تعذّبين نفسك بفرط الحساسية.

- ولكن، هذه طبيعتي، ماذا أستطيع أن أفعل؟

- يمكنك أن تخفّفي حدّة انفعالاتك.

- معك حق، لو كنت إلى جانبي دوماً، لتغيّرت بالتأكيد.

- لقد أنسيتني الخبر الهام، المفاجأة السارة.

- أية مفاجأة.

- سأقضي في اللاذقية أسبوعاً كاملاً، فقد حجزت شاليه لمدة أسبوع.

سألت: برفقة عائلتك؟

قال ببساطة: بالطبع، هذا حق الصغيرين عليّ، لا تتصوّري كم أنا مقصّر تجاههما، إنهما لا يريانني تقريباً.

- ولماذا؟

- دوماً أنا مشغول، بأسفار، واجتماعات، وقد طُلب مني أخيراً

www.ibtesama.com

أن أشارك في مجلة أدبية ستصدر حديثاً في باريس...

- وهل ستشارك؟

- لا أعرف، أدرس هذا المشروع الآن...

قالت: لكن، هل ستتمكن من اللقاء كل يوم؟

قال: ليس كعادتنا، سأكون ملتزماً بالصغيرين يا حبيبتي، لكني أعدك، أنني سأسافر لأيام، من أجلك وحدك...

لم تعلّق بكلمة، ولم يكن عندها الوقت ولا الرغبة للتخيل كيف سيكون وقع وجود أسرته في اللاذقية. فضّلت أن يتناولا طعام الغداء في الغوطة، وسط الطبيعة، تحلّلت روحها من ثقل همومها، وهي معه، استعادت مرحها ولطفها الأصيل، قالت له عاتبة: هذه المرة لم تفاجئني كعادتك.

قال ضاحكاً: وما أدراك، لقد حضّرت لك مفاجأة لا تتوقّعينها أبداً.

سألت: ما هي؟

قال: بل يجب أن تحزّري أولاً.

قالت متلهّفة لتعرف: لا أحب أن أحزر، قل لي بسرعة ما هي.

استأذنها ليحضر المفاجأة من سيارته، كانت مجلة، مجلته الأدبية التي يترأس تحريرها، وقد نشر لها ثلاث من قصائدها، مع صورتها في أعلى الصفحة.

تلعثمت من الفرح سألته: لكن، كيف لم تخبرني، كيف لم...

قاطعها قائلاً: وكيف ستكون مفاجأة إذا أخبرتك؟

- لكن، هل ترى أشعاري جميلة حقاً، بمعنى هل تستحق النشر حقاً؟

www.ibtesama.com

- بالتأكيد.

- لعلك تقول ذلك لأنك تحبني؟

- لا، أبداً، لست من هذا النوع، لو لم يعجبني شعرك، لقلت لك صراحة ذلك.

قالت بغنج: إذاً أنت متحرّر تماماً من تأثيري العاطفي؟

- تماماً.

تذكّرت قائلة: لكنك هكذا، تحرّض في نفسي حب النشر.

- بل قولي حب الكتابة، أنت كسولة حقاً.

- أنا كسولة؟

- أجل كسولة، كمدينتك، يجب أن يكون عندك دافع كبير لكتابة الشعر.

- لكن، لكنني تأخرت.

- لا، لم تتأخري، هذا منطق سلبي تماماً.

ضحكت، حسناً، سأكون مثل إيزابيل إيلندي، بدأت الكتابة وهي كهلة.

- أجل، لقد بدأت الكتابة وهي تزيدك بأكثر من خمسة عشر عاماً.

قالت مازحة: إذاً أمامي خمسة عشر عاماً أخرى، أتدلّل فيها على كتابة الشعر.

ضغط على يديها قائلاً: هيا بنا إلى بيت الرسام، يجب أن نرتاح قليلاً، قبل أن تجتمع ثلّة الفانتازيا.

ابتسمت برضا، كانت تعرف تماماً ما يقصده بكلمة نرتاح.

• • •

www.ibtesama.com

اقترحت أن يسهرا هذه المرة وحدهما، خارج شلّة الفانتازيا، وافق على اقتراحها منوّهاً أن الشلّة ستفتقدهما، وأنهم جميعاً يحبونها، سألته: لو كنت ترغب كثيراً بالسهر معهم، لا بأس، أسهر مع الشلّة؟ قال، لا يا حبيبتي، سنسهر أين ترغبين، ثم ننضم إليهم ولو لنصف ساعة، تنهدت مخاطبة نفسها: هذا يعني أن نسهر حتى الفجر كالعادة وسط سحب الدخان وقرع كؤوس الويسكي إلى ما لانهاية، آمنت حقاً أن هذين اليومين اللذين نعيشهما في دمشق خارج حياتها تماماً، لا يمتّان إليها بصلة، إنهما فجوة، قُطّع، فقاعة طائرة في فراغ، لكن أين إحساسها بالاستمرارية المطمئنة؟ أليست كل علاقة تحتاج لهذا الشعور الذي يبطّنها، ولكن مهلاً، لا تتركي التساؤلات تغزوك وأنت في دمشق وأنت ملتصقة به، هذا ما قالته لنفسها، إنها رحلة على أية حال، حتى لو تعبت حتى الشالة، حتى لو ندمت، ستعودين مختلفة، أكثر حيوية ربما، أكثر حزناً ربما، وها هو العمر ماضٍ بسلاسة لا تشعر به، سنة وراء سنة وراء سنة فلتعش دون أن تكثر من الأسئلة... أجل كرّرتها لنفسها مراراً، عيشي دون أن تكثري من الأسئلة...

في مطعم الميردیان، جلسا متقابلين، أضواء خافتة وموسيقى رومانسية هادئة، بينهما وردة حمراء اصطناعية، تبدو طبيعية لشدة إتقان صناعتها، كانا متشيين بعد لقاء انتظراه أياماً طويلة، وها هما الآن مستقران، سعيدان، تبتسم عيونهما سعيدة، وتشتبك أيديهما مؤكدة حباً، يجتاز ببطولة شهراً بعد شهر، حدثها أنه استأجر شاليه رائعة أقرب ما تكون إلى البحر، وسيكون مع عائلته في اللاذقية في أوائل حزيران، قال إنه بإمكانهما أن يحتفلا بـ 6 حزيران...

www.ibtesama.com

وجدت نفسها تسأله دون تفكير، بل بصورة تبدو انعكاسية:

هي، هل تسبح؟

قال ممتعضاً: ما علاقتنا بها الآن؟

- أوه حبيبي، مجرد سؤال.

- طبعاً تسبح.

تفاجأت قليلاً كأنها تتساءل امرأة في الخمسين أم لطفلين يفترض ألا تسبح في شرقنا العزيز...

- وكيف هو مايوه السباحة؟

- هيام، ما هذه الأسئلة؟

- أجبني، أرجوك.

- إنه مؤلف من قطعتين.

- قطعتين!

تعكّر صفاء وجهها، انتقل التعكر إلى صدرها، وأحسّت بملامحها تتصلّب وتقسو، وأنها ناقمة عليه وترغب بالشجار معه، لكنها تذرّعت بالصمت بالصبر، بما بقي لديها من حكمة.

قال: هيام، لا تبحثي عن النكد، ماذا يهمّك إن كانت تسبح أم لا، وشكل مايوه سباحتها، ألست أنت من تختلق المشاكل؟

قالت بإصرار: لكنها موجودة، صمتُّ قليلاً - وبقوة.

قال: هيام، ما ذنبي أنا، كم مرة تحدّثنا في هذا الموضوع، أخشى أن ننتهي بعد قليل إلى شجار تقولين فيه إنني أتمتع بزوجة وحيية و... أرجوك افهمي جيداً، أنا أحبك، كما لم أحب امرأة في حياتي ولا أرى سواك صدّقيني، ومراراً كرّرت لك أن حبي لك هو الحصانة الوحيدة ضد كل الساء، ولكن يبدو أنك لا ترغبين

www.ibtesama.com

بتصديقي، لأكن صريحاً أكثر، وأرجو ألا تزعجك صراحتي، أنت لا تؤمنين بعلاقتنا.

تساءلت: أنا؟

- أجل يا هيام إنها الحقيقة.

كان صادقاً ورقيقاً فكرت لكم هو مُحترم ومُحب، أمسكت يده معتذرة، كانت كآبة حزن تطفر فوق وجهها رجته أن يعذرها، وأن يقدّر مشاعرها ووحدتها المريرة التي جعلتها فتانة خيال... ولم يتمكن من الاسترخاء إلا بعد أن شربا الكأس الأولى من نبيذ البوردو، سمحت للمرح المختزن في أعماقها أن ينطلق، حدّثته أنها ترغب فعلاً أن تكتب ديوان شعر محوره الأساسي علاقتهما. البعد، والمسافة، والحلم، وقالت إنها متأكدة أن كل كاتب أو شاعر يرغب بالكتابة عن الحب بطريقته، بطريقة مبتكرة وحديثة لم يسبقه إليها أحد.

شجّعها وأكّد لها أنها تملك حساً عالياً وموهبة صريحة، وأنها لا تحتاج سوى لبذل الجهد والمحاولات المتكررة لتنطلق في عالم الشعر - قاطعته متحمّسة لفكرة مفاجئة قائلة: أتعرف أكثر ما أحبه في علاقتنا كوننا أصدقاء، وبيننا نقاط مشتركة كثيرة، وهي تؤمن أن الصداقة تعيش طويلاً، وأنها أحلى ما يميّز علاقة الحب بين الرجل والمرأة...

قال معاتباً: ما دمت تنظرين لعلاقتنا هكذا، لماذا تشوّشين ذهنك ببعض الأسئلة السخيفة...

ابتسمت، كانت تتمنّى أن تعلّق على كلامه، أن تلك الأسئلة التي تشوّش ذهنه، ليست سخيفة على الإطلاق...

www.ibtesama.com

انهمكا إلى شلّة الفانتازيا بعد منتصف الليل بقليل، كانت الشلة مجتمعة في بيت الأستاذ الجامعي، قدّمها لزوجته كقريبة للشاعر، قالت في سرّها، هكذا تكون الزوجة، امرأة بشوشة الوجه، طباخة ممتازة، لا يساورها أي شك حول أصدقاء زوجها اللذين يدخلون عقر دارها، لا يخطر ببالها أبداً أن للرسام عشيقة في عمر والدته، وأن للواء عشيقة في عمر بناته، خاصة وهما يدخلان دارها ويأكلان طبخها، إنهم يحترمون البيت وأصحابه، ولا يمكن أن يصحبا أسرارهم وفضائحهم معهم، إنهم يستترون عندما يرتكبون المعاصي، أمكنها أن تقرأ كل ذلك في صفحة وجه الزوجة المطمئنة والمرحّبة بضيوفها لدرجة مبالغ فيها، والتي تصرّ وتؤكد أن يأكلوا من كل الأصناف، تساءلت: ترى ماذا لو عرفت تلك الزوجة حقيقة علاقات أصدقاء زوجها؟ لكنها زجرت نفسها مذكّرة إياها أن تقلّل من الأسئلة قدر المستطاع.

كانت الزوجة لطيفة ومسالمة، كما يصف الشاعر زوجته، حدّثتهم كم أنها تؤمّن الجو المثالي لزوجها ليؤلف كتبه الجامعية ويحضر أبحاثه، وكيف تعرف دون أن يقول لها متى تحضر له فنجان قهوة، ومتى يحتاج لبتسامر دقائق، ومتى يحتاج ليختلي بنفسه ساعات، كانت تمتدح نفسها بطريقة غير مباشرة كم هي ناجحة ومرهفة وزوجة مثالية. كانت تعيش ظل لزوجها، ونجاحها ظل لنجاحه، وسعادتها ظل لسعادته، كانت خادمة بمرتبة شرف أي زوجة ودّت لو تسألها عن طموحها الخاص، عما تحب أن تعمله أو تحلم به وتسعى لتحقيقه، لكن سحنة الغباء المطمئنة في وجهها وتلك الابتسامة التي صارت جزءاً من شكل وجهها جعلتها تعدل

www.ibtesama.com

عن فكرتها، فعلاً شيء مضحك، بل شيء مبك، وما علاقتها هي، إنها مختلفة، إنها ليست زوجة غنمة، ولا عشيقة تبغي مصلحة... كفى الآن أيتها الأفكار المشوّشة، لا ترهقي ذهني هكذا، فأمامي بعد ساعات قليلة سفر طويل.

• • •

ظهر اليوم التالي حين أوصلها إلى محطة الباصات، رجاها، بل توسّل إليها ألا تفكر أفكاراً تؤرقها، أن تنسى أنه متزوج، كان يُحضّرها بشكل غير مباشر للأسبوع الذي سيحضر فيه إلى اللاذقية برفقة أسرته. ابتسمت، وعدته، أكدت له، بينما هي ليست متأكدة من شيء على الإطلاق.

كانت تشعر بإحباط صريح وهي تنتظر قدومه مع أسرته، وتتخيلهم يركبون السيارة، الزوجة إلى جواره، والطفلان في المقعد الخلفي، الزوجة في مكانها هي حيث جلست مراراً إلى جواره، ترى ألا تلتبس الأمور بذهنه أحياناً ويحسّ أن التي تجلس إلى جواره هي حبيبته وليست زوجته؟ وكيف هناء يعيش هذا التوازن الدقيق بين امرأتين؟! وهل يمكن للمرأة أن تعيش هذا التوازن الدقيق كما تسمّيه وهي بين زوج وعشيق، وستصل العائلة السعيدة إلى الشاليه، يا للبحر والرطوبة، سيسرعون للسباحة، وتلبس الزوجة المايوه بقطعتين، سيساعدها في ترتيب الشاليه وتنظيفها، وفي تحضير الغداء، ويتحلّقون جميعاً يأكلون بشهية بعد سباحة منهكة، ثم سينامون طويلاً بعد الظهر، هل حقاً لن يقرب زوجته خلال هذا الأسبوع، والبحر والشمس والبحر والسمك والشاليه الضيقة كلها، تؤهب للاحتكاك، للوصال، وهي زوجة، أي تحمل في يدها ورقة

www.ibtesama.com

رسمية وشرعية بحقها في هذا الرجل، بجسده، بحيائه... هكذا كانت تتجرّ وراء هذه الأفكار وهي مطرقة في مكتبها، تفتح درجها الخاص، محاولة رفع معنوياتها ورسم ابتسامة على وجهها وهي تقرأ أشعاره وكلماته، ترى لماذا لم تعد هذه الكلمات تحرّك فيها ذلك الفرح والزخم كما كانت في البداية؟ لماذا تحسّها الآن مجرد كلمات، الشاعر يكتب قصائد يتخيّل من يقرؤها أن صاحبها معذّب، بائس، يموت من إحساسه بالظلم، فيما هو يرشف كأس ويسكي وهو يكتب...

في الثالث من حزيران، أفاقت معهم ورافقتهم بعين خيالها كيف يجمعون أغراض رحلتهم أب وأم وطفلان، وكيف ينطلقون خارج دمشق، ويأكلون سندويش في منتصف الطريق، وكيف يتابعون، أمكنها أن ترى يد زوجته تبحث عن شريط كاسيت بعجب الصغيرين، وأن تمد يدها إلى علبة المناديل الورقية لتسحب منديلاً تمسح به العرق عن جبهة زوجها، أمكنها أن تتخيّل أن فستانها بسيط ومفتوح من الأمام بعض من الأزرار، وستترك الزرين الأخيرين مفتوحين كاشفة عن ركبتيها وربما فخذيها، وسيتبادلون أحاديث عديدة عن رفاقهم في اللاذقية، وكيف سيزورونهم ويدعونهم إلى الشاليه، لن يذكروها هي بالطبع، أوه أنا في الظل، في السرّ، هذا ما كانت تقوله لنفسها وهي تحسّ بفرق من كونها في الظل. توقّعت أن تدفعه أشواقه لمفاجأتها في المكتبة حال وصوله، لكنها أغلقت المكتبة ظهراً، ورجعت إلى البيت تنتظر مكالمته، ولم يتصل ورجعت بعد الظهر إلى المكتبة، تشرب قهوتها فيما وجهها يرسم علامة الحياد البائس، رشفت قهوتها وحيدة متوقّعة أن يفاجئها

www.ibtesama.com

كل لحظة، لكنه لم يأتِ باكراً كما توقعت، أحسّت بغضب، وشعرت أنه يهينها، لو كان مشتاقاً لدرجة عظيمة، لكان هرب من أسرته وقصدها، ولو لدقائق.. تمام السابعة والنصف مساءً فاجأها وهي تستعدّ لإغلاق المكتبة، كان يلبس صندلاً، وبنطالاً من الجينز وقميصاً قطنياً، سلّم عليها بحرارته المعتادة، وردّت بحرارة مفتعلة تفرّس في وجهها باحثاً عن بذور غضبها، وانزعاجها ليخلصها منها بذرة بذرة، لكنها أمَرّتْ ملامحها أن تتبنّى أن ترسم سحنة الحياد الأبله، حدّثها عن رحلته كما رسمتها في خيالها تماماً، نظر في ساعته وقال إنه بعد ساعة يجب أن يلحقهم بعد أن يشتري لهم البيتزا، وأن ابنة عم زوجته ستسهر معهم في الشاليه...

بحلقت فيه مستغربة، أهذا هو الشاعر العاشق، لكم هو متزوج.

قالت له ببرود: إذاً لن نلتقي اليوم...

قال: أرجوك حبيبتي تفهّمي ظروفي، هذه الرحلة لأجل الأطفال، والله أنا أتمنّى أن ألقاك كل لحظة، وكلما سنحت الفرصة سأغتنمها لأنطلق إليك بقوة شوقي إليك، نظر في ساعته، لكن أمامنا نصف ساعة، يمكننا أن نجلس في المقهى نشرب القهوة لو أحببت...

قالت بسخرية: نصف ساعة! يا سلام.

قال: هيام، هذا ما كنت أخشاه، أن تتوتّري، فكّري قليلاً بالصغيرين يا حبيبتي، إنها عطلتهم الصيفية، إنها الفرصة الوحيدة التي أعيش معهما وأعوّض لهما تقصيري الشديد...

قاطعته: حسناً حسناً... يمكنك أن تكون مطمئناً، سنشرب القهوة هنا في المكتبة ثم سنذهب أنت لتشتري لهم البيتزا وتلحقهم.

www.ibtesama.com

أمسك يدها وقبّلها: أشكرك هيام، لو تتصوّري كم أنا مشتاق لك.

انصرف بعد أن قضيا حقاً نصف ساعة وخمس دقائق، تأمّلته بركب سيارته، قالت بسخرية مُرّة تخاطب نفسها: كم هو زوج.. كان أمامها خياران لا ثالث لهما: إما أن تتصل بصديقتها بشرى، وتجلسان في مقهى على البحر وتحكيان الحديث نفسه عن الضجر، وضياع العمر هدراً، وعن انتظار حب لا يأتي، ورجل تحلمان أن يوجد يوماً ويظل حلماً، أو أن تتصل بأختها مرام، تدعوها لنزهة في السيارة وتمشيان في أطراف المدينة، ومرام على وشك الولادة، والطبيب ينصحها دوماً بالمشي.. لكن، من سوء الحظ، بشرى ليست في البيت، كذلك مرام، بدت لها الوحدة في تلك اللحظة مخيفة فعلاً، كأنها خطر متربّص بها، لشدّ ما تحتاج لوجود أي إنسان معها الآن، أي إنسان، إنها لا تريد أن تلاحقه بعين خيالها كيف يأكل البيتزا مع عائلته وكيف سيسيرون على شاطئ البحر ثم ينامون في غرفة ضيقة... لا، قالتها بقوة وتحدٍّ، لا لن أنشغل به وبأسرته، سأوقف مشاعري عند حدّ اللامبالاة.. لكن وفيما كانت تهمّ بإغلاق المكتبة فاجأها ندهم صديق صهرها، رجل في الخامسة والأربعين لم يتزوّج، كانت تلتقيه مراراً في بيت أختها وتحسّ بإعجابه المبطن بها، لكنها كانت ترفضه هو وإعجابه فإنه ليس الرجل المناسب، لكنها هذه المرة رحّبت به، وحين دعاها لشرب عصير أو أكل بوظة في أحد المقاهي، رحّبت بالفكرة تاركة إياه في ذهول... ولم تكن يوماً ما أشد بهجة وأكثر مرحاً وهي معه، حتى أنها شعرت برغبته القوية كي يبوح لها برغبته بالزواج منها..

www.ibtesama.com

لكنه... تردّد... كانت تتوقّع بأي لحظة لو تلتقي بالشاعر وزوجته وطفليه في المقهى، تتمنّى ذلك اللقاء، ستلتقي عيونهما، هل سينزعج؟ هل سيعاتبها؟ يمكنها أن تقف أمامه بكل برود وتقول له بتفة كلمة واحدة: ألا يكفي أنك متزوج؟!!

قرّرت أن تشغل نفسها أسبوع وجوده في اللاذقية مع أسرته، كي لا تظل ضحية أفكار تعذّبها، قرّرت أن تدعو عائلة أختها للغداء، ستحضّر لهم السمك المشوي، وستطلب من صديقها بائع الأسماك أن يختار أفضل سمك موجود، لكن، كانت صدفة لا تخطر على بال أن تلقاه وهي في سيرة تسكعها بعد أن أوصت بائع السمك أن يحضّر لها الأسماك التي اختارتها، يقود سيارته، جمّدتها المفاجأة، تساءلت أيعقل أن يكون هو؟ لعل بصرها خدعها، لكن ها هو يتوقف في ساحة بائع الأسماك، ويترجّل من سيارته، ومن بعيد توقفت تراقبه بنظرة مطفأة، كيف قارب صديقها بائع الأسماك، وأخذ يشير بيديه إلى الأسماك المبتة المغطّاة بالثلج، فاجأها سلوكها، ما بالها لا تسرع لملاقاته؟ لماذا لا تسرع لتفاجئه بتلك الصدفة السعيدة؟ وقفت بعيدة تتأمّله كيف يختار الأسماك لأسرته، وكيف ستشويها زوجته أو تقليها، وكيف سيتحلّقون حول الطاولة، يأكلون، وقد تفحّص له زوجته سمكة وتقدّمها له بحب، وهي ترسم على وجهها ابتسامة تواطؤ، كأنها تدعوه لفعل الحب بعد غذاء شهي، وبعد أن ينصرف الصغيران للسباحة أو لأفلام الكرتون، أوه هذا حقها كزوجة، حقها الطبيعي... تساءلت: عجباً كيف لم يمر بالمكتبة وهو في قلب المدينة؟ وفجأة لمحها ولوّح لها بيده، سارعت باتجاهه بخطوات بطيئة، وقد أتاها إحساس قوي تمنت به

www.ibtesama.com

أنه لم يكن ينوي أبداً أن يمر بها هذا الصباح، وفجأة طغت صورة أدهشتها وهي تسير كالمخدّرة صوبه، تخيّلت أكوام الحسك تتجمّع في صحن من ورق أو في كيس، وستلقى خارج الشاليه، ثم يوصد الباب الخارجي الخاص بالشاليه، والتصق وجهها بكيس الحسك والفضلات، كأنها تُلقى معه خارج حياته وأسرته، أو لكأن حصتها منه، هو ما يزيد عن زوجته وأولاده، صورة قاسية مهينة أن ترى وجهها مع حسك السمك يعلو سطح علبة القمامة، فيما زوجته وأولاده في الجانب الآخر من الباب الخشبي يشربون الكولا ويتجشأون. أو يأكلون قطع الحلوى، كانت نظرتها إليه من البرود والجمود لدرجة أحسّت أن بياض عينيها يتخثّر كبياض البيض، خطر لها لو تستدير وتعود أدراجها تاركة إياه لأسماكه العائلية، وحين تراجعها استطاعت أن تقرأ دهشته السعيدة، إنما المطعمة قليلاً بالتورط، كمن وقع فجأة في المصيدة، في قاع نظرتهما يترسّب امتعاضهما من هذه المفاجأة، ردّدت أذناها صدى صوته وهو يقول: أنا رب سفينة يجب أن أوصل أولادي إلى برّ الأمان.

قال: عجباً لم أتوقع أن ألقاك، هل أغلقت المكتبة؟

قالت بسخرية مبطّنة: مؤقتاً..

قال: أتعرفين، كنت سأمرّ بك حال شرائي السمك.

ابتسمت وهي لا تصدّقه: حقاً!

- أجل، هل تسبقيني إلى المكتبة، سأوافيك حالاً.

- أوكي.

حانت منها التفاتة إلى سيارته، لترى في المقعد الخلفي حقيبة ثياب، وتلفاز صغير، ورسم خيالها ثيابه مختلطة مع ثيابها، وقد

www.ibtesama.com

ذابت الحدود بينهما، كما تذوب الحدود بين جسدين يمارسان الحب، كانت الشامة تمثّل لها في تلك اللحظة بصورة رجل وامرأة عاشقين وغريبين ومنفيين في نفس المدينة، وبينهما سمك ميت، موت لا أمل بالقيامة بعده.

كان بانتظارها عند باب المكتبة، سألها أين كنت؟ لم تستطع أن تخبره أنها تسكّعت، وأنها توقفت طويلاً عند واجهات محلات أقمشة لن تشتريها وليست معجبة بها، وحين حضرت فناجين القهوة أحسّت بغصّة شديدة ابتلعتها على دفعات كي لا يلاحظ تشنّج حنجرتها، وبعد لحظات سوف يمضي لأسرته إلى سفينته، تاركاً إياها، تلملم صورها هنا، وهناك، وللحظة أحسّت أن كل الرجال الذين عرفتهم متشابهين، تركه ينشر أفكاره أمامها، بأنه سيستأجر بيتاً بعيداً يضمّهما ويكون عشهما السعيد الذي يهربان من الدنيا إليه، كانت تصغي إليه مبتسمة لكأنها تسمع قصصاً لا تعنيها أبداً، كأنه يتحدث عن امرأة أخرى، كانت تشمّ رائحة النهاية، وفكرت أن النهاية تنذر دوماً بقدومها، كما ينذر أيلول برائحة الخريف، وكما ينذر خفقان القلب المفاجئ وغير المتوقع بوقوع الحب، لكن ما الذي ينذرها الآن بالنهاية...

أجابت ساخرة: الأسماك الميتة.. وفيما هي تبتلع قهوتها وتصغي إليه، فاضت دموع مباغتة من عينيها، لم يلحظها لأنها أمرتها أن تتجمّد، وتمنت لو تقول له: كفى، لا تتكلم بعد، لن تستأجر بيتاً ولن نعيش فيه كلصين، ما أنت سوى متزوّج، غارق ضمن مؤسسة الزواج، وما أنا سوى امرأة وحيدة، تجرّب الطعم الأخير للحب، عارفة سلفاً أنه الحب الأخير، وربما تمسّك به لأنه

www.ibtesama.com

الأخير، ودّت لو تصرح بأفكارها وتبكي طويلاً على صدره، لكنها أعادت بهدوء رصين ومبالغ فيه فنجان قهوتها إلى صحنه الأبدي، وتبادلا معاً نظرة طويلة ملتبسة بألف سبب وسبب، نظرت في ساعتها، كانت تريده أن يغادر، وقبل أن ينصرف ضغط على يدها وقال لها: لكم أرغبك يا هيام، كم أنا مشتاق إليك.

أطرقت نظرها، لم تنطق بكلمة، كان نظرها يرسم حدود البلاط، ورأت بعين خيالها، الأسماك الميتة بعيونها المستديرة المفتوحة، قرّبت عينيها من عيون الأسماك، كانت نظرة عميقة وطويلة ومستمرة وميتة بينهما!!

دمعت عيناها وهي تأمره بلطف أن يغادر، تابعته بنظرها حتى غاب، قامت تغسل فنجاني القهوة، لتعدّ مجدداً فنجان وحدتها الأثير!

لفنجان قهوة وحيد، وامرأة وحيدة، هذه هي الحياة لها طعم القهوة المُرّة، ابتسمت لنفسها، راق لها هذا التعبير، جميل أن تكون للحياة طعم القهوة، ألم ترافقها القهوة في كل مناسبة، حب، حزن، وداع، انتظار... أجل طعم الحياة هو طعم القهوة، وما يترسّب في القاع هو مرارة الذكريات.

تساءلت: عجباً، كيف يخطر له هو الحساس الشاعر أنها يمكن أن ترضى بحياة كهذه؟ بما يتبقّى من زوج؟ وغاصت بأفكار غامضة لم تستكشف كنهها لكأنها تمخّضت من فكرة وحيدة: ما الحب سوى مشاركة يومية ودائمة بين اثنين، أما تلك العلاقة بينهما التي تفصلها مسافات، وتعرقلها مئات الاعتبارات، فهي لا تورث سوى الخيبة والإرهاق.

www.ibtesama.com

في اليوم الثالث لم تلقه أبداً، لم يمر بها، لا بأس، كان ذلك اليوم مناسباً جداً للبكاء، أحست أنها منذ زمن طويل لم تبك لكم هو ضروري البكاء، كانت تحسّ أن شيئاً حيوياً وهاماً في حياتها يغرب، ترى ما هو؟ أهو الحب؟ أم الحياة؟ لا تغربي أيتها الحياة دعيني أستظل بدفئك، بدفء الشمس والحب، كانت دموعها قد أذابت الكحل كله، لتراه أمامها بقعاً سوداء فوق بياض المناديل الورقية المجعدة في يديها المتيبستين من برودة الوحدة.

لم تكن يوماً مستاءة كما هي الآن، لكم تحسّ بالإهانة، إنها تلمس لمس اليد كم هو زوج وأب، يغيب عنها ثلاثة أيام بالكاد يراها فيها نصف ساعة، يكون فيها مشوشاً ويتنظر أن يعود إلى عش استقراره، وهي المغفلة، صدقت قصة الحب، وأنهكت نفسها في أسفار معتقدة أنها بطلة قصة حب واقعية، قلّ أن يجود الزمان بمثلها.

كانت مجروحة وأقرب للذهول وهي تتساءل: أهذا هو العاشق الولهان، الذي يعبدني، كيف يقوى أن يكون بعيداً عني عدة أمتار ولا يسعى لرؤيتي، وعجزت رغم محاولاتها عن إيجاد مبرر له، أوه مهما كان مشغولاً وملتزماً بأسرته، يجب أن يشدّه شوقه لرؤيتها، وأقسمت ألا تسمح له برؤيتها طوال عطلة المتبقية، من حسن حظها أن الغد هو الجمعة، ستلجأ إلى بيت أختها هاربة منه، أخذ غضبها يتعاظم وهي تشتمه يا له من جبان، من زوج خنوع، من ممثل ومنافق، أيظن أنه امتلكني، والله لألقنه درساً لن ينساه، سأريه أنني لست مبالية به... وطوال مساء الخميس لم ترفع سماعة الهاتف رغم أن رنيناً ملحّاً كاد أن يفطرها للإذعان، لكنها أقسمت ألا

www.ibtesama.com

تسمح له أن يحدّثها وألا تراه يومين على الأقل، فليلتصق بزوجته الأبدية، إنها تناسبه تلك النعجة، تلك الغنمة الذليلة...

تردّدت طويلاً هل تفتح مكتبتها صباح السبت، أم تتركها مقفلة كي لا تعطيه فرصة أن يراها، لكنها اقتنعت أن تتابع حياتها بشكل عادي وأن تفتحها، ولم تمر دقائق على دخولها مكتبتها حتى فاجأها وفي عينيه شوق وألم، ردّت على نظرته بنظرة قاسية لا ترحم، وابتدرته قائلة: لماذا أتيت، ابقَ ملتصقاً بها، إنها تناسبك.

قطّب جبينه قائلاً: لماذا تتحدّثين هكذا؟

صرخت: أوَتظنني غبية إلى هذا الحدّ؟ ما دمت زوجاً خنوعاً هكذا، وأباً مثالياً، لماذا تريد أن تعشق وتحب إذاً؟! إليه أخبرني أرجو أن تكون متمتكما أنت وحرمك المصون في حدّها الأعظمي، هل اكتسبتما اللون البرونزي المثير، هل سبحتما كفاية، وأكلتما السمك بأنواعه، واجتمعتما بالأصحاب، وقضيتما ليالي غرامية.

صرخ بها: كفى، كفى، لا أظنني أتيت لأسمع هذا التجريح وكأنني متّهم، بل مُدان.

قالت: وماذا تتوقّع أن تسمع - وعلا صوتها - هل تعتقد أنني العشيقة التي تنتظرك دوماً مبتسمة راضية بالفتات.

- أنت غريبة حقاً!

ضحكت ساخرة: غريبة؟ ولماذا يا فتاي، أين وجه الغرابة؟ أتدّعي أنك تحبّني وتمرّ أيام خمسة وأنت على بعد أمتار قليلة مني ولا تتفقّد رؤيتي أو تظنني لم أفهم نظرتك حين التقينا صدفة في ساحة بيع الأسماك.

تساءل بدهشة: نظرتي، ماذا تعنين؟

www.ibtesama.com

- نظرة من تورّط بشيء لا يحبه، لم تكن تطيق رؤيتي وقتها.

- هيام، لشدّ ما أتألم عليك، كل هذا الهيجان والغضب، لأنني التزمت بأسرتي خمسة أيام، لأن هذين المسكينين اللذين لا يريان والدهما إلا قليلاً جداً، أرادا أن يقضيا معه إجازة قصيرة، مجرد أسبوع... هل أكون مجرماً ومنافقاً وأستأهل تجريحك وتقريعك لمجرد أنني أردت إدخال البهجة إلى قلب هذين الطفلين، أهكذا تطرحين بكل مخزون علاقتنا من الحب والاحترام واللهفة؟ كيف يمكنك أن تحدّثيني بهذه الطريقة؟ انظري إلى نفسك، انظري إلى وجهك في المرآة، أهذا وجه امرأة تحب؟ أنا لا أحسّ سوى أنك تكرهينني، لا تطيقين رؤية وجهي.

خفّ هيجان غضبها، حلّ الصمت، صمت ثقيل، كانت ترتد كلماته على مسامعها، أتراها ظالمة فعلاً، أم مظلومة، قامت بصمت تحضّر القهوة، ومن زاوية عينها كانت تراقبه، بدا لها مسكيناً، عاشقاً، مهاناً، بعد أن استقبلته بوابل من التقريع والسخرية، رقّ قلبها وقرّرت أن تكون ألطف، إنما لن تسامح أبداً... قدّمت له فنجان قهوته صامتة، تناوله شاكراً، سألها أين كنت مساء الخميس وطوال يوم الجمعة؟ ردّت بسخرية مبطّنة: ولماذا، هل كنت ستدعوني إلى مكان ما؟

قال: أجل، الخميس عصراً أوصلتهم إلى قريتي، لأن جسمهما احترق من الشمس، وقضيا هناك الخميس والجمعة، وسيعودون اليوم ظهراً...

خاص قلبها، إذاً كان وحيداً ليلتين، يا إلهي ما أغباها، كم هي حمقاء... كيف فوّتت هذه الفرصة من يدها، سألته ممتعضة:

www.ibtesama.com

ولماذا لم تخبرني بهذا المشروع؟

قال: لقد مررت بالمكتبة عصر الخميس، كانت مقفلة، وأخذت أتصل لم يرد أحد في البيت، لو تعرفين كم مرة اتصلت، حتى أنني تجرأت وقرعت باب بيتك يوم الجمعة، لكن للأسف، كنت أعرف أنك هاربة مني تبغين عقابي، ترى لماذا يا هيام؟ ألا ترين كم أنك قاسية؟

دمعت عيناها قالت: صدّقني أنا لست قاسية، لكني لا أحتمل وجودها، لا أحتمل أن تلبس المايوه ليلاً نهاراً، وأن تناما بجوار بعضكما.. أفهم لا أحتمل.

- هيام، ألن ننتهي من هذا الموضوع؟

- يبدو أنه من الصعب أن ننتهي..

- وأنا ماذا عساي أفعل، كيف سأثبت لك أنني أحبك؟

- لا أعرف.

- صدّقيني إذا كان موتي كافياً لجعلك تصدّقين، فيا مرحباً بالموت.

- لا تقل هذا الكلام البشع، كفى، لنغيّر الحديث.

أحسّت أنه متيّم بها، عصرها الندم على يومي الخميس والجمعة، ما أغباها، جنّ جنونها لمجرد أنه انشغل بأسرته ثلاثة أيام، ترى ألا يجب أن تواسيه قليلاً بعد أن عنّفته وكأنه صبي صغير ملعب...

ابتسمت في وجهه، أحسّت كم من زمن طويل لم تبتسم، سألته وقد رقّ صوتها: يبدو أنك تعرّضت طويلاً للشمس، صار لونك جميلاً...

www.ibtesama.com

دمعت عيناه فجأة وقال: طول عمري أنا مؤمن أن الحب هزيمة.

سألته: توفيق ما بك؟ أتدمع عيناك، آسفة لم أقصد تجريحك هكذا؟! لكن لا تقل الحب هزيمة. أمسك يدها بحنان قائلاً: بل إنه هزيمة حقاً... أنا الذي أحلم بك ليل نهار، والذي قضيت البارحة ساهراً حتى الفجر عند شاطئ البحر أكتب لك قصيدة، أجدك تجلدينني كمذنب، تلصقين بي صفات ليست موجودة بي.

سألت برقّة وهي تداعب ظهر يده وأشعار ساعده: هل كتبت لي قصيدة، اقرأها لي.

قال: ليس الآن...

قالت: بل الآن، أرجوك.

قال: فيما بعد.

أحسّت كم تحبّه وكم ترغبه، سألته بدلال ألن تلتقي. وكرّرت سؤالها لأنه ظل صامت ولم يجب.

قال: ماذا لو أخبرتك أنني استأجرت اليوم شاليه معزولة لنلتقي بها، وأنني قادم لتؤي منها، بعد أن رتّبتها وحضّرت لك الفاكهة المجففة التي تحبينها، والسمك المشوي والمقبلات.

قالت: حبيبي، اعذرني، أكرّر أسفي، أرجوك انسَ ما قلته لك.

قال: سأنسى، إنما أرجوك لا تنقادي وراء غضبك الأعمى، فكّري دوماً بالجميل والأصيل في علاقتنا.

قالت: أعدك.

التقيا في الشاليه المعزولة، وشمس الظهيرة تصبّ جام غضبها فوق رأسيهما، وما أن أغلقا الباب حتى اشتبكا بعناق حميم، بدا لهما أنهما لن ينفصلا بعده، تمكّنت أن تستعيد أنفاسها وتقول

www.ibtesama.com

لاهثة: نحن نأكل بعضنا، بصمت وانعتاق كلي عما حولهما، عن حياتهما، بكل تفاصيلها التقيا، وذابا في ذلك الشعور الغريب الذي يصهرهما رغماً عنهما، خالقاً بينهما جاذبية أقوى من جاذبية المغناطيس، أو الجاذبية الأرضية ربما، وحين تدحرج كل منهما إلى توقعه الخاصة، جلسا مطمئنين، وقد أحسّا بطيور بيضاء رائعة تحوم حولهما دون أن تمسهما، صبّ لها الويسكي ومزجه مع الكولا كما تحب، وصبّ لنفسه كأساً، سألها: الآن سأقرأ لك ما كتبته البارحة، قالت: هيا، أنا مصغية، كانت تداعب شعره وظهره البرونزي وكأنها تلهو بدمية تحبّها كثيراً، تنهّد قبل أن يبدأ، وأخذ يقرأ:

أنت بعيد
المسافة لا تُردّ ولا تبدّل
هل تنخفض السماء
موازية طيران النورس
فوق سطوح الزبد؟
وأنتَ بعيد...
المسافة زمن
عقارب ساعات من الفوضى
رياح
وهموم تشبهها كثيراً
وصمت لا أول له ولا آخر
أنت بعيد
مطمئن إلى السكون العالمي السائد

www.ibtesama.com

إلى الوسائد
التي استندت إلى ظهرها أجيال وأجيال
والزمن مسافة
ملايين من الخطى
على دروب العذاب البشري
أو على طرقات الجبال السعيدة.
ملايين من السفن والمجاديف.
والأزرق الطويل الطويل...
من المصابيح.
من العيون المعلّقة في الآفاق.
ووهم المسافة المكثّفة كالعزلة.
بين اثنين على العشب اليومي.
أو في الأحلام.
أنت بعيد...
وأنا
في السكون السماوي،
على الطرف الآخر من الحزن.
متكئاً على وسائدي، على ساعدي الصامتين.
افكر بالمسافة:
المسافة التي لا ترد ولا تبدل
افكر بآلة الموت: الزمن!!
آه كم أحبك، انطلقت من أعماقها وهي تحتضنه، غابا بعناق إلهي، أفاقا منه بعد غروب الشمس، كان عليه أن يرجع إلى أسرته،

www.ibtesama.com

ان يبرّر غيابه الطويل، أحبّت أن تتركه حراً لتعبّر له عن تفهمها العميق لظروفه، قالت: حبيبي لا داعي أن نلتقي غداً، قال: بل سأحاول. قالت: لا، صدّقني أنا أفهم ظروفك الآن، ستمرّ بي بعد غد، في الوقت الذي تشاء. شكرها، طلبت إليه أن يوصلها إلى بيت صديقتها، لأنها لا تقوى على استعادة لحظات الحب الكثيفة بخيالها بعد انفصالهما مباشرة.

• • •

كان وداعاً قصيراً ومفاجئاً، زارها في المكتبة ظهراً، وأخبرها أنه مسافر بعد ساعة على الأكثر مع أسرته، قالت له: لكنك كنت ستبقى أكثر.

قال: تذكّرنا موعد ابني مع طبيب الأسنان، ستكون جلسته الأولى في تقويم أسنانه.

لفت انتباهها كلمة تذكّرنا، أنه يقصدها، هو وهي، الزوج والزوجة، الأب والأم، كانت تبتسم طوال الوقت، وهو يدخن الغليون، ويحكي لها عن علاقات المجاملة التي غرق بها في هذه الإجازة، وعن انزعاجه الشديد كونه لم يلتقيها كما يرغبان، وعن، وعن، كانت وحيدة، تورط ابتدأ يقلقها، لكأنه إنذار بخطر، بشؤم، ترى ما سببه؟ إنها واثقة أنه يحبها، أوه لا يمكن لرجل أن يتعبّد روح امرأة وجسدها كما يفعل هو لو لم يكن عاشقاً ومتيّماً، ما عليها إلا أن تحارب تورطها، إنه بسبب وحدتها الطويلة، لم تعتد بعد على علاقة الشراكة، وهل من شراكة أجمل من الحب؟!

عادا يتبادلان الرسائل بالكرنك، كانت متحمّسة لجمع أشعارها في دفتر، وإرسالها له كمفاجأة، ليطبعها ديواناً، كان قلبها يخفق

www.ibtesama.com

سعيداً وهي تتخيّل أشعارها مطبوعة في ديوان، ترى كيف سيكون صدى شعرها، فاجأها في منتصف تموز بهاتف لا تتوقّعه، الثانية بعد منتصف الليل، أمكنها أن تسمع صوته متشبّاً وفرحاً، أمكنها أن تشم رائحة الويسكي عبر الأسلاك. سألته قلقة: ما الخبر؟ قال: خبر يستحق أن يقلق نومك يا حبيبي.

سألت بلهفة: ترى ما هو؟ قال: سأسافر إلى باريس عشرة أيام، لأشارك في تحرير مجلة أدبية هناك. سرت فيها عدوى الفرح، صرخت بسعادة: حقاً. قال: ستكونين معي، سنقضي أجمل عشرة أيام في حياتنا. قالت: مهلاً، أظن أنني أحلم. قال: لا، أنت صاحية، وهذا الحلم قريب، في الأسبوع الأول من آب يجب أن نسافر، غداً أرسلي لي جواز سفرك بالكرنك، لنستعدّ لأخذ تأشيرة الخروج من السفارة الفرنسية.

- لكن مهلاً، مهلاً، أنا لا أستوعب، ماذا سأقول لأهلي؟

- أهلك! تقصدين أختك، هذه مسؤوليتك، قولي لها إنك مسافرة للاطلاع، للاستجمام، لأي شيء...

- أوه يا توفيق...

- ما بك يا حبيبتي...

- بصراحة لا أعرف كيف أصف مشاعري، أنا قلقة، و...

- لا تتكلمي، تابعي نومك الآن، آسف عليّ أن أقطع المكالمة، أصدقائي ينتظرون.

- حسناً، لكني لن أقدر على النوم... سأفكّر جدياً بما قلته.

- بالتأكيد فكّري جدياً، ستكون عشرة أيام خارج زماننا.

• • •

www.ibtesama.com

كان كل شيء معداً لقضاء عشرة أيام في باريس، لن يشعر أحداً أن هلين المترافقين في الطائرة عاشقان هاربان، أحكما خطة الهرب. كل شيء تمّ بسهولة، ودون أية عراقيل، نتت المواظفة على سفرها بعد أسبوع واحد من تقديمها جواز سفرها إلى السفارة الفرنسية، لكنه حين أبلغها أن كل الأوراق أنجزت للسفر، أحست بغصة امتعاض، عجباً لكأنها كانت تنتظر عراقيل ومشاكل، وصعوبات تمنع السفر، لكن لتعترف بينها وبين نفسها أنها لم تنتظر العراقيل، كانت تتمنّاها، يا للخيانة، يا للحقيقة البشعة المُرّة، فهمت، في تلك اللحظة بالذات، لماذا يخشى البشر مواجهة الحقيقة، إنها تكشف لهم خبايا لا تخطر على بالهم. لكن أليس سفرها معه إلى باريس هو عيش عمق الحياة؟ هو استنزاف السعادة، واستحلابها من الوقت؟ ألا يعتبر سفرها مع رجل تحبه ويسحرها بغنى شخصيته، عشرة أيام إلى عاصمة الحب في العالم، هو عيش عمق اللحظة؟!

لكن لماذا يبدو لها كل شيء لاواقعياً؟ لماذا تشعر أنها ظل امرأة، إنها ليست أبداً المرأة الأصلية. سرّها هذا الإحساس، وتعبيرها الدقيق عنه، مَن تكون إذاً؟! أهي ممثلة تمثّل دور عاشقة تريد السفر؟ لكن أين هي المرأة الأصلية؟ وأجاب خيالها بصورتها في المكتبة ورفوف الكتب أمامها، المرأة أصلية هناك تقرأ وتكتب شعراً، وتحلم، وتحزن، إنما لا تفكّر به، إنه غير موجود بالنسبة لها. أما المرأة المخلوقة من الأصل فهي عاشقة لاواقعية، ومصطنعة لأحداث حب وسفر، إنما لا جذور لما تفعله، مجرد فقاعة قد تتطفئ لجاة، دون أن تخلف أثراً. حاولت أن تعزو كل مشاعرها

www.ibtesama.com

السلية إلى تخولها من السفر، لكنها تعرف جيداً أنه من العبث أن تخدع نفسها، صوت الحق يصرخ قوياً في أعماقها ليقول بقسوة: أنت لست راغبة بالسفر. لكن كيف ستراجع؟ السؤال الأهم لماذا تشعر بهذه المشاعر الغريبة والسلبية؟ أما كان يُفترض بها أن تكون راضية وسعيدة؟ حاولت أن تطمئن نفسها أن مخاوفها لا معنى لها، وصوّر لها خيالها صورتهما متجاورين في الطائرة، والمضيفة تقدّم لهما النبيذ، وكيف سينظران من النافذة ليطلّا على الغيوم تحتهما، وسيصلان مطار أورلي، إنها تحفظ باريس عن ظهر قلب، ستريه البحيرة التي أحبتها كثيراً وسيلتقطان الصور، وفي المساء سيضمّهما سرير واحد، دون خوف أو رهب من انكشاف سرّهما، سيمكّنها أن تعيش عشرة أيام من الطمأنينة المطلقة بين ذراعيه، وصوّرها خيالها تلاصق جسده شبه عارية، وانتفضت من مكانها تقول لا صريحة وقوية... لا أريد، لا أريد أن أسافر، ولا أن أنام معه في سرير واحد، كان كل شيء حولها يسخر منها لكأنه يسألها هازئاً، أيعقل أن تكوني عاشقة حقاً! وأنت متشنّجة وهاربة من حبيك هكذا؟! وتساءلت بحنق لماذا لم تُخلق لهما العراقيل؟ ولماذا سار كل شيء عفوياً وطبيعياً، عجباً في كل مرة كانت تجد المشكلة في الموافقة على تأشيرة خروجها من السفارة الفرنسية، فكيف حصلت عليها هذه المرة بكل تلك البساطة؟ تمنّت لو تصاب بالتهاب زائدة لتجري عمل جراحي، يحرّرها من السفر، لكن، ما الذي يمنعها من الرفض؟ من رفع سماعة الهاتف والاتصال به معتذرة عن السفر؟ إن أسباباً كثيرة تمنعها، ما الذي يعيقها عن الاعتذار له وهي ليست مرتبطة معه بأي رباط رسمي سوى الحب،

www.ibtesama.com

هلا إذا كان ما بينهما حب؟!! وأجابت نفسها: لا، لن تكون نهاية القصة هكذا، إذاً فهي تعرف أن هناك نهاية مؤكدة وحتمية لعلاقتهما إنما كيف ومتى، وبأي ظرف وشكل لا تعرف، إنها منذ تعرّفت به وقبلت دعوته للغداء، ورغبت بتطوير علاقتهما بشكل تصاعدي، تعرف أن هناك نهاية مؤكدة، إذاً لماذا يخوض الإنسان علاقات يعرف نهاياتها سلفاً؟! لماذا يستعمل كلمات إلى الأبد، واللانهاية، والمطلق، أليس إصراره على هذه الكلمات يدل بشكل حتمي على محدوديته وخوفه من النهايات المحتومة؟ فيختبئ وراء المطلق والأبد؟!

لكن لماذا ارتضت منذ البدء أن تخوض معه علاقة واضعة يمينها في يده، بينما يسارها تحمل ممحاة النهاية، ستمحو يسراها كل ما تخلقه يمناها، لكن أليست هذه طبيعة الأشياء؟ أليست لحظة الولادة مبطّنة ولو بعد زمن طويل أو قصير بلحظة النهاية والموت؟ لكن العاشق وهو يعيش لحظة العمق هذه لا يفكّر بالنهاية بل يحسّ أن لحظته أبدية ومطلقة، يكون سعيداً ومنتشياً، أما هي فترغب بكل أحاسيسها أن تهرب، إنها لا تريد الرحلة، ولا الحبيب ولا باريس، ونحسّ بتعب شديد من مجرد تخيّلها كيف ستخرج ثيابها من خزاناتها وستسافر إلى دمشق، وستتجه إلى المطار، وتصعد الطائرة... سيلتقيان في الطائرة، آه ما أحلى لو تبقى في بيتها تنام بعمق، ترشف القهوة، وتكون ملكة متوّجة في مملكة وحدتها، وتتأمل حياة الناس حولها.. أليست حياتها البسيطة تلك أفضل من السفر مع رجل متزوّج وغريب؟ عجباً هل صار غريباً، ذلك الذي سافر عشرات المرات ليلقاها، والذي قطعت مسافات طويلة لتقضي معه

www.ibtesama.com

يوماً أو ساعات، أهو غريب حقاً؟ هل صار خارج عواطفها ومشاعرها؟ وكيف غدت صورته باهتة وبعيدة لا تحرّك في نفسها أي شعور؟ كيف غدا بعيداً لكأنه ذكرى عمرها عشرون عاماً؟ لكن ألم يحرّكها الحب دوماً باتجاهه؟ الحب أم الرغبة بالحب؟ الرغبة بتوديع الحب وداعاً لائقاً، بأن تعيش تجربة غنية بالطول والعرض.

همّت أن تكتب له رسالة تشرح فيها كل ما تحسّه، سترجوه ألا يزعل منها وأن يقدّر صراحتها التي تعني تحديداً عمق احترامها له، إنها لا يمكن أن تكون ممثلة، أو تتظاهر بعكس ما تشعر به.

ستبلغ صراحتها بأن تعترف له أنها تمنّت لو عرقل سفرهما بأي شكل، إنها تشتمّ رائحة النهاية، فلتكن نهاية لائقة، ليجمّلها الصمت، يجب أن تنتهي قصص الحب الرائعة بالصمت دوماً، لأن أي كلام لن ينفع بل سيدو سخيفاً وجارحاً.

فكرة معقولة أن تكتب له، لكن رنين الهاتف شتّت أفكارها. وأتاها صوت قريبتها يوصيها على دواء بخاخ للربو، وآخر لمرض عصبي، هو التصلب اللويحي، وأخذت تدعو لها بالتوفيق، وتوصيها أن تستمتع بكل لحظة. أحسّت أنها يجب أن تسافر إرضاءً لصديقتها، ولتجلب هدايا لياسمين، ولأنه لا يوجد سبب واضح وصريح يعيق سفرها، إذاً سفرها مؤكد، حاولت أن تطمئن نفسها أن مخاوفها وهبوط مشاعرها طبيعيان، وذكرت نفسها كم من المرات قرّرت إنهاء علاقتها به، ثم عادت إليه بزخم كبير، لكنها تحسّ أنها هذه المرة مختلفة، ثمة ناقوس يدق معلناً لحظة النهاية، بل إنها تكاد تسمع سمفونية حلبة وحزينة تحكي قصتهما وتختمها خاتمة ساحرة، تنفرد البيانو بعزفها، دائماً تخيّل صوت البيانو هو الأنسب

www.ibtesama.com

للنهايات، أرهقتها مشاعرها الغارقة في اللبول والاكتئاب، استجدت بقوى معاكسة تساعدها، هبّ صوت عسكري في أعماقها يأمرها أن تسافرن ويأمر كل مشاعرها السلبية أن تكف عن إزعاجها، وها هي مشاعرها تترسّب في قاع روحها تاركة ما فوقها خواء وفراغ، وها هي ترى لحظات سفرها مرتسمة بوضوح في مخيلتها، وكيف ستمضي برفقته عشرة أيام في ربوع باريس، وتعود محمّلة بالمشتريات والهدايا، لكنها عجزت عن رسم ابتسامة، ولو ابتسامة مفتعلة أو مجاملة، يا للفنوط! حين يشتدّ ويحتل الشخص، ويوقعه أسيراً، ترى لِمَ لا يسرع الزمن لتجد نفسها وقد رجعت من رحلتها، إلى هذا الحدّ يبدو سفرها ثقيلاً، لكأنها تلعن لأمر ليس بإمكانها مخالفته: هيا سافري.

تمنّت بقوة في تلك اللحظة لو كانت خاضعة لسلطة ما تمنعها من السفر. تمنعها من ممارسة حريتها. آه كم هي صعبة الحرية؟

في موعده المعتاد مساء كل يوم، اتصل، أحسّت بنعمة الهاتف، إنه يخفي المشاعر الحقيقية المرتسمة على الوجه، قالت لنفسها الحمد لله لا يرى وجهي، كان يحدّثها بلهفة ومحبّة، كم يعدّ الدقائق والساعات ليأتي بعد الغد، ليلتقيا في المطار في رحلة حبهما الأولى، وأخبرها أن الغد سيكون أطول يوم في حياته، كانت تصغي إليه بغرابة، شيء ما تحتّه غير طبيعي، لماذا يحرّض كلامه الرقيق في نفسها هذا الشعور بالغرابة والكآبة، وبالرغبة بالهروب أيضاً، غضبت على نفسها وخاطبتها ساخطة: والله ما من أحد يثير الدهشة سواك، جاملته ببضع كلمات، تمنّت أنها مثله تنتظر لحظة يجلسان متجاورين في الطائرة، واتفقا كعادتهما ألا يتصلا في الغد، أغلقت

www.ibtesama.com

الساعة وهي تعي غيابه التام، لكأنه يهوي في قاع سحيق، وأحست أنهما يلتئمان - عبر الهاتف - كل يوم لثوانٍ، لدقائق، ثم يبتلع كل منهما الصمت والبعد، مجرد صوت، مجرد كلمات تنطلق، ثم يبتلعهما العدم، هي تغرق في مكتبتها وهو في مشاغله الكثيفة، ومع ذلك عاشا ثمانية أشهر من الترقب والتلهف الشديدان، لتلك المكالمة، وكانا يحتاجانها كحاجة المختنق للأوكسجين، ترى لماذا خفّ احتياجها للأوكسجين؟! وبهذه الدرجة العنيدة والصريحة، وغير القابلة للتراجع.. ترى هل زال إحساسها بالاختناق؟ وأسرعت تجيب: أوه أبداً، بل على العكس أحسّ أنني مختنقة أكثر وأكثر، إذاً ما الذي يجري في شعورها ولاشعورها، في وعيها ولاوعيها وها هي السخرية تهبّ للتخفيف عنها كالعادة، كفى، لقد تعبت، سأسافر، لأني لا أملك حجة قوية لأمنع هذا السفر وقبل أن تغرق في النوم مستنجدة بحبة منومة، تساءلت متعبة: ترى هل هناك حجة أقوى من عدم رغبتي بالسفر؟!

صباح اليوم التالي فتحت حقيبة سفرها لتملأها بالثياب اللازمة، استوقفها منظر الحقيبة الفارغة، ورائحة الجلد، أحسّت بشبه عميق بينها وبين الحقيبة، كلاهما فارغ، إنها فارغة من الإحساس بالمعنى، كانت تتأمل أن يكون هذا الصباح أرحم من سابقه، أن يخفّ هبوط مزاجها، وتعكّر سلامها الداخلي، لكن ما أن بدأت نهارها حتى أحسّت بتلبد غيومها الداخلية الرمادية، والمكفهرة، وفي جوفها الرمادي تكمن عاصفة، إنما لا تعلم متى تهب، عاصفة خرساء، لا تعطي إنذاراً ولا إشارة، ارتعبت من وجهها المتجهّم حين لمحته في المرآة، يا إلهي ما هذا الذي يعتمل في داخلي، ألا

www.ibtesama.com

يجب أن ألغي هذا السفر بأي شكل؟ همّت أن تتصل به، شجّعت نفسها، كرّرت مراراً أن الحياة ما هي سوى لحظة شجاعة تنقلب بعدها الدنيا راساً على عقب... رفعت سماعة الهاتف وبرشاقة رسمت سبابتها رقم مكتبه، أتاها صوته قريباً دافئاً، حقيقياً، آلو، آلو، لم تجرؤ أن تقول شيئاً، آلن يتفقا أن يلزما الصمت في اليوم السابق لسفرها، تهاوت ببطء بعد أن سمعت صوته، وكأنها تهبط في مظلة، غمرها شعور حزين وأكيد وهي تحسّ بلطفه وحبه، لكن كآبتها ورغبتها في الهروب من هذه الرحلة لم تتراجعا، ولم تخف حدّتهما بعد سماعها صوته، فلتسافر أو لا تسافر، سيان، الحياة تمضي، وستمر الأيام العشرة سواء كانا متلاصقين أو متباعدين، فالزمن ما كان يوماً مبالياً بمخططات البشر.

• • •

كل الناس حولها كانوا مصدّقين سفرها، ما عداها، لم تنسَ شيئاً من لوازم السفر، لكنها بعد أن وضعت الكاميرا مع ثلاثة أفلام للتصوير في حقيبة يدها، عادت بعد قليل لتخرجها، وتعيدها إلى خزانتها، كان وجهها جامداً، وملامحها متصلبة وهي تقرّر أنها لن تتصوّر معه، شعور ملحّ بعدم القناعة يهيمن عليها، كانت تشعر كأنها أوقعت نفسها في كمين، وأنه ليس من مجال للمقارنة أبداً بين عيش اللحظة بصدق وعمق، واستنزافها حتى آخر رحيق فيها، وبين افتعال ظروف وأحداث بهدف العيش عمق اللحظة، فرق كبير بين الأصل والصورة، التقليد لا يمكن أن يكون الأصل، لأنه يفتقر للمحور الرئيسي - الشخصية - والممثل مهما برع في أداء شخصية معينة فإنه لا يمكن أن يكونها أبداً، لأنه أصلاً شخص آخر، تركيبة أخرى،

www.ibtesama.com

وهي دخلت علاقتها معه، وغاصت فيها واشتبكت وتشربكت به ومعه، وبأحداث خلقاها وطوّراها، لكنها لم تستطع خنق شعور مؤكد ينسلّ إلى نفسها دوماً أنها باشرت علاقتها معه بفرار، كل ما قصدته هو حفلة وداع لائقة بالحب كما فهمته دائماً، تحليق وانصهار وافتتان، آخر فرصة تعطيها امرأة لنفسها وهي توزّع زهرة الشباب، أنها كمن يتعلّق بغصن شجرة ونحته الهاوية، فليتأرجح قدر استطاعته، ليتفرّج على الدنيا، ويتأمّل الكون، قبل أن توهن عضلات يديه ويسقط. الفرار يلحّ الآن، لكأن لسان حالها يقول: ماذا تنتظرين بعد كي تبدئي حفلة الوداع، وإلى أي مدى ستستمرين معه؟ هل تعتقدين أنك ستستمرين معه سنة أو ستين؟ وستفرجان معاً على بدايات الذبول، ستلاحظينها بعين عقلك، كما تلاحظين كل يوم خيال تجعيدة حول عينيك، أو في رقبتك تتحوّل بعد أسابيع إلى خط واضح، وبعد سنوات ستصير التجاعيد أثلاماً، وحتى لو أردت إجراء عملية شد البشرة، فإن تجعيدات ذهنك الشيخية ستبقى، هكذا الشباب يأفل، ويغرب، كالشمس، لكن الشمس تعود لتشرق مجدداً، فهلّا أشرقت مجدداً يا شبابي.

لم تستطع أن تدخل أي بهجة إلى روحها، كونها مسافرة إلى باريس، حاولت أن تمازح نفسها وتقول: أليست باريس بحدّ ذاتها فاتنة وتستحق أن أفرح لزيارتها؟ فلماذا أنا مقطّبة هكذا؟ وكأنني سائرة في جنازة؟ ولم تجد كلمة أكثر مناسبة من تعبير جنازة، إنها حقاً منطلقة في جنازة حب عاش أشهراً جميلاً مثالقاً، لكن لتعترف أن شعوراً بالزيف ظلّ ينخرها دوماً، ويدفعها لتقول لنفسها إنك لست الأصل، بل الممثلة، أنت لم تسقطي عفوياً في الحب، بل

www.ibtesama.com

وقفت إلى جانب الحفرة وأسقطت نفسك فيها عمداً.

أبداً لم تشعر بشيخوخة قلبها كما أحسّتها فجر سفرها عند الخامسة صباحاً، أفاقت على صوت المنبّه، وشعور عميق أن ثمة غيوماً تتكاثف وتتكاثف في أعماقها يزيد، أحسّت أن قلبها أصفر شاحب، تملؤه التجاعيد والندوب، وأنه متعب من الخفقان، وضخ الدم، ولبسها إحساس بالشؤم أنها قد تموت قريباً، وقلبها مثقل هكذا، فلتودّع باريس قبل أن تموت، واستوقفتها فكرة الوداع، ووجدت نفسها تعترف بأسى وصدق أنها لا ترغب بتوديع أحد قبل رفائها، ستبتسم بينها وبين نفسها للوجوه التي أحبّتها وعرفتها، ستقول لهم وداعاً، إن الوداع أمر شخصي جداً يعيشه الإنسان مع ذاته.

حين انطلق بها الباص مع المسافرين، أغمضت عينيها، متخيّلة أنها تغفو وسط شرك حبكت خيوطه من شبك ناعم ومتين، بعد ساعات سيلتقيان في المطار، كغريبين، كل يحمل حقائبه، لكنهما سيتلازمان طوال الرحلة. تنهّدت بعمق شديد مرات متلاحقة، وهي ترجو قلبها أن يتروّد، أن يتفاءل قليلاً، أن يضخّ دماء دافئة إلى وجهها عساها تبتسم، ترطّبت عيناها بالدموع، وهي تحسّ كم أنها بائسة.

كانت لا تزال تتأمّل أن تحدث عراقيل أثناء الرحلة، كأن يتعطّل الباص، أو يحدث حادث ما، حتى لو ماتت أثره، فهذه نهاية عادية ومعقولة، وتحدث كثيراً في الواقع، وفي الأفلام.

لكن الباص وصل أبكر من عادته، بثلث ساعة، واستقلت تاكسي إلى المطار، كانت تراقب السائق، إنه شاب لطيف، ويقود

www.ibtesama.com

بمهارة، ماذا لو خطر له أن يخطفها، أو يهتدها، أو أي شيء؟ لكن ها هو مستمر في القيادة مسرعاً قليلاً لاعتقاده أنها قد تتأخر على موعد الطائرة...

كان أمامها ساعتان من الانتظار، حتى يحين موعد صعودها إلى الطائرة، أين هو؟ بحثت عنه بعينين مسهدتين فاقدتي البريق، فلم تجده، لم تبحث مجدداً، أخذت تتأمل كومة من نساء يلبسن الأسود من رؤوسهن، وحتى أعقاب أقدامهن، وقد تبعثر بضعة أطفال بينهن، أحسّت كأن بداية صداع تعلن عن ولادتها في رأسها، أسرعت تتناول حبة مسكنة، أخرجتها من حقيبتها وابتلعتها دون ماء، كانت تراقب حزينة بعين خيالها، شيخوخة قلبها المفاجئة والسريعة، والتي تشعر أن لا مجال لعودة الشباب إلى ذلك القلب الذي تاءب بقوة وأعلن استقاله عن الحب، واجهتها مشكلة الأيام العشرة، يا إلهي أي ورطة هذه؟ أهي حقاً في المطار، وستطير بعد ساعتين؟ أوه كيف ستريه وجهها الذابل، بأية حجج ستبرِّر قبولها العجيب والفجائي؟ وهل من المناسب أن تحكي له مشاعرها خلال اليومين الأخيرين؟ وكيف اتصلت به لتعلمه عدم رغبتها بالسفر، وكيف سمعت صوته يقول ألو، ألو... ترى هل خطر له أن تكون هي على الطرف الآخر من السماعة؟ وهي على هذه الدرجة من اليأس والقنوط؟ ترى ماذا سيفعل لو صارحته بكل شاردة وواردة في مشاعرها؟ تنهّدت وعيناها تجولان في واجهات دكاكين المطار، تحديداً تتأملان قطع الموزاييك، أوه إنها لا تحب الموزاييك، وتستغرب أن يكون له كل هؤلاء المعجبين والمحبين، وفجأة قفز إلى وجهها تساؤل مدهش: ترى ما أدراك إن كان يحبك فعلاً؟ ما

www.ibtesama.com

أدراك، وهو في الواحد والخمسين من عمره أن يكون راغباً في توديع الحب وأن يعيش بدوره حب آخر؟ ما أدراها أنه لا يهرب من فم الشيخوخة التي تفغر فاها كالغول ينوي ابتلاع ضحيته؟! لا، لا، هكذا صرخت باستنكار، طوال الأشهر الماضية كانت تلمس حبه ولهفته، وإلحاحه أن يستمرا رغم نكساتها التي كان يعزّيها لإحساسها العميق بالوحدة، ولخيبتها في زواجها، لكن ما أدراها إن سقط لاواعياً في حبها أم عامداً متعمّداً؟! واستعادت تفاصيل لقائهما الأول، وانتبهت أن هناك الكثير من التفاصيل قد فاتتها، ألم يصرّا أن يتغدّيا معاً، ألم يسمّها الملكة الحزينة؟ ألم يتصل بها حال وصوله إلى بيته.. أليست هذه الأحداث المتتابعة أشبه بحلقات يصلانها حلقة حلقة ليخلقا منها عقداً جميلاً، وما أدراها أنه لا يودّع شباباً تمنّاه لو يكون أطول وأكثر توهجاً.

توقفت عن التفكير، كان ذهنها يستنجد أنه متعب، جلست تشعل سيجارة وتنفث دخانها الذي أحسّه محتبساً عميقاً في داخلها، لكأنها تزفر سحب اختناق روحها، كانت أنظارها سارحة في كل مكان، وفجأة انخلع قلبها من مكانه، وسقط بين قدميها، وهي ترى سيارته، ها هو يقودها وإلى جانبه هي، الزوجة وفي المقعد الخلفي طفلان، ترى رأسيهما إنما لا تؤكد ملامحهما. استقرّ نظرها على المرأة، إنها تبدو جميلة، تضع نظارة شمس بنية اللون وقد رُصّعت أطرافها بأحجار ماسية ملتمعة، انكشف لخلها المرأة وهي تترجّل من السيارة، كانت تلبس تايوراً أخضر، أمكنها أن تلاحظ تناسق قوامها ونحافتها، إنها جميلة إذاً؟ وقد عقصت شعرها بربطة شعر تشبه الوردة من الساتان الأسود، أهذه هي زوجته إذاً، التي تلبس مايوه

www.ibtesama.com

سباحة من قطعتين، أوه إنها ليست بدينة وكهلة كما توقّعتها، أو كما أحبّت أن تتخيّلها لتبرّر علاقتها مع زوجها؟ ترجّل من السيارة واضعاً نظارة الشمس التي أهدته إياها بمناسبة الشهر الخامس على تعارفهما، وعلى تأجج لهيب عواطفهما الحقيقي، المفتعل، الأصلي، التقليدي، أوه لا تعرف... فتح الباب للصغيرين، نزلا تباعاً، الكبير في الحادية عشرة والصغير في الثامنة، كانت رياح اختناقها تتحرّك في داخلها، أطلقت تنهيدة وهي تقول: العائلة السعيدة. ونظرها مثبّت عليهم يخلق دوائر متوالدة تحبسهم داخلها، أخرج حقيبة سفره ووضعها أرضاً تفرّجت عليه كيف يقبّلهما واحداً واحداً، وآمنت بالطريقة التي ودّع بها زوجته أن علاقتهما حميمة بالتأكيد، وفجأة هزّتها حمى عنيفة فلفتها خارج مقعدها، كان جسدها يرتعش، وركضت تحضر حقيبة سفرها، وتشكر ربها أنها لم تسلمها بعد للموظفة لتختمها وتعطيها رقماً. كانت دموع تتقلف من عينيها ككرات مائية تتساقط أمامها، لكأن مضخة تدفعها خارجاً، كانت بائسة لحدّ شعورها أن بؤسها يتحوّل إلى حصى تتعثّر بها في مشيتها، انطلقت هاربة من باب جانبي قبل أن يلمحها، كانت سيارة أجرة عند الباب كأنها تنتظرها في لحظة قرارها، ابتلعت دموعها وقالت للسائق بصوت اجتهدت أن يكون طبيعياً: محطة الباصات لو سمحت.

وحين فتحت حقيبتها لتخرج محارم ورقة تمسح بها أنفها ودموعها، لمحت بطاقة الطائرة، ضحكت ضحكة عصية تختزن فيها آلامها كلها، قالت مخاطبة البطاقة: لا بأس، لا بأس.

وصرخت البطاقة: لكن، لماذا فعلت ذلك؟ أية طعنة سدّدتها له.

www.ibtesama.com

أمرتها أن تخرس، قائلة بحرارة لم تعرفها من قبل: لا يهم، إنه مشغول في كل الأحوال، بتأسيس مجلة، سيفهمني بالتأكيد. تفكرت طويلاً وأردفت وقد يشكرني.

مرّت إلى جانبها سيارته تقودها زوجته، امرأة مؤكدة، والطفلان يجلسان في المقعد الخلفي، قالت لنفسها: هذه حياته، هذا هو، يجب أن يكون وسطهم ولهم ومعهم، لن أرضى أن أكون بعد الآن منطقة محرّمة، حتى لو كان ما يجمعنا حباً رائعاً، إنما لا، لن أستمر، لست قادرة على الاستمرار، أوه باريس اغفريني، لن ألقاك وأنا مضطربة، مشوشة.

حين أوقفها التاكسي عند محطة الباصات، كانت قد أغرقت كومة من المناديل الورقية بدموعها، كانت تحبه بقوة في تلك اللحظات القاسية والحقيقية، وتتخيّله كيف سيبحث عنها قلقاً، كانت دموعها لا تزال تنسكب بغزارة، ابكي ابكي يا عيني الجميلتين اللتين يحبهما، وتتخيّله مخذولاً وحزيناً ومتألماً منها، لكن ما الذي دفعها للهروب هكذا كأن شيئاً قد أصابها؟ هل لأنها وجدته مع أسرته؟ هل منظر زوجته الجميلة... ماذا ستعدّد من أسباب، ألف سبب وسبب، وتساءلت ماذا عساها تقول لأختها ولجيرانها. لا يهمّ إطلاقاً، ستجد العذر المناسب، الكذبة المناسبة، وفيما كانت تتلمّس بطاقتها من الموظفة وتقرأ رقم مقعدها في الباص همس صوت بأذنها: ها أنت الآن تعيشين عمق اللحظة. توقفت مبهورة الأنفاس، كانت تحسّ بإعياء شديد يجعلها تشعر كأنها كيس من تراب بشكل امرأة، لم تشعر أنها أحبته كما تحبه الآن، ودّت لو تقبّل عينيه الدامعتين، إلا أن شعوراً حقيقياً بالرضا كان يتنامى في نفسها،

www.ibtesama.com

ويشرق مغرقاً إياها بسلام طالما افتقدته.

كان لحناً جميلاً ورقيقاً يطن في أذنيها، تعزفه آلة البيانو، لحن تعرفه جيداً وسمعته مراراً، كان قد أهداها إياه على شريط تسجيل، وحدها البيانو يجب أن تنفرد بالعزف لآخر حب، أتراه كان يسمعه في رحلة وحدته الأليمة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

www.ibtesama.com

للمؤلفة

- ورود لن تموت - قصص - دار المنارة، 1992.
- قصص مهاجرة - قصص - دار الأهالي، 1993.
- قبو العباسين - رواية - دار الأهالي، 1995.
- خواطر في مقهى رصيف - قصص - اتحاد الكتاب العرب، 1996.
- ظل أسود حي - قصص - وزارة الثقافة، 1997.
- موت البجعة - قصص - اتحاد الكتاب العرب، 1998.
- أفراح صغيرة، أفراح أخيرة - رواية - دار الأهالي، 1998.

  أعيد طبعها في القاهرة من قبل الهيئة العامة للكتاب.
- يكفي أن يحبك قلب واحد لتعيش - قصص - اتحاد الكتاب العرب، 1999.
- نسر بجناح وحيد - رواية - دار بالميرا، 1999.
- الساقطة - رواية - دار رياض الريس، 2000.
- أيقونة بلا وجه - رواية - دار نلسن، 2000.
- يوميات مطلقة - رواية - الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، 2006.

www.ibtesama.com

التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا للأخت الغالية رياحين
من منتديات ملاذنا
التي قامت بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

أفراح صغيرة.. أفراح أخيرة

رواية

هيفاء بيطار

• روائية من سورية

جمعت كومة الأوراق أمامها، كانت تواجه ثماني سنوات من عمرها، سنوات اللهاث وراء البويضة الملقحة، أغمضت عينيها وهي تعي بألم عميق كيف تحولت أحلى سنوات شبابها إلى بحث لاهثٍ ولا مجدٍ بل كارثي...

جمعت التقارير كلها في كيس، ربطت عنقه ورمته في علبة القمامة، أحست بعد أن تخلصت منه أنها غدت خفيفة وبعيدة عن كل شيء، وخارج كل شيء، حتى ثقل جسدها تحررت منه، أتراها تدخل عالم النوم، لأنها أجفلت فجأة، وفتحت عينيها مذعورة وقلبها يخفق بشدة وقد جسّد لها ذهنها لوحة بدت مفزعة، مع أنها مؤلفة من كل الوجوه المحببة والمألوفة، صورتها ترجع من شهر العسل، وعيونهم مبحلقة فيها، عيونهم جميعاً، أهلها، أهله، الجيران، المعارف، البقال، والفران، وعامل التنظيفات، عيون تسأل: ماذا تخبئين لنا؟ وترد بابتسامة عذبة: لم أفهم، ماذا أخبئ لكم؟

فيشيرون بأصابعهم إلى بطنها، ويقولون: ماذا تخبئين في بطنك؟

وتطرق بخجل: لكن لم يمضِ على زواجي سوى شهر.

كابوس،كابوس، فعلي، قامت تشرب الماء، وأنفاسها تتلاحق، فكرت أنها لو أرادت الكتابة للطبيب الأميركي عن ظروفها البيئية والنفسية فستبدأ من هذا الكابوس، تحديداً من عبارة: ماذا تخبئين في بطنك...

ISBN 978-9953-87-278-0

منشورات الاختلاف
revueikhtilef@hotmail.com

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

www.mlazna.com-RAYAHEEN
www.ibtesama.com